الهيئة المحلية
لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية
بالإسكندرية

الحافظ السلفي

أشهر علماء الزمان

(٤٧٠ – ٥٧٦ هـ)

ولد بأصفهان، وعاش ١٠٦ سنة ،
قضى منها ٦٥ سنة بالإسكندرية
وبها سمع منه صلاح الدين دروس الحديث

محمد محمود زيتون

مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت ٣٩٤٧٢ الإسكندرية

اهداءات ٢٠٠٢

الشاعر/ عبد العليم القبانى

الإسكندرية

الحافظ السِّلَفي

أشهر علماء الزمان

(٤٧٠ - ٥٧٦ هـ)

ولد بأصفهان ، وعاش ١٠٦ سنة ، قضى منها ٦٥ سنة بالإسكندرية ، وبها سمع منه صلاح الدين دروس الحديث . . .

محمد محمود زيتون

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر
ت ٣٩٤٧٢ بالإسكندرية

مطبعة صلاح الدين بالاسكندرية
تليفون ٣٠٩٨٦

« كان حافظاً جليلا ، وإماما كبيراً ، واسع الرحلة ، دينــاً ورعا ، حجـــة ثبتـــاً ، فقيهـــاً لغـــوياً ، انتهى إليـــه عـــلو الإسناد ، مع الحفـــظ والإتقان »

ـ السبكي ـ

المصادر

الكتاب		المؤلف	الوفاة
الموطأ فى الحديث	:	الإمام مالك	(- ١٧٩ هـ)
كتاب الأم	:	الإمام الشافعى	(- ٢٠٤ هـ)
فتوح مصر والمغرب	:	ابن عبد الحكم	(- ٢٥٧ هـ)
فتوح البلدان	:	البلاذرى	(- ٢٧٩ هـ)
ولاة مصر وقضاتها	:	الكندى	(- ٣٥٠ هـ)
تاريخ علماء الأندلس	:	ابن الفرضى	(- ٤٠٣ هـ)
رياض النفوس	:	عبد الله المالكى	(- ٤٥٣ هـ)
الجزء من فضائل الإسكندرية (مخطوط مصور)	:	ابن الصباغ	(- بعد ٤٦٠ هـ)
تاريخ بغداد	:	الخطيب البغدادى	(- ٤٦٣ هـ)
المقتبس فى أخبار بلاد الأندلس	:	ابن حيان	(- ٤٦٩ هـ)
معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع	:	البكرى	(- ٤٨٧ هـ)
جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس	:	الحميدى	(- ٤٨٨ هـ)
فضائح الباطنية (أو المستظهرى)	:	الغزالى	(- ٥٠٥ هـ)
لامية العجم	:	الطغرائى	(- ٥١٤ هـ)
المقامات	:	الحريرى	(- ٥١٦ هـ)
سراج الملوك	:	الطرطوشى	(- ٥٢٠ هـ)
الحوادث والبدع	:	»	»
ديوان ظافر الحداد	:	ظافر الحداد	(- ٥٢٨ هـ)
الرسالة المصرية	:	أبو الصلت أمية	(- ٥٢٨ هـ)
نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق	:	الإدريسى	(- ٥٦٠ هـ)

الكتاب		المؤلف	الوفاة
تحفة الألباب وتحية الإعجاب	:	حامد الغرناطي	(- ٥٦٥ هـ)
أنباء نجباء الأبناء	:	ابن ظفر الصقلي	(- ٥٦٥ هـ)
ديوان ابن قلاقس	:	ابن قلاقس	(- ٥٦٧ هـ)
تاريخ اليمن	:	عمارة اليمني	(- ٥٦٩ هـ)
النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية	:	»	»
تاريخ مدينة دمشق	:	ابن عساكر	(- ٥٧١ هـ)
التاريخ الكبير	:	»	»
فهرست ما رواه عن شيوخه	:	ابن خير الإشبيلي	(- ٥٧٥ هـ)
معجم السفر (مخطوط مصور)	:	السلفي	(- ٥٧٦ هـ)
المشيخة البغدادية (» »)	:	»	»
الصلة في تاريخ أئمة الأندلس	:	ابن بشكوال	(- ٥٧٨ هـ)
صفوة الصفوة	:	ابن الجوزي	(- ٥٩٧ هـ)
خريدة القصر في شعراء العصر	:	العماد الكاتب	(- ٥٩٧ هـ)
نصرة الفترة وعصرة الفطرة	:	»	»
الاستبصار	:	لكاتب مراكشي من أهل القرن السادس	
ألف باء	:	يوسف البلوي	(- ٦٠٤ هـ)
أخبار من نواحي مصر	:	أبو صالح الأرمني	(- ٦٠٥ هـ)
قوانين الدواوين	:	ابن مماتي	(- ٦٠٦ هـ)
رحلة ابن جبير	:	ابن جبير	(- ٦١٤ هـ)
بدائع البدائه	:	ابن ظافر الأزدي	(- ٦٢٣ هـ)
معجم البلدان	:	ياقوت الحموي	(- ٦٢٦ هـ)
» الأدباء	:	»	»

الكتاب		المؤلف	الوفاة
معجم الألقاب	:	ياقوت الحموى	(– ٦٢٦ هـ)
الإفادة والاعتبار	:	عبد اللطيف البغدادى	(– ٦٢٩ هـ)
تاريخ الكامل	:	ابن الأثير	(– ٦٣٠ هـ)
التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية	:	»	»
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية	:	ابن شداد	(– ٦٣٢ هـ)
المختصر المحتاج إليه من تاريخ أبى عبدالله الدبيثى أو (ذيل تاريخ بغداد) انتقاء الذهبى	:	الذهبى	(– ٦٣٧ هـ)
النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة	:	ابن عبد الملك	(– ٦٤٠ هـ)
ذيل تاريخ بغداد (حرف العين) (مخطوط)	:	ابن النجار	(– ٦٤٣ هـ)
مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان	:	سبط ابن الجوزى	(– ٦٥٤ هـ)
التكملة لوفيات النقلة (مخطوط فى ٦٠ جزءاً)	:	المنذرى	(– ٦٥٦ هـ)
المعجم فى أصحاب القاضى أبى على الصدفى	:	ابن الأبار	(– ٦٥٨ هـ)
تحفة القادم	:	»	»
المقتضب من تحفة القادم (اختيار إبراهيم البلفيقى)	:	»	»
التكملة لكتاب الصلة	:	»	»
كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين	:	أبو شامة	(– ٦٦٥ هـ)
الذيل على الروضتين	:	»	»
أخبار مصر	:	ابن ميسر	(– ٦٧٧ هـ)
المفاخر السنية والمآثر المرضية (مخطوط)	:	الحسين بن عتيق السكندرى	(– ٦٨٠ هـ)
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان	:	ابن خلكان	(– ٦٨١ هـ)
الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة	:	ابن سعيد	(– ٦٨٥ هـ)
المغرب فى حلى المغرب	:	»	»

مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب	: ابن واصل	(- ٦٩٧ هـ)
تاريخ الواصلين فى أخبار الخلفاء والملوك والسلاطين (مخطوط مصور)	: »	»
الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة	: ابن عبد الملك	(- ٧٠٣ هـ)
مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع	: ابن عبد الحق	(- ٧٣٩ هـ)
الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد	: الإدفوى	(- ٧٤٨ هـ)
سير أعلام النبلاء	: الذهبى	(- ٧٤٨ هـ)
تفرقة القراء الكبار على الطبقات والأعصار	: »	»
ميزان الاعتدال فى نقد الرجال	: »	»
العبر فى خبر من غبر	: »	»
دول الإسلام	: »	»
المشتبه فى الرجال أسمائهم وأنسابهم	: »	»
تذكرة الحفاظ	: »	»
وذيوله :		
أ - ذيل	: الحسينى الدمشقى	(- ٧٦٥ هـ)
ب - لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ	: ابن فهد المكى	(- ٨٧١ هـ)
حـ - ذيل طبقات الحفاظ	: السيوطى	(- ٩١١ هـ)
د - ذيل على ذيل كتاب العبر	: العراقى	
تتمة المختصر فى أخبار البشر	: ابن الوردى	(- ٧٥٠ هـ)
طبقات الشافعية الكبرى	: السبكى	(- ٧٥٦ هـ)
لسان الميزان	: »	»

الكتاب		المؤلف	الوفاة
ديوان ابن وفاء الاسكندرى (مخطوط)	:	شمس الدين بن وفا	(- ٧٦٠ هـ)
فوات الوفيات	:	الكتبى	(- ٧٦٤ هـ)
الوافى بالوفيات	:	الصفدى	(- ٧٦٤ هـ)
الغيث المنسجم فى شرح لامية العجم	:	«	«
نكت الهميان فى نكت العميان	:	«	«
أعيان العصر وأعوان النصر	:	«	«
تاريخ علماء بغداد (ذيل على ابن النجار)	:	ابن رافع السلامى	(- ٧٧٤ هـ)
البداية والنهاية	:	ابن كثير	(- ٧٧٤ هـ)
الإلمام بالإعلام وماجرت به الأحكام والأمور المقضية فى وقعة الإسكندرية وعودتها إلى حالتها المرضية سنة سبع وستين وسبعمائة هجرية (مخطوط مصور)	:	النويرى السكندرى	(- ٧٧٥ هـ)
الإحاطة فى أخبار غرناطة	:	ابن الخطيب	(- ٧٧٦ هـ)
رحلة ابن بطوطة	:	ابن بطوطة	(- ٧٧٩ هـ)
الديباج المذهب فى أعيان المذهب	:	ابن فرحون	(- ٧٩٩ هـ)
تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات	:	نور الدين السخاوى	(بعد ٨٠٤ هـ)
روضة المناظر فى أخبار الأوائل والأواخر	:	ابن الشحنة	(بعد ٨٠٦ هـ)
تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق	:	خالد البلوى	(بعد ٨١٩ هـ)
غاية النهاية فى طبقات القراء	:	ابن الجزرى	(- ٨٣٣ هـ)
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار	:	المقريزى	(- ٨٤٥ هـ)
السلوك لمعرفة دول الملوك	:	«	«

اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الحنفا	: المقريزى	(- ٨٤٥ هـ)
الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة	: ابن حجر	(- ٨٥٢ هـ)
رفع الإصر عن قضاة مصر	: »	»
الإصابة فى تمييز الصحابة	: »	»
إنباء الغمر بأنباء العمر	: »	»
زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك	: غرس الدين خليل	(- ٨٧٣ هـ)
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة	: ابن تغرى بردى	(- ٨٧٤ هـ)
المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى	: » »	»
إنباء الهصر بأبناء العصر	: الصيرفى	(- ٨٧٩ هـ)
دستور الإعلام بمعارف الأعلام (مخطوط)	: ابن عزم	(- ٨٩١ هـ)
الضوء اللامع لأهل القرن التاسع	: شمس الدين السخاوى	(- ٩٠٢ هـ)
الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ	: »	»
التبر المسبوك فى ذيل السلوك	: »	»
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة	: السيوطى	(- ٩١١ هـ)
رسالة فى فضل ثغر الإسكندرية	: السيوطى	(- ٩١١ هـ)
(مخطوط مصور مكمل لابن الصباغ)		
بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة	: »	»
تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة	: »	»
نظم العقيان فى أعيان الأعيان	: »	»
طبقات المفسرين (مخطوط)	: الداودى	(كان حياً سنة ٩٤١ هـ)
طبقات النحاة واللغويين (»)	: ابن شهبة	(- ٩٥١ هـ)
درة الحجال فى غرة أسماء الرجال	: ابن القاضى	(- ١٠٢٣ هـ)

الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية : المناوى الحدادى (- ١٠٣١هـ) (مخطوط)

نيل الابتهاج بتطريز الديباج : التمبكتى (- ١٠٣٢هـ)

نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب . المقرى (- ١٠٤١هـ)

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب . ابن العماد (- ١٠٨٩هـ)

تاج العروس فى شرح القاموس : المرتضى الزبيدى (- ١٢٠٥هـ)

سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر : المرادى (- ١٢٠٦هـ)

البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع : الشوكانى (- ١٢٥٠هـ)

الغرر الحسان فى تواريخ حوادث الزمان : حيدر الشهابى (بعد ١٢٥٨هـ)

اليواقيت الثمينة فى أعيان مذهب عالم المدينة : ظافر الأزهرى (بعد ١٣٢٥هـ)

هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين : إسماعيل البغدادى (- ١٣٣٩هـ)

إيضاح المكنون فى الذيل على كشف الظنون : « «

الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية : شكيب أرسلان (- ١٣٦٦هـ)

معجم المؤلفين : عمر رضا كحاله

معجم النساء : «

الأعلام : الزركلى

الإعلام والتبيين فى خروج الفرنج الملاعين على بلاد المسلمين : الحريرى

التاريخ المنصورى : أبو الفضائل الحموى

الفاطميون فى مصر : د. حسن إبراهيم حسن

فهرست الكتبخانة الخديوية

بسم الله الرحمن الرحيم

فاتحة

لن أطيل فى تقديم هذا الكتاب ، ولن أكلف القارىء الكريم إلا كلمات أعرض فيها للأهمية الكبرى التى للإمام الحافظ السلفى أشهر علماء الزمان، بالقياس إلى الثقافة الإسلامية فى القرن السادس الهجرى ، حيث بلغت أوج ازدهارها فيما بين غروب شمس الدولة الفاطمية الشيعية ، وشروق شمس الدولة الأيوبية السنية ، على يد السلطان المجاهد فى سبيل الله ، حامى ذمار الدين ، ورافع منارة العلم ، وهازم الصليبيين الأوروبيين الغزاة ، صلاح الدين ، الذى لم تمنعه إصلاحاته فى مصر والشام وتعمير حصونها وثغورهما فى سبيل الوحدة النضالية للأمة ، من حضور دروس الحديث التى كان يلقيها الإمام السلفى بالإسكندرية ، ومعه أولاده وكبار حاشيته من الوزراء والكتاب والمؤرخين .

نشأ السلفى ببلده أصبهان وأخذ عن أبيه ومعاصريه ومواطنيه ، ثم رحل شمالا وجنوبا وشرقا وغربا ، وسمع من بغداد ومكة والمدينة ودمشق وصور والإسكندرية ومصر ، وطال عمره حتى توفاه الله سنة ٥٧٦ هـ عن مائة وستة من الأعوام ، سالخاً منها نحو خمسة وستين عاما بالإسكندرية ، فاشتهر بها واشتهرت به ، وأخذ عنه المئات فى المشرق والمغرب ، بعد أن تألق نجمه فى علم الحديث ، وما يستتبعه من ثقافات إسلامية واسعة ، كاللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة وأدب وتفسير وفقه وتصوف ونقد وتاريخ وجغرافيا ، فكان المحقق المدقق فى كل مجال من مجالات ثقافته وفى كل عمل تعليمى قام به من تأليف وتدريس ، انطلاقا من « المدرسة السلفية » ذات الأضداء العريضة العميقة ، بعيدا كل البعد عن الفتن

الضارية التي حوله ، فشق طريقه خلالها ، غير طامع فى منصب ، أو راج فى جاه من ملك أو خليفة أو سلطان أو أمير أو ناظر .

وصفوه بأنه «مُسْند الدنيا» ، ولم يبلغ شأوه أحد قبله أو بعده فى علو الإسناد ، فكان فضله عظيما على علم الحديث ، دراية ورواية ، وفضله على العلماء جميعا أعظم وأتم ، سواء فى المادة العلمية أو المنهج الدراسى ، وبهذا خدم التراث الإسلامى ، وصانه من التحوير والإهمال والضياع ، بل كان المرجع الدقيق لمشاهير المؤلفين بعده ، فى مختلف العلوم ، ولاسيما علم البلدان وعلم التاريخ ، وعلم الرجال ، وعلم النقد النزيه .

لقد جمع السلفى بين أهل المشرق والمغرب بما أخذوه عنه ونشروه وأذاعوه ، فكان الواحد منهم يفخر بأنه سمع من السلفى أو كتب له بالإجازة ، وما أكثرهم ، حتى لقد أمكننا بعد الجهد الجهيد ، أن نعثر على مايزيد على ثلثمائة ينتمون إلى الأمصار والمدن والقرى المعروفة والمجهولة ، وما أحوجنا اليوم إلى التعرف على تحركات هؤلاء على الصعيد الإسلامى ، فى هذه الحقبة الغنية بالثقافة من تاريخنا الذى وحد بيننا ، ووطد روابطنا ، فى ظل العروة الوثقى التى لا انفصام لها .

ويجدر بنا هنا أن نذكر للقارىء مدى الجهد المبذول فى جمع المعلومات الدقيقة عن الحافظ السلفى من بين المخطوطات والمطبوعات ، وما أصعب البحث عن صورة متكاملة لمثل هذه الشخصية المظلومة ، وأشلاؤها متناثرة مبعثرة ، لم تنل كل الاهتمام حتى الآن من الكاتبين عن أعلام الفكر الإسلامى ، وبعد دراسة شاقة ومتواصلة ، استغرقت منا أكثر من عشر سنوات ، وعلى الرغم من مشاغل الحياة ، وأعباء العمل الوظيفى ، أمكن بتوفيق من الله وحده ، تحقيق أمل بعيد المنال ، طالما داعب الخيال ، ولولا الإيمان بالقدرة على امتلاك زمام البحث ،

لانصرفت الهمة عن الكتابة فى هذا المجال، وانقضى العمر ، والحسرة تنهش الضمير، للتقصير عن أداء الواجب المحتوم على أهل الوفاء ، نحو عظمائنا الخالدين .

والكتاب ـ بعد هذا كله ـ صورة (تحليلية) حية ، لا (تقريرية) جامدة ، وآثرنا هذا المنهج إيثارا ، لكى تبرز معالم السلفى من ثنايا القواعد السياسية والتاريخية والفكرية ، على امتداد رقعة العالم الإسلامى ، فيما بين الصين شرقا ، والأندلس غربا ، ومامن خطوة من خطوات الرجل إلا تتبعناه فيها ، واضعين بين يدى القارىء قاعدة عريضة للأحداث الجارية فى كل مكان حل به أو رحل عنه ، وفى ضوئها اتضحت الصورة أكثر فأكثر .

أما مصادر البحث التى اتخذناها مراجع لنا فى هذه الدراسة فهى كثيرة متعددة كما يبدو للقارىء ، منها المطبوع بمصر أو بمراكش أو بيروت أودمشق أو بغداد ، وكل هذا يهون ، وعلى الرغم من أن بعض هذه المراجع يشتمل على عشرات الأجزاء، وخطوطها من العسير قراءتها ، فإننا استطعنا أن نستفيد منها ، وكان من فضل الله علينا العثور على بعض المخطوطات النادرة التى لم يشر إليها أحد حتى اليوم مثل « المفاخر السنية والمآثر المرضية » وهى مخطوطة سكندرية لحما ودما ، وقد ألقت بعض الأضواء على جوانب هامة من الحياة الحضارية والثقافية للإسكندرية فى العصر الذى عاش فيه السلفى ، ولم يسبقنا إليها أحد حتى اليوم .

ونرجو من الله عز وجل أن نكون قد أسهمنا بهذا العمل فى ميدان البحث العلمى المنهجى لتراثنا الضخم ، وإنصاف الأعلام الذين آن الأوان لأن نكشف الضباب عن أعمالهم الرائعة التى لم تنل حقها كاملا.

والله الموفق إلى المزيد من العمر ، لمضاعفة الجهد للمزيد من العمل ؟

الإسكندرية فى : { ٢٤ ذى الحجة ١٣٩١ هـ
٩ فبراير سنة ١٩٧٢ م }

المؤلف
محمد محمود زيتون

محتويات الكتاب

(١)

تعريف بالسِّلَفي

« حافظ الإسلام ، وأعلى أهل الأرض إسناداً فى الحديث والقراءات ، مع الدين والثقة والعلم »

— ابن الجزرى —

مصادر البحث عن السلفى

جرت عادة الباحثين عن أحد مشاهير الثقافة الإسلامية ، على الاتجاه إلى طبقة العلماء التى ينتسب إليها كمفسر أو محدث أو مؤرخ أو لغوى أو غير ذلك ، وإلى المذهب الذى يعتنقه سواء كان شافعيا أو حنفيا أو مالكيا أو حنبليا ، وإلى سنة وفاته فى نهاية كل سنة هجرية بعد ذكر أحداثها ، وإلى البلد الذى نشأ به أو رحل إليه فتوفى فيه ، وهذه هى أهم مصادر علم الرجال ، التى يمكن الرجوع إليها فى البحث عن الأعلام ، وغالبا ما يجد فيها الباحث ما يشبع رغبته .

غير أن (السلفى) الذى هو موضوع هذا الكتاب ، قد حظى من عناية المصادر بما لم يحظ به غيره ، على امتداد العصور منذ نشأته الأولى ، فقد ذكروه بالإسهاب أحيانا وبالإيجاز أحيانا أخرى ، فى طبقات الحفاظ والمحدثين والقراء والفقهاء الشافعية لأنه كان شافعيا ، وذكروه فى الأدباء واللغويين والشعراء والرحالة وأصحاب الإجازات من المرحول إليهم من أهل زمانه ، وذكروه أيضا فى الأصفهانيين والبغاددة والدماشقة والإسكندرانيين والأندلسيين ، وعلى الجملة فإن السلفى قد شغل حيزا من الزمان والمكان لم يشغله أحد قبله ولا بعده ، ونال من الذكر والتقدير وبعد الصيت خير منال ، وكانت المدرسة السلفية ذات أصداء بعيدة وعميقة ، أقصى ما يكون البعد والعمق .

وقد يبدو للقارىء أن التاريخ بهذا قد أتاح للباحثين ماوفر عليهم الجهد فى الإحاطة بشخصيته دون مشقة أو عناء ، ولكن العكس هو الصحيح ، ذلك أن المادة الموفورة كثيرا ما تنحدر إلينا بالتواتر ، وقد يضيع بعضها فى الطريق مع طول الزمن ، فلا تبرز معالم الشخصية أمامنا كما ينبغى ، بفضل عوامل التعرية التاريخية

من جهة ، وإهمال أصحاب التراجم والمعاجم أحيانا من جهة أخرى لبعض الجوانب عن عمد ، وتركيزهم على جوانب أخرى ، هى فى أنظارهم أهم وأولى .

أما نحن فكان علينا ألا نركن إلى ما تركه لنا المترجمون عن السلفى ، دون الرجوع إلى ما كتبه السلفى نفسه عن نفسه وعن غيره ، وبهذا صرنا نطمئن إلى تكامل المصادر ، وبالتالى إلى تكامل الشخصية المطلوب منا عرضها للناس ، بعد أن تكون قد دبت فيها الحياة ، من بعد الهمود الذى طال مداه .

وفى ضوء هذه المحاولة ، ومن هذا المنطلق ، قطعنا فى البحث عنه شوطا بعيدا ، للوفاء بما ألزمنا به أنفسنا ، كما فعلنا فى كتابينا السابقين « الإمام أبو العباس المرسى » و « القبارى زاهد الإسكندرية » ، وإن كان حق « الحافظ السلفى » علينا أن نبذل من أجله ما يتناسب مع مكانته العملاقة فى تاريخ الإسلام ، بعد أن لقى كل الإهمال والنسيان ، وأملنا كبير فى الله عز وجل أن نكون قد استطعنا القيام نحوه ببعض مستحقاته من كل من يعرف الفضل لذويه .

كيف لا ، والرجل قد احتل من الزمان أكثر من مائة عام ، عاشها فى عصر حافل بالأحداث الجسام الضخام التى كان مسرحها يمتد من أصفهان إلى الإسكندرية ، عبر بلدان الشرق كله ، بل وتتماوج أفواج طلاب العلم قادمة إليه من أقاصى الأندلس والمغرب سعيا إليه ـ وهو فى الإسكندرية ـ للاغتراف من مناهل ثقافته بالحضور أو بالإجازة المباشرة وغير المباشرة ، فكان بحق نادرة الزمان والمكان معا ، وقد أثراهما أيما إثراء ، بما خلده له التاريخ من العطاء الخصب فى مختلف الميادين ، ولهذا لم يكن السلفى عالم عصره أو إمام بلده ، وإنما تخطى الحواجز فقالوا إنه كان « مسند الدنيا » و « حافظ الإسلام » و « و أعلى أهل الأرض إسناداً فى الحديث والقراءات... » . فمن هو السلفى صاحب هذه الأوصاف ؟

السِّلْفة . . واشتقاقها

كان السِّلَفِي ببغداد وغيرها يكتب عن نفسه : أحمد بن محمد يعرف بـ (سِلْفَة) ، فلما سكن الإسكندرية صار يكتب : السلفي[1] ولما كان السلفي شافعيا ، فإن اهتمام تقي الدين السبكي صاحب «طبقات الشافعية الكبرى» كان أكثر من غيره في الترجمة له ، فهو : أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن سِلْفة : الحافظ الكبير أبو طاهر ابن أبي أحمد السلفي الأصبهاني الجرواني ، وكان اعتماد السبكي في هذه الترجمة على شيخه الذهبي ، ولم يشذ عنهما أحد بعدهما في ذكر نسبة السلفي ، في قليل ولا كثير .

وسلفة (بكسر السين وسكون اللام وفتح الفاء ثم التاء المربوطة) لقب لأحمد ـ كما يقول الذهبي ـ أما السبكي فكان يحفظ أنه اسم لوالد إبراهيم ، ولكنه يرجح رأي شيخه ويستصوبه ، ولما نسب إليه قيل : السلفي (بكسر السين وفتح اللام وكسر الفاء وياء النسبة) ، وانفرد صاحبنا بهذا الاسم النادر عبر القرون ، واشتهر على كل لسان وقلم بالحافظ أبي الطاهر السلفي .

وسلفة ـ اسم جده كما حكى ابن دحية ـ لفظ عجمي فسره ابن خلكان بقوله : معناه بالعربية (ثلاث شفاه) لأنه كان أعلم الشفة أي أن شفته الواحدة كانت مشقوقة ، فصارت مثل شفتين غير الأخرى الأصلية ، والأصل أنها (سلبة) بالباء المشددة فيما يوازي حرف p وأبدلت فاء f مثل أصفهان أصلها أصبهان ، والفساسيري أصلها البساسيري ، وكما نقول نحن : أفلاطون بدلاً من : بلاتون Platon .

وينبغي أن ننبه إلى ضرورة الدقة في نطق كلمة السلفي (بكسر السين وفتح اللام)

---

(١) القول عن ابن نقطة كما جاء في معجم ابن الأبار .

نسبة إلى (سلفة) كما رأينا - وحتى لا يختلط الأمر بلفظة أخرى تتفق معها حروفا وتختلف عنها تشكيلا ، ومنها :

السلف : (بفتح السين وفتح اللام) : معروفة ومعناها القوم السابقون ، فنقول السلف الصالح ، ونقول : أهل السلف أو السلفيون وهم جماعة من أهل الكلام ، لهم وجهة نظر يختلفون بها عن المعتزلة ، أحدهم : سلفى (بفتح السين واللام).

والسلف أصلا بهذا (الشكل أى فتح السين وتشديدها وفتح اللام) واحد أولاد الجمل ، وجمعه سلفان ، وبه سميت القبيلة ، على سبيل النقل .

والسلف : (بضم السين وفتح اللام) كما يقول القلقشندى فى « نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب » أو السلفان (بكسر السين وسكون اللام) حى من بنى قحطان بن عامر ، غلب عليهم اسم أبيهم فقيل لهم السلف لأنهم بنو السلف بن قحطان ، والنسبة إليهم السلفى (بضم السين وفتح اللام) ، ويؤكد ذلك ابن الأبار فى « المعجم » فيقول : والسلفى : بطن من حمير .

وممن دخل مصر من الصحابة - كما ذكر ذلك السيوطى فى « در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة » - الحجاج بن مُخلى السلفى ، وهو غير إبراهيم ابن عمر الربعى المنعوت بالبرهان السلفى المعروف بالجعبرى المتوفى سنة ٧٣٢ ودفين الخليل .

ومن الطبيعى أن يتتبع الذهبى بعض الأسماء التى بها مادة (س ل ف) فى كتابه « المشتبه فى الرجال أسمائهم وأنسابهم » ، فذكر منهم :

١ - أبو بكر عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السرخسى السلفى (بفتح السين وفتح اللام نسبة إلى السلف)

٢ ـ رافع بن عقيب السِّلَفى ، وقيس بن الحجاج السلفى (بضم السين وفتح اللام) .

٣ ـ إسماعيل بن عباد السلفى القطان المتوفى سنة ٣٢٠ هـ (بكسر السين وسكون اللام) وقد سكن «درب السلفى» بكسر السين وفتح اللام من قطيعة الربيع ببغداد .

وعلى هذا يكون صاحبنا هو السلفى (بكسر السين وفتح اللام) ، وليس (بضم السين ولا فتحها) ، حتى لا تختلط على القارىء ، وهو يتابع معنا سيرة هذا الإمام العالم الذى طبقت شهرته الآفاق فحجبت كل من عداه ، حتى من شاركه فى النسبة وهم قلة نادرة لا يعتد بها فى المعاجم والتراجم ، حتى ليذكره الذهبى على أنه (فرد) أى ليس فى الدنيا من تسمى بالسلفى أحد سواه .

من المهد إلى اللحد

السلفى أصله فارسى من (جروآن) محلة بأصبهان فنسب إليها ، فقالوا : الأصبهانى الجروآنى ، وإن كانت نسبته إلى أصبهان قد غلبت عليه ، وهى التى كانت يوما ما عاصمة إسلامية كبرى لبلاد فارس : بها ولد وفيها نشأ وترعرع ، ومنها رحل ، وأخيراً كانت الإسكندرية العاصمة الثانية للديار المصرية مثواه الأخير ، حيث استقر بها أربعة وستين عاما لم يغادرها فى حياته إلا مرة واحدة إلى القاهرة ، واعتبره المؤرخون من « الإسكندرانيين » ، فقد توفى بالإسكندرية فى الخامس من ربيع الآخر سنة ٥٧٦ هـ وقيل فى يوم الجمعة الخامس عشر من هذا الشهر من تلك السنة ، وهو الأرجح لتحديد اليوم بالجمعة وذلك بإجماع الثقات . وفيها دفن ، وما يزال قبره قائما بمقبرة وعلة من الباب الأخضر داخل سور الإسكندرية لا يزوره إلا القلة النادرة من العارفين له قدره ووزنه ، وهذه المقبرة تضم رفات كثير من صلحاء الإسكندرية

ومنهم الإمام أبو بكر الطرطوشى وشيخ النحاة ابن الحاجب والقاضى سند بن عنان وغيرهم .

لم يكن الخلاف على سنة وفاة السلفى وهى ٥٧٦ هجرية ، ولا على سنى عمره ، وهى مائة وست سنوات ، ولكن الخلاف كان على تحديد السنة التى ولد بها ، وأغلب الظن أن ذلك راجع إلى تحريف كلام المؤرخين حتى كلام السلفى نفسه على أيدى النساخ ، وليس أدل على ذلك من رواية السبكى لقول السلفى « وكان عمرى نحو عشرين سنة » بينما ترد هذه العبارة عند ابن كثير كالآتى : « وأنا ابن عشر تقريبا » والفارق كبير كما نرى .

أما القول بأنه ولد سنة ٤٧٠ فقول ساقط عند السبكى ، وعنده أن مولده سنة ٤٧٢ « تخمينا لا يقينا » ثم يقول « وقيل سنة ٤٧٥ » .

وروى الحافظ عبد الغنى عن السلفى - وهو من معاصريه - أنه قال :

« أنا أذكر قتل نظام الملك فى سنة ٤٨٥ وكان عمرى نحو عشرين (١) سنة ، وقد كتبوا عنى فى أول سنة ٤٩٢ وأنا ابن سبعة عشر عاما أو أكثر أو أقل ، وليس فى وجهى شعرة كالبخارى - يعنى كما كتبوا عنه »(٢) .

أما الصفراوى السكندرى تلميذ السلفى فينقل عنه أن مولده كان سنة ٤٧٨ تخمينا لا يقينا ، ويؤيده فى ذلك ابن النجار البغدادى وابن خلكان ، لأن أحدا لم يبلغ المائة سنة منذ ٣٠٠ سنة - كما يقول ابن خلكان - أو زاد عليها ، سوى القاضى الطبرى الذى عاش ١٠٢ سنة ، وعلى ذلك يكون السلفى المتوفى سنة ٥٧٦ وزاد

(١) وقال ابن كثير « وأنا ابن عشر تقريبا » وقال ابن خلكان « وكان لى من العمر حدود عشر سنين » .

(٢) السبكى : طبقات الشافعية ج ٤ .

على المائة سنة قد ولد سنة ٤٧٤ أو سنة ٤٧٥ هـ ، وقد مات وهو سليم الجوارح ، لم يمرض بل ظل طوال اليوم السابق على وفاته ، يتلون عليه الحديث وهو يصحح لهم عن وعى وإدراك ويقظة ، بينما يقول السبكى متشككا : « توفى صباح الجمعة ٤ ربيع الآخر سنة ٥٧٦ هـ ، فجأة وله مائة سنة وست على ما يظهر » أى أنه من مواليد سنة ٤٧٠ هـ .

على كل حال ، لم يختلف الثقات على سنة وفاته والشهر الذى توفى فيه ، وإن اختلفوا فى رقم اليوم ٥ أو ١٥ ، مع الإجماع على أنه يوم الجمعة ، والغالبية على أنه توفى ليلة الجمعة أو صبيحتها من تلك السنة ، وصلى عليه الظهر بجامع عبد الله بن عمرو بالإسكندرية أبو الطاهر بن عوف .

ومما يدل على خسارة العالم الإسلامى بموت السلفى أن السيوطى عندما تحدث عن وفيات الأعلام فى أيام صلاح الدين الأيوبى وضع السلفى فى المقدمة ، ومن بعده ابن بشكوال والسهيلى والشاطبى (ابن فيرة) والقاضى الفاضل وابن الجوزى والعماد الكاتب وفخر الدين الرازى والعكبرى وابن أبى أصيبعة الطبيب ، أما فى السنة التى توفى فيها بالذات فقد اشترك معه فيها الملك توران شاه الأيوبى أخو صلاح الدين ، بالإسكندرية أيضا ، ولكن فقد السلفى كان أبعد أصداء من فقد توران شاه .

بيت السلفى

لم يكن اهتمام المؤرخين بأسرة السلفى على النحو الذى كنا نوده ، للتعرف على البيئة الأولى التى نشأ فيها هذا العالم الجليل ، فهذا ابن كثير فى « البداية والنهاية » يقول « محمد بن أحمد بن إبراهيم بن سلفة الأصبهانى أبو أحمد » وفى مكان آخر قال عن السلفى « إن أباه محمدا قد توفى سنة ٤٩٨ هـ وكان شيخا عفيفا ثقة سمع الكثير »

ومن العجيب أن ابن عساكر وابن خلكان اللذين اعتمد عليهما ابن كثير فى ترجمة السلفى ، لم يذكرا شيئاً عن أبيه ، كما أن ابن كثير لم يذكر لنا أين توفى هذا الأب ، وإن كان المرجح أنه توفى ببلده (جروآن) سنة ٤٩٩ بعد أداء فريضة الحج ، وكان ابنه معه فى هذه الحجة ، وقد روى لنا بعض ما سمعه من أبيه فى سفره ، حيث لم يتجاوز الابن ثلاثين سنة من عمره ، وقبل أن يغادر بلده فى رحلته التاريخية عبر الأمصار ، حتى استقر به المقام فى الإسكندرية سنة ٥١١ هـ ، أى وهو فى سن الأربعين تقريباً ، وبها تزوج امرأة ذات يسار ؛ على ما ذكره جمهور المترجمين له ، وإن كانوا لم يذكروا عنها شيئاً وفى أى سنة كان زواجه منها ، أو عما إذا كانت قد أنجبت منه ذرية صالحة ، والراجح عندى — والله أعلم — أنه تزوجها بعد عودته من القاهرة سنة ٥١٧ حيث قضى بها ثلاث سنوات نزل خلالها ضيفاً على كثيرين من علماء القاهرة ، ولا يعقل أنه ترك زوجته هذه المدة وحدها بالإسكندرية أو أنه كان قد تزوج .

أما السلفى نفسه فهو الذى حدثنا عن زوجته وأمها وأبيها وبيتها ، وذلك فى « معجم السفر » ، ولولا ذلك لفاتنا حظ كبير فى الإحاطة بأخصب فترة من حياته العائلية والعلمية ، ذلك أن السلفى فى مقامه بالإسكندرية كان يسمع من الناس ويسمع منه الناس رجالا ونساء ، مادام طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، أخذاً وعطاء .

وزوجة السلفى « ست الأهل » كانت امرأة صالحة و « ذات يسار » كما يقولون ، وأبوها — الذى توفى دون أن يراه السلفى — هو الفقيه المحدث أبو عبد الله بن محمد بن عيسى أبى موسى الخولانى ، وقد وصفه السلفى أبو الميمون همام بن أحمد بن بربرى الأزدى ، فقال إنه كان من الصالحين وله بيت معروف ، مستدلا على ذلك بقصة عمل ابنه عيسى كشاهد عند الحاكم ، فاغتم الأب وأنكر على ابنه

ذلك لأن « الشاهد لايتخلص من التبعات ديناً ودنيا ، إلا من عصمه الله » ، ومن هنا قال السلفي عن زوجته وأهلها « كانت كأبيها من الصالحات ، وبيتهم بيت جليل ، ومنهم أبو إسحق بن الصباغ . » .

ومنهم أيضاً أخوها أبو البركات عيسى الذى أنكر عليه أبوه واغتم إذ علم أنه عمل مع « الشهود » عند حاكم الإسكندرية — طبعاً — حرصاً منه على أن يكون الابن كالأب ، وأهل البيت أصحاب ورع وتقوى وتحرز فى الدنيا ، وتشاء الأقدار أن يتولى عيسى هذا تزويج أخته « ست الأهل » للأستاذ السلفى ، وقد عاشرها فأحسن المعاشرة ، إلى أن توفيت وهى فى عصمته ، مثلا أعلى للمرأة الصالحة المتدينة .

أما أمها وتسمى « عائشة أو ترفة » فهى إحدى راويات الحديث الشريف بالإسكندرية ، ومن بيت علم ودين ، والأرجح — من اسم أبيها أحمد بن إبراهيم الرازى — أنه من أصل فارسى ، وقد قرأ عليها السلفى علوم الحديث سنة ٥٣٤ أى بعد أن جاوز الستين من عمره بسنوات .

وكان لها أخت محدثة أيضاً هى خديجة — أو مليحة — كأبيها وأختها وأخيها توفيت سنة ٥٢٦ هـ وهى بكر لم تتزوج ، وصلى عليها السلفى بوصايتها له ، وعليها قرأ السلفى ، حرصاً منه على ما روته عن أبيها وشيوخها ، الذين منهم ابن عبد المولى وابن الدليل ، لأن أختها عائشة لم تسمع إلا من أبيها فقط ، وهو العالم بالفقه والحديث ، المعروف بالورع والتقوى .

إذن فقد اختار السلفى شريكة حياته من الوسط الذى يلائم ميوله الدينية وطباعه ، وكانت — على ما علمنا — من أهل اليسار ، فكان ذلك أدعى إلى هدوء باله ، واستقراره وطول عمره ، وكثرة الأجيال العلمية والأدبية التى تلقت ونقلت عنه

إلى العالم الإسلامى شرقا وغرباً .

ويبدو أن الله تعالى لم ينعم على السلفى بالذرية ، اللهم إلا ابنته الوحيدة الشيخة «خديجة» التى تربت فى حجر أمها الصالحة وأبيها العالم ، ورضعت منهما حب العلم ، فنشأت فى كنف الوالد بعد وفاة الوالدة، إلى أن توفيت -بعد وفاة أبيها- فى أواخر رمضان سنة ٦٢٣ ، فقدمت مصر ، وقد بالغ أهل مصر فى احترامها وإكرامها ، وقد كانوا يأملون أن تشنف أسماعهم بدرر الحديث التى ورثتها عن أبيها ، ولكنها خيبت آمالهم ، فلم تجلس فى حلقة الحديث، وعادت إلى الإسكندرية، ولم تحدث بالقاهرة ، كما كانوا يأملون .

ولقد ذكرها عبد العظيم المنذرى فى «التكملة لوفيات النقلة» وأجازت له ، وقد أبى عليه الوفاء لها إلا أن ينفرد بالإشارة إليها دون غيره ، ومنها - كما يبدو - كان سبط السلفى، وهو مسند الديار المصرية: جمال الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن مكى بن عبد الرحمن الطرابلسى الإسكندرانى ، وقد سمع من جده وورث عنه علم إسناد الحديث ، وانتهى إليه علو الإسناد بالديار المصرية - كما يقول السيوطى فى «حسن المحاضرة» - وكانت وفاته بمصر سنة ٦٥١ عن ٨١ سنة وكان بينهما ١٤٤ سنة فى الوفاة ، وعلى ذلك فإن السلفى لم ينجب ولداً ، وإلا كان أولى بالذكر من السبط الحفيد .

هذا وقد انقطعت عنا سلسلة بيت السلفى عند سبطه هذا ، ولم نعد نظفر من المؤرخين بإضافة ذرية جديدة إلى هذا الحفيد ، لولا أن ابن القاضى فى «درة الحجال فى غرة أسماء الرجال» المطبوع بالرباط سنة ١٩٣٦ قد ذكر لنا أن هذا السبط أخو شخصية سكندرية عظيمة هو المحدث محتسب الإسكندرية ومؤرخها وحاكمها أبو المظفر وجيه الدين منصور بن سُلَيْم بن فتوح الهمدانى الشافعى

القاضي المسند الرحال المصنف المتوفى بالإسكندرية سنة ٦٧٣ عن ٦٦ سنة ، وأخوهما أيضاً علم الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن سليم بن منصور الهمداني ابن العمادية الشافعي أحد وجوه الإسكندرية والمتوفى سنة ٦٩١ وقد أخذ عنه ابن رشيد وأجاز له سنة ٦٨٤ وعلى ذلك يكون هؤلاء الإخوة الثلاثة العظماء هم آخر من نعرف من ذرية السلفي من ابنته المحدثة خديجة لاسواها والمتوفاة سنة ٦٢٣ ، كما ذكر ابن القاضي في موضع آخر أن أبا القاسم بن عمر بن أبي القاسم الهواري السكندري هو أخو وجيه الدين منصور بن سليم لأمه .

ذلك هو البيت الذي كان السلفي عمدته ، وقد استطعنا أن نعثر على أفراده بكل مشقة من هنا ومن هناك ، وهو بيت كرم وإباء وخشية لله ، وميل إلى العلم ، سواء في ذلك الرجل والمرأة ، وقد ضن علينا التاريخ بذكر أعقاب السلفي فيما بعد النصف الثاني من القرن السابع الهجري ، وإن كان خير العوض منهم ، هذه الأفواج الضخمة من الطلاب والعلماء الذين رأوه وسمعوه حاضرين وغائبين .

الرحلة السلفية

نشأ الفتى اليافع أحمد السلفي في بلده (جرواآن)، وسرعان مااستهوته أضواء المدينة (أصبهان) ، ولم يكد يبلغ الثامنة عشرة من عمره أي في سنة ٤٨٨ حتى كان أول سماعه بها على أيدي نخبة من علمائها ، وبدت عليه ملامح النبوغ وهو صغير، حتى «كتبوا عني في أول سنة ٤٩٢ وأنا ابن سبعة عشر عاما أو أكثر أو أقل» على حد قوله عن نفسه ، وفي هذه السن ، كانت باكورة إنتاجه ذلك « المعجم » الحافل لشيوخ أصبهان ، الذين تلقى عليهم ، في هذه السنوات القلائل من شبابه الباكر ، أو على الأقل حفظ مادتها ـ وهو (الحافظ) ـ ثم كتبها فيما بعد .

وعلى الرغم مما كانت عليه أصبهان فى أواخر القرن الخامس الهجرى ، من ازدهار الحركة العلمية - كما سنرى - ، فإن بغداد التى كانت لها جاذبية أقوى ، جديرة بأن يقصدها شاب موهوب مثل السلفى ، ولا سيما أن الأعباء العائلية لم تكن مما يثقل كاهله ، فلا زوج ولا ولد ، ولا تجارة ولا زراعة ، مما جعل أباه لا عائق فيما يعتزمه من رحلة فى سبيل المعرفة ، بين طوفان الأصبهانيين المغتربين عن بلدهم ، فراراً من الفتن ، أو حبا فى طلب العلم .

وفى أحد أيام رمضان من سنة ٤٩٣ غادر الشاب السلفى أصبهان إلى (بغداد) فأدركها فى اليوم الرابع من شوال ، وكان قد بيّت العزم على لقاء عالمها نصر بن البطر ساعة دخولها ، وقد كان له ما أراد ، على ما كان يعانيه من دمامل أصابته فى الطريق الشاق ، والسفر الطويل ، ولما اختبره الشيخ واجتاز التلميذ الاختبار ، فى وثوق من نفسه ، لم تحجبه قسوة الشيخ ، فانفجر باكياً من كلامه ، بعد أن قرأ عليه نحو خمسة وعشرين جزءاً من الحديث الشريف ، ثم تنقل بين حلقات علماء بغداد ، وعكف على كتابة (معجم) آخر عن شيوخه الذين تلقى منهم فى بغداد على نمط ما فعله بشيوخه الأصبهانيين ، ولما آن أوان الحج ، قصد (مكة) فسمع بها و (بالمدينة) ، بعد أن سمع من علماء (الكوفة) فى الطريق إلى الحج ، ثم عاد إلى بغـــداد .

وهناك واصل الأخذ فى الفقه واللغة ، ورحل إلى (البصرة) ، وكان ذلك عام ٥٠٠ ، وأغراه السفر بالسفر ، ليتزود من علم الجلة الأعلام فى كل مكان ، فنزح إلى (زنجان) و (همدان) و (الرى) و (دينور) و (قزويـن) و (ساوة) و (نهاوند) ، وطاف ببلاد (أذربيجان) ، فزار (دربند) ، وسمع من علماء (آمد) و (خلاط) و (نصيبين) و (الرحبة) وغيرها وغيرها كما سنرى ذلك مفصلا فى حينه .

وفى سنة ٥٠٩ هـ قدم (دمشق) ، فأقام بها عامين ، وسمع بها ، مستزيدا من العلم الغزير الذى حصله فى هذه السنوات القلائل ، ثم شد رحاله إلى (صور) ، ومنها ركب البحر إلى ثغر (الإسكندرية) سنة ٥١١ هـ ، فاستوطنها من هذا التاريخ ، لم يخرج منها إلا سنة ٥١٥ إلى القاهرة ، ولم يلبث أن عاد منها إلى الإسكندرية سنة ٥١٧ وتزوج منها كما رأينا ، وعاش بها ٦٤ سنة ، إلى أن كانت وفاته بها سنة ٥٧٦ هـ ، بعد ان اقترنت شهرته الواسعة بمدرسته ، التى تخرج فيها قصاد علمه ، ومنها انبثق «المعجم» الثالث الذى أنشأه عن مشايخه وتلاميذه وأصدقائه وجيرانه وسماه «معجم السفر» .

وقد نقل السبكى عن عبد القادر الرهاوى أن السلفى فى مدة إقامته بالإسكندرية وهى ٦٤ سنة لم يخرج خلالها إلى بستان ولا فرجة إلا مرة واحدة ، وظل طول حياته ملازما مدرسته ، وما كان يدخل عليه أحد إلا ويراه يطالع فى كتاب . .

هذه الرحلة الزمنية كانت حافلة بمواقف مشهودة للإمام السلفى ، هى خلاصة تجاربه وحصيلة معارفه ، التى انتفع بها ونفع غيره ، فى مختلف ألوان الثقافة الإسلامية التى انفرد بها عمن سواه فى كل العصور , وسنرى فى حينه ، ثمار هذه الرحلة ، وكيف راح السلفى يجنيها واحدة بعد أخرى ، من تلك البلدان واحدة بعد أخرى ، بعد أن نقرن الزمان والمكان بأحداث التاريخ ، لنيسر على القارىء معايشة العصر الذى أثراه السلفى بمخلفاته الضخمة شفويا وتحريريا .

علمه وخلقه

كان (الحافظ) السلفى عالما فاضلا : علمه غزير ، وخلقه كريم ، أوتى من المواهب اللدنية ماجعله يحفظ كل مايسمع ويقرأ حفظا واعيا ، ولايضن به على قصاده، فكان من الحفاظ، وهم قلة نادرة وأماسماحة نفسه ، وسعة صدره ، والتزامه بأصول الدين فى عباداته ومعاملاته فقدكانت الشغل الشاغل للكاتبين عنه نثرا وشعرا، والعلم والخلق هما الجناحان اللذان طار بهما صيت السلفى فى الآفاق .

نشأ أصلا فى (جرواآن) من أعمال أصبهان ، وحرص أبوه (العفيف الثقة) - كما يقول ابن كثير - على تربية ابنه ، وتقويم خلقه ، على مبادىء الإسلام وتعاليمه ، وورث أباه فى كثرة السماع ، والقدرة على الحفظ والاستيعاب ، إلى جانب العفة والأمانة العلمية ، والدقة الدقيقة ، والتواضع الجم ، والبعد عن المهاترات والخلافات المذهبية .

وينبغى ألا نغفل أثر الرحلات التى قام بهما السلفى فى حياته ، فهى من غير شك عامل هام فى صقل شخصيته ، وغزارة ثقافته ، وإلمامه الشامل بأحوال البلاد وشئون العباد ، فضلا عن أثرها الرياضى فى البدن والنفس ، واحتمال تقلبات الأنواء والأجواء ، وبالتالى احتمال النفس كل ما يعتريها من نكبات وصدمات ، والسفر على وجه العموم هو «الكتاب المفتوح» كما يقول الفيلسوف الفرنسى (ديكارت) .

ومع هذه العوامل الكبرى ، نذكر حصيلة اتصالات السلفى الواسعة فى مختلف البلدان التى حل بها ، ولقاءاته الفكرية بأهلها رجالا ونساء ، علماء ومتعلمين ، وإذ طال عمره ، استطاع أن يتعرف على دخائل الناس وطباعهم ، ويميز الأخيار من الأشرار ، فلا عجب إذا تمكنت ملكة نقد الرجال من السلفى ، فكان كالجوهرى الذى لايخفى على فطنته التمييز بين المعدن الأصيل والمعدن الزائف .

لم يكن من أسرة عرفت بالثراء ، ولكن العصامية كانت ولا تزال دائما جامعة الفضلاء والحكماء . مكاسبهم منها الزهد والعفة وعزة النفس والصبر والرضى ، ولما استقر بالإسكندرية ، تزوج امرأة منها ذات (يسار) من مال وفضل وعلم ودين ، ولم تبطره النعمة ، بل جمع الله له الحسنيين معا فى دنياه ، وأصلح له باله ، وأسعده بالعلم والمال ؛ حتى لقى ربه وهو عنه راض .

أقوالهم عن السلفى

حظى السلفى من أقلام المؤرخين بأوصاف عملاقة لم يخلعوها على غيره من قبل أو من بعد ، وأجمعوا عليها ، تكريما له وتبجيلا ، وعرفانا بأفضاله على التراث الإسلامى . الذى أسهم فى تنميته بالجهد المشكور ، وقرنوا - فيما قالوه عنه - العلم بالخلق ، وسنحاول بهذا الكتاب إعطاء القارىء المعاصر أوضح صورة وبأدق التفاصيل عن شخصية السلفى الذى لم يجد حتى الآن من العناية مايستحقه هذا البطل الكبير من أبطال الفكر الإسلامى ، فقد ظل حتى اليوم كنزا مخفيا ، معالم شخصيته كالأشلاء المبعثرة ، وفقنا الله بمنه وفضله إلى جمع شتاتها ، وتحليل عناصرها ، وكشف الغبار الكثيف عنها ، بعد إهمال طال أكثر من ثمانمائة سنة ، مع ما كان يوصف به من أنه (صدر الدين) .

واشتهر أبو طاهر السلفى الأصبهانى الشافعى نزيل الإسكندرية ودفينها بأنه (الحافظ) ، بل هو « حافظ الإسلام . وأعلى أهل الأرض إسناداً فى الحديث والقراءات مع الدين والثقة والعلم . . . » (١)

وقال ابن الأثير(٢) : « وكان حافظ الحديث ، وعالماً به ، سافر فى طلب

---

(١) غاية النهاية فى طبقات القراء : ابن الجزرى ١ : ١٠٢ رقم ٤٧٢

(٢) الكامل فى التاريخ : ابن الأثير : أحداث سنة ٥٧٦

الكثير » .

وقال شيخ الحرم المكي المحدث الكبير الميانشي : « حافظ متقن مشهور رحال ، سمع ببغداد الكثير وخرج منها سنة ٥٠٠ هـ وطاف الأقاليم ثم سكن الإسكندرية وعُمّر وحدّث بالكثير ، ورُحل إليه من الآفاق ، وكان ثقة ورعا . . » (١)

وقال تقي الدين السبكي : « كان حافظاً جليلا وإماما كبيراً واسع الرحلة ، ديناً ورعا ، حجة ثبتاً فقيهاً لغوياً ، انتهى إليه علو الإسناد ، مع الحفظ والإتقان . . » (٢)

وقال الذهبي شيخ السبكي : « لا أعلم أحداً في الدنيا حدّث نيفاً وثمانين سنة ، سوى السلفي . . » (٢)

ولم يدركه ابن عساكر الدمشقي ، ومع ذلك تحدث عنه فقال : « سمع من لا يحصى وحدث بدمشق ، فسمع منه أصحابنا ، ولم أظفر بالسماع منه ، وسمع بقراءته شيوخ عدة ، ثم خرج إلى مصر واستوطن الإسكندرية ، وتزوج بها امرأة ذات يسار فسلمت إليه مالها ، وحصلت له ثروة بعد فقر ، وتصدق ، وصارت له بالإسكندرية وجاهة ، وبنى له العادل علي بن إسحق بن السلّار أمير مصر مدرسة بالإسكندرية ، حدثني عنه أخي وأجاز لي . . » (٣)

وقال ابن السمعاني : « هو ثقة ورع متقن مثبت حافظ فهم ، له حفظ من العربية ، كثير الحديث ، حسن الفهم والبصيرة فيه »

---

(١) ذيل تاريخ بغداد : الدبيثي

(٢) طبقات الشافعية الكبرى : السبكي : ٤ : ٤٣

(٣) التاريخ الكبير : ابن عساكر

وقال الحافظ عبدالقادر الرهاوى : « سمعت من يحكى عن الحافظ ابن ناصر أنه قال عن السلفى : كان ببغداد شعلة نار فى تحصيل الحديث » .

واستطرد الرهاوى قائلا : « وكان له عند ملوك مصر الجاه والكلمة النافذة ، مع مخالفته لهم فى المذهب ، وكان لاتبدو منه جفوة لأحد ، ويجلس للحديث فلا يشرب ماء ولا يبصق ولا يتورك ، ولايبدو له قدم . . » وحكى أيضاً أن سلطان مصر - ويقصد صلاح الدين الأيوبى - قد حضر عنده - بالإسكندرية - طبعاً - للسماع ، أى سماع الحديث - فجعل صلاح الدين يتحدث أثناء الدرس مع أخيه - توران شاه كما نعلم - فزجرهما وقال للسلطان وأخيه : « إيش هذا ؟ . . نحن نقرأ الحديث وأنتما تتحدثان ؟ » .

وقال أيضاً : [وبلغنى أنه فى مدة مقامه بالإسكندرية وهى ٦٤ سنة ماخرج إلى بستان ولا فرجة غير مرة واحدة (وكانت سنة ٥١٥ ، إلى القاهرة كما ذكرنا من قبل ، وعاد إلى الإسكندرية سنة ٥١٧) ، بل كان عامة دهره ملازما مدرسته ، وما كنا ندخل عليه إلا نراه مطالعاً فى شىء ، وكان حليما متجملا (أى متحلياً بالخلق الجميل السمح يرحب بضيوفه ويجاملهم) ، وقد سمعت بعض فضلاء همدان يقول : « السلفى أحفظ الحفاظ » .]

ويحرص السبكى على الاستمرار فى الرواية عن الرهاوى فى كلامه عن السلفى لأهميته ، فيقول : « وكان آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، أزال من جواره منكراً كثيراً ، وجاء جماعة من المقرئين بالألحان ، فأرادوا أن يقرأوا ، فمنعهم من ذلك ، وقال : هذه بدعة ، بل اقرأوا ترتيلا ، فقرأوا كما أمرهم » .

ويعلق السبكى على ذلك فيقول : « القراءة بالألحان جائزة ما لم يفرط ، بحيث لا يزيد حرفا أو ينقص حرفا » .

وعندى أنه قد انتشرت فى الإسكندرية منذ عهـــد طويل بدعة فى قراءة القرآن تسمى (الإدارة) وهى أن يجتمع القوم فى شكل دائرة ، يقرءون القرآن فى سورة واحدة ، وقد قرر الإمام مالك أن « هذا مكروه ولا يعجبنا » ، فلما استوطن الإمام أبوبكر الطرطوشى ـ وهو المالكى ـ ثغر الاسكندرية ، أنكر هذه البدعة ، وظـــل يحاربها حتى توفاه الله سنة ٥٢٠ هـ ، وقد واصل السلفى فى حياته ومن بعد وفاته إنكار ما أنكره الطرطوشى [١] فى الإسكندرية وهما وإن اختلفا فى المذهب ، يدعوان إلى الحق ، والحق أحق أن يتبع .

وقال ابن نقطة [٢] فى السلفى : « كان حافظاً ثقة جوّالا فى الآفاق ، سآلا عن أحوال الرجال شجاعا . . . » .

ومما قاله الحافظ عبد العظيم المنذرى ـ وهو الخليفة الثانى على المدرسة السلفية بعد أبى الحسن المقدسى ـ للاستدلال على ثقة السلفى بحفظه ودقته فى الإسناد : « لما أرادوا قراءة سنن النسائى على السلفى أتـــوه بنسخة سعد الخير ـ وهى مصححة قد سمعها من الدونى ـ فقال : اسمى فيها ؟ . فقالوا : لا . فأخذ بها من يد القارىء بغيظ ، وقال : لا أحدث إلا بأصل ـ أى من أصل فيه اسمى ، ولم يحدث بالكتاب . » [٣]

---

(١) كتاب الحوادث والبدع : الطرطوشى : طبعة تونس ص ١٥٠ سنة ١٩٥٩

(٢) هو محمد عبد الغنى بن أبى بكر بن شجاع الحنبلى البغدادى الشهير بابن نقطة توفى ببغداد سنة ٦٢٩ وله « أنساب المحدثين » وله أيضا « المستدرك » على كتاب « الإكمال » لابن ماكولا ، و« التقييد فى معرفة رواة الكتب والمسانيد » وقد سمع ببغداد وواسط وإربل وأصبهان وخراسان والقاهرة والإسكندرية وحلب والموصل ودمنهور وغيرها .

(٣) التكملة لوفيات النقلة : المنذرى .

وقال المنذرى أيضاً « إن أبا الحسن - المقدسي - وهو من تلاميذ السلفى السكندريين ومنه حمل المنذرى الراية فى رياسة السلفية - قال : حفظت أسماء وكُنى ، وجئت إلى السلفى ، وذاكرته بها ، فجعل يذكرها من حفظه ، وما قال لى أحسنت . وقال : ما هذا شيء مليح ، أنا شيخ كبير فى هذه البلدة - ويقصد الإسكندرية - هذه السنين ، لايذاكرنى أحد وحفظى هكذا »[1] .

ولم يكن السلفى عنيفا فى معاملته للناس العوام ، الذين لفرط جهلهم بالدين قد يرتكبون الحماقات ، ويتبعون الضلالات والبدع ، بل كان يرفق بهم ، إيمانا منه وعملا بسنة الرسول ﷺ ، فقد كان لأهل الإسكندرية اعتقاد فيه - لصلاحه وورعه وتقواه - فى شفاء المرضى ، وكان إذا اشتد الطلق بالمرأة عند الوضع يقصده أهلها فيكتب لهم ورقة يعلقونها عليها ، فتلد فى الحال بإذن الله ، ولا يعلمون ما هو مكتوب فيها ، فلما سئل عما هو مكتوب فيها ، قال : كتبت فيها «اللهم إنهم ظنوا بى خيراً فلا تخيبنا ولا تكذب ظنهم » .

وكان السلفى مولعاً بجمع الكتب الثمينة واقتنائها ، وكان يعكف على دراستها حين يخلو إلى نفسه وأهله ، أو حين يتدارسها مع جيرانه وتلاميذه والوافدين عليه من كل مكان ، ولا يتورع من الاستماع إلى كل شخص يأتيه بعلم أو أدب ، ويسجل ما يسمعه منه ، بكل أمانة وينسبه إليه فى (معجم السفر) الذى يعتبر تحفة نادرة من مصادر الثقافة العربية والإسلامية فى عصره .

حقاً كانت المعرفة ضالة السلفى ينشدها من أفواه الخاصة والعامة على السواء من رجال ونساء ، المعمرون منهم والشباب ، فكان مجلسه فى المدرسة للعالم والفقيه

---

(١) انظر هامش ٢ من الصفحة السابقة .

والقاضى ونائب الحكم حتى السلاطين والأمراء والتاجر والخياط والحداد والمطرز والخطاط والفلاح والشاعر والطبيب والمتكلم والفيلسوف والنحوى والمحدث والقارئ والشاهد والواعظ والوراق ومجلد الكتب والمؤذن والخطيب والفارض، لا تفرقة بين مصرى أو أندلسى أو شامى أو عراقى .

وقال عنه ابن تغرى بردى : « ولد سنة ٤٧٠ هـ وكان طاف الدنيا ولقى المشايخ وكان يمشى حافيا لطلب العلم والحديث .. » (١)

وقال ابن عزم : « مُسْنِد الدنيا ومعمّر الحفاظ » (٢) .

وقال سبط ابن الجوزى : « ألحق الكبار بالصغار ، وكان حافظا متقنا من وثائقه ، سمع خلقا كثيراً ، وحدّث عنهم » (٣) .

وقال ابن خلكان « صدر الدين وأحد الحفاظ المكثرين ، رحل فى طلب الحديث ولقى أعيان المشايخ . . ولما مات سار إلى الإسكندرية ليبيع كتبه الوجيه ابن صورة المصرى دلّال الكتب وسمسارها بمصر ... » (٤) .

وكانت أم على تقية الأرمنازية الصورية الشاعرة قد صحبت السلفى مدة فى الإسكندرية ، وكانت تحضر عنده بمنزله وكأنها من أهله ، وفى ذات يوم عثرت قدم السلفى فانفجر جرحه ، وإذا بجاريته تشق خمارها وتعصب قدم مولاها السلفى فى الحال ، فقالت الشاعرة لتوها :

---

(١) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة : ابن تغرى بردى فى أخبار سنة ٥٧٦

(٢) دستور الإعلام بمعارف الأعلام : ابن عزم (مخطوط) .

(٣) مرآة الزمان .

(٤) وفيات الأعيان .

لو وجدت السبيل جدت بخـــدّى   عوضا عن خمار تلك الوليــدة
كيف لى أن أقبّل اليوم رجــلا   سلكت دهرها الطريق الحميدة

ولقد شهد ابن خلكان للسلفى بالثقة فيما كان يكتبه من تواريخ فيقول «الحافظ السلفى أخبر بذلك لأنه كان مقيما بالبلاد أول وصولهم وهو أضبط لهذه الأمور من غيره ، لأن هذا فنه وهو من أقعد الناس به » .

ووصفه السيوطى بقوله : «كان إماما حافظا متقنا ناقداً ثبتاً ديناً خيراً ، انتهى إليه علو الإسناد ، روى عنه الحفاظ فى حياته ، وله تصانيف ، وكان أوحد زمانه فى علم الحديث وأعلمهم بقوانين الرواية .»(١).

وكان أبو الحسن المقدسى يقول عن شيخه السلفى « الحافظ مفتى المسلمين»(٢)

وقال ابن الآبار : بقية المسنين المعمرين وخاتمة المحدثين المكثرين، دخـــل العراق والشام وبلاد الجبل وخراسان والحجاز ومصر، وسمع الحديث بهذه الآفاق، وكتبه وروى العالى والنازل، ولقى الكبار والصغار ، وعُمِّر ، حتى عادله النازل عاليا ، وحدث فى الإسلام نيفا وسبعين سنة ، وفى شيوخه كثرة ، والنساء منهم عدة » (٣) .

ويستطرد ابن الآبار قائلا : « وقد تفرد فى وقتنا هــــذا - وكانت وفاة ابن الآبار سنة ٦٥٩ هـ كما نعلم - بعلو الدرجة فى الإسناد والمعرفة والإتقان والضبط وكان يحب الشعر ويجيز عليه بأسنى الجوائز » .

---

(١) حسن المحاضرة : السيوطى حـ ١

(٢) الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد : الإدفوى

(٣) المعجم فى أصحاب القاضى أبى على الصدفى .

وقال عنه ابن الأبار نقلا عن مشايخه ومشايخ مشايخه : « وتفرد فى الدنيا بالإمامة فى علم الحديث وعلو الدرجة فى الإسناد ، وأخذ عنه أهل الأرض جيلا بعد جيل ، وسمع الناس على أصحـ ـابه وهو لم يبعد عهده بشبابه . واتفق له فى هذا المعنى مالانعلمه اتفق فى الإسلام لأحد قبله ، ولا لأبى القاسم البغوى ، مع أنه لايعلم أحد وازاه فى قدم السماع » ..

ولما كان العماد الكاتب الأصبهانى صاحب ديوان الإنشاء للسلطان صلاح الدين رجلا واسع الثقافة ، فقد حظى السلفى - وهو أصبهانى مثله - بحقه من مذكراته التى كان يكتبها ، كلما حل أو ارتحل مع السلطان ، قال العماد : « ثم وصلنا إلى ثغر الإسكندرية - وكان ذلك سنة ٥٧٢ هـ - وترددنا مع السلطان إلى الشيخ الحافظ أبى طاهر أحمد بن محمد السلفى ، وداومنا الحضور عنده ، واجتلينا من وجهه نور الإيمان وسعده ، وسمعنا عليه ثلاثة أيام الخميس والجمعة والسبت رابع شهر رمضان ، واغتنمنا فرصة الزمان : فتلك الأيام الثلاثة هى التى حسبناها من العمر ، فهى آخر ما اجتمعنا به فى ذلك الثغر . »[١] وكان مع صلاح الدين فى مجلس السلفى ابناه : الأفضل على والعزيز عثمان [٢] وقد استصحبهما معه والحاشية ، لسماع الحديث من عالم الإسكندرية ، الذى حرص أبو شامة الدمشقى المـــؤرخ على زيارة قبره ، اعترافاً بفضله على أهل دمشق ، عندما نزل بينهم دارسا ومدرسا .

أما أصحاب المعاجم الأندلسية فكان السلفى فى أنظارهم أشهر « أهل المشرق » ، حتى نرى المقرى فى « نفح الطيب » يعقد فصلا للأندلسيين الراحلين إلى المشرق ، ومعظمهم أخذوا عن السلفى .

---

(١) كتاب الروضتين : أبو شامه حـ ١

(٢) كتاب الروضتين : أبو شامة + السلوك : المقريزى.

قال شكيب أرسلان: «وإستوطن الإسكندرية بضعا وستين سنة مكبا على المطالعة والنسخ وإقراء الحديث، وإذا قرأت تراجم الأندلس، فلا تكاد تجد راحلا من الأندلسيين إلى لشرق إلا وقد قيل عنه إنه سمع من أبى طاهر السلفى فى الإسكندرية، مما لا جدال فيه أنه لم يوجد من قضى عمرا يساوى عمره فى خدمة الحديث، حتى كانوا يقولون عنه إنه (مسند الدنيا) [1] .»

هذا هو السلفى محدث الدنيا فى عصره، بل محدث الدهر، وأحفظ الحفاظ، وصدر الإسلام، وإمام المسلمين، ومفتيهم، ومؤرخ أعلامهم، وشيخهم، وضابط أسماء بلادهم، الذى كان بعضهم يدعى الأخذ عليه، ليكون بذلك قد ظفر برضى الناس عنه إذا ما تصدر مجالس علمهم، كما كان يكفى بعضهم فخرا أن يقول إنه (أخذ عن أصحاب السلفى)، إذا مافاته شرف الأخذ عن السلفى نفسه، كذلك حسب مسند الديار المصرية، حفيد السلفى شرفا أن يلقبوه (سبط السلفى) ولايذكرونه باسمه الحقيقى إلا فى النادر، فكفاه شرفا أن ينتسب إلى جده العظيم.

نعم كان السلفى موضع التقدير والإجلال، لما أكرمه الله به من المعرفة والفضيلة .. فنعم العالم العامل كان.

---

(١) الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية : شكيب أرسلان .

مؤلفاته ومذكراته

ليس بين أيدينا اليوم من مؤلفات السلفى إلا اثنان هما :

١ - (معجم السفر) ويسمونه أحيانا (معجم السلفى) وهو - بهذا الاسم الأخير مخطوط ، ومنه صورة شمسية فى مجلدين بمكتبة محافظة الإسكندرية تحت رقم ٣٩٢٩ ت ، وهو أشهر مؤلفاته ، وعليه كان اعتمادنا الأساسى فيما وصلنا إليه من نتائج فى مؤلفنا عنه ، وقد وضعه بالإسكندرية بعد عودته إليها من من مصر أى أنه كتبه فى الفترة من ٥١٧ إلى قرب وفاته سنة ٥٧٦ ؛ وربما هى التى أشار اليها ابن خير الإشبيلى فى فهرسته بعنوان « فهرست السلفى » .

ويعتبر هذا الكتاب صورة صادقة لثقافة السلفى المتنوعة من إسناد وتراجم وبلدانيات وتواريخ وآداب ونقد للرجال ، مع ما تخلل ذلك من أحاديث صحيحة عن رواتها ، وحكايات ونوادر وأشعار فى مختلف الأغراض له ولغيره ؛ سجلها السلفى من ألسنة القادمين عليه من السفر ، ولهذا سماه « معجم السَّفَر » .

٢ - (المشيخة البغدادية) أو « المعجم لمشيخة بغداد » أو « المشيخة البغدادية فى تواريخ المحدثين ، ومنه صورة شمسية بمكتبة محافظة الإسكندرية كذلك تحت رقم ١٢٠٩٧ ح ٢ فى أكثر من ٣٥ جزءاً ، والأصل فى الاسكوريال ، وهو إضافة جديدة لمعجم السفر ، وفى أول الثامن إشارة إلى السماع من السلفى برمل الإسكندرية ، وتتضمن أسماء شيوخه الذين أخذ عنهم القراءات وغيرها أثناء إقامته ببغداد ما بين سنة ٤٩٣ وسنة ٥٠٠ وتتضمن أدق المعلومات عن الحركة الفكرية فى بغداد ، كما عايشها وعاصرها السلفى ، وأسانيد الأحاديث النبوية التى رواها وأصحابها من الرواة ، والأماكن التى كانوا بها عند السماع منهم ، فضلا عن الأماكن والمواقع التى ببغداد تفصيلياً ، وقد سمعها منه جلال الدين بن إسحق بن درباس المارانى بكتاب من السلفى إليه بالإسكندرية سنة ٥٧٤ ، وكان قد سمعها منه قبلا أبو الخطاب نصر ببغداد سنة ٤٩٣ ، وفرغ ابن درباس من تعليقه بحران فى ٢٦ رجب سنة ٦٠٩ من نسخة حماد الحرانى وسماعه من السلفى .

وحتى يومنا هذا لا يوجد فى أى مكان على وجه الأرض مايشير إلى وجود مخطوط غيرهما للسلفى اللهم إلا الإشارات العابرة المتناثرة فى مئات الكتب ، ونستطيع جمع شتاتها وحصرها فيما يلى :

٣ - (الطيوريات) فى ثلاث مجلدات ، وهى مذكرات السلفى التى خرّجها عن شيخه أبى الحسن المبارك بن عبد الجبار الصيرفى الطُّيُورى المحدّث الصحيح الأصول الواسع العلم المتوفى سنة ٥٠٠ فى بغداد وبها كان منزله بالكرخ، وتلقاها عنه السلفى بها ، ولانعرف عنها شيئاً لولا نحو أكثر من عشرة مواضع فى « تاريخ الخلفاء » للسيوطى (— ٩١١ هـ) تشير إلى أن هذه الطيوريات تتضمن حكايات ونوادر فى الفقه والأدب والتاريخ ، وفى ذكرها يسير السلفى على نهجه المعروف فى الإسناد والرواية والدقة المعهودة فيه .

٤ - (الأربعين البلدانية) : أو « بلدانيات السلفى » أو « الأربعين السلفية » وفيها يقول ابن الأبار فى « المعجم » : « وجمع - أى السلفى - أربعين حديثا، عن أربعين شيخا ، سمع منهم فى أربعين بلدة ، أبان بها عن رحلة واسعة » ، وفى «التكملة» لابن الأبار إشارة عابرة إلى هذا العنوان : «الأربعون» .

٥ - (المعجم لمشيخة أصبهان) : وفيها تحدث السلفى عن شيوخه الأصبهانيين كما يقول السبكى فى « الطبقات الكبرى للشافعية » ويبدو أنه شرع فى الكتابة عنهم مؤرخاً من حفظه ، بعد أن غادر أصبهان بفترة طويلة ، وفى إحدى فترات استقراره فى الحياة .

٦ - (الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة) : ويبدو من العنوان أنه فى التاريخ ، وهو من الكتب التى إن صحت نسبتها إلى السلفى، إلا أنها مفقودة ، ولم يأتنا عنها فيما كتبه المؤلفون - أى إشارة أو اقتباس وانفرد البغدادى بنسبته إليه فى كتابه « إيضاح المكنون » .

٧ - (سداسيات)أو « الأحاديث السداسيات» -ومثلها الأحاديث السباعيات « لابن عربى - وهى فى الحديث .. مفقود ، ولا ندرى عنه شيئا ، وأشار إليه ابن خير الذى حدثه به السلفى عن أبى عبد الله الرازى ابن الحطاب بالإسكندرية

٨ - (سلفيات) من أجزاء الحديث ، مفقود ولاندرى عنه شيئاً .

٩ - (شرط القراءة على الشيوخ) فى القراءات ، وهو أيضا مفقود ولاندرى عنه شيئاً .

١٠ - (الوجيز ، المجاز والمجيز) ويبدو أنه هو السابق وإلا فهو فى شروط الإجازة وأخبارها . ذكره ابن الأبار فى « التكملة » ومن قبله ، وذكره ابن بشكوال فى « الصلة » بمناسبة الحديث عن أبى كلثوم عيسى بن أبى ذر الهروى أحد شيوخه المتوفى بأشبيلية سنة ٥٣٠ ، وقال السلفى فى هذا الكتاب «كان ميمون ابن ياسين من أمراء المرابطين رغب فى السماع منه بمكة واستقدمه من (سراة بنى شبابة) وبها كان سكناه وسكنى ابن أبى ذر من قبل، فاشترى منه صحيح البخارى أصل أبيه الذى سمع منه على أبى إسحق المستملى وغيره بجملة كبيرة وسمعه عليه فى عدة أشهر قبل وصول الحجيج »

١١ - (أخبار أبى العلاء) فى الشعر والشعراء ، وهو مفقود لاندرى عنه شيئا، وهذان الكتابان الأخيران أشار إليهما ابن الوردى (- ٧٥٠ هـ) فى كتابه «تتمة المختصر فى أخبار البشر »

١٢ -(معلقات) ورد بهذا الاسم فى فهرست « التكملة » لابن الأبار ، منسوبا لأبى طاهر السلفى وهو فى الغالب حكايات وفوائد ونوادر علقها السلفى عمن التقى بهم فى الإسكندرية ، وسجل عنهم من محفوظاتهم .

١٢ -(سلماسيات) أو « الأمالى السلماسية » وهى خمسة مجالس ، أى خمس محاضرات - بلغة العصر الحديث - ألقاها السلفى بثغر سلماس ، وهى تجمع

بين فنون شتى من الثقافة الإسلامية ، وهى غير « المجالس السبعة » من أماليه عن شيوخه ، مما يشير إلى وفرة نشاطه فى سلماس .

١٣ - (الأجزاء العراقية) وتتضمن حكايات عن أبى المظفر شبيب بن الحسن ابن شباب البروجردى قاضى همدان ، الذى حج مع السلفى ، وكتب عنه السلفى بمكة والجامعين وبغداد ، وقدم عليه بها سنة ٤٩٧ ، وهو من أجل تلاميذ أبى إسحاق الشيرازى .

١٤ - (الأمالى الحديثية) ، وهى دروس الحديث التى كان يلقيها السلفى فى البلدان التى حل بها ، وكان يحضرها عليه من كان فوق سن الشباب من العلماء طلاب الحديث .

هذا ، وكثيرا ما يردد السلفى فى «معجم السفر» حسرته على أماليه ومجالسه ومذكراته التى أودعها العراق وسلماس وديار بكر وآمد وأذربيجان وأرمانية وشروان وباب الأبواب قبل خروجه إلى الشام . « والله المسئول فى إيصال الكل إلى قبل الممات بمنه وكرمه » على حد تعبيره فى إحدى المرات وما أكثرها .

الفكر الإسلامى فى ستة قرون

الإسلام دين ودنيا ، علم وعمل ، فكر ونظام ، يربط العبد بالخالق ، والفرد بالمجتمع ، والفرد بنفسه ، دستوره القرآن ، معلمه الأول محمد رسول الله ، لغته العربية ، أسلوبه العقل والنقل ، والتوفيق بين المادة والروح ، وحفظ الكيان العام للوجود لاهدمه أو نقضه .

فى حياة الرسول كانت آيات القرآن تنزل عليه فيعلمها الناس ويحفظونها ويعملون بها ، وكانت أقواله وأفعاله وإقراراته لكل قول أو فعل تعاليم تفصيلية أو تفسيرية لما جاء فى القرآن بلا تعارض بينهما ، وتم نزول القرآن ، وانقطع الوحى

وتوفى رسول الله سنة ١١ هـ فانقضى عهد ، وبدأ عهد جديد .

بدأ عهد الصحابة ، الذين عايشوا رسول الله عن قرب ، فكانوا خلفاءه الراشدين على الرسالة التى جاء بها ، فى العبادات والمعاملات ، وكان عليهم أن يقودوا الجيل المعاصر بالعلم والعمل ، بمقتضى الكتاب والسنة ، كتاب الله وسنة رسوله ، لايحيدون عنهما قيد شعرة ، اتباعا لا ابتداعا ، حتى إذا طرأ على المسلمين أمر أو قضية ليس عنها نص فى القرآن أو فى الحديث ، اضطروا إلى (الفتوى) فيستشير بعضهم بعضا فى إصدارها مع التحرى والتحرز .

وانتشر الصحابة فى الأمصار على أثر الفتوحات ، وخشى عثمان بن عفان الخليفة الثالث أن يتغير القرآن بتغير الزمان والمكان ، فأمر سنة ٢٥ هـ بتدوين القرآن، حينئذ لم يكن قد تم تدوين الحديث ، اللهم إلا ذلك العمل الاجتهادى الذى قام به منفرداً عبد الله بن عمرو بن العاص من تدوين صحيفة له سماها (الصادقة) ، سجل فيها ما سمعه هو مباشرة عن النبى .

بدأ التفكير بعد ذلك فى تدوين الحديث ، وكانت هذه المحاولة تدور حول إيجاد ما يمكن أن نسميه (فن الحديث) ، وبذلوا الجهود فى البحث العميق حول رواة الأحاديث، ودرجات الثقة بهم، حيث أدى عدم التدوين إلى التحريف والزيادة والنقص ، سواء كان ذلك عمدا أو خطأ .

ولما أصبحت الخلافة ملكا عضوضا ، بعد أن كانت إمامة ، أخذ النزاع بين الحاكين طابعا سياسيا ، فظهرت ثلاثة أحزاب صبغت التكالب على الحكم بصبغة واهية من الدين ، تلك الأحزاب هى : أهل السنة والجماعة ـ والشيعة ـ والخوارج.

كل فريق يتعصب فى رواية الحديث إلى من ينتمى إلى الحزب ، فما عدا أهل السنة والجماعة ـ وهم جمهور الأمة الإسلامية ـ فهم وحدهم الذين أخذوا بكل

حديث صحيح رواه الثقات العدول وبفتاوى الصحابة وآرائهم ، وأشهرهم عبدالله ابن عمرو بن العاص مفتى مصر الأول ، وقد روى عنه أهلها أكثر من مائة حديث ، وعنه أخذ علماؤها وتلاميذهم كيزيد بن حبيب وتلميذه الليث بن سعد دفين مصر سنة ٧٧ ﻫ .

ونشطت حركة التدوين بظهور الأئمة الأربعة : مالك فى المدينة -(-١٧٩ﻫ) وأبو حنيفة (-١٨٠ ﻫ) وابن حنبل (- ٢٤١ ﻫ) فى بغداد ، والشافعى بمصر (- ٢٠٤ ﻫ) ، وكان عملهم هم وأصحابهم - مع ما كان بين العاصمتين من اتصالات وانفصالات - تدريس العلوم الشرعية ، ورواية الحديث ، وتولى القضاء أحيانا ، والإفتاء ، إلى جانب المهنة التى يرتزقون منها ، وكان اعتمادهم فى دروسهم على الأصلين الأولين - وهما القرآن والسنة ، - والإجماع والاجتهاد .

وظهر القراء السبعة الذين اشتهروا بالحفظ والضبط والإتقان فى تلاوة القرآن ، وأصبح للحفظ أسانيد ، وزاد عدد حفاظ القرآن بعد تنقيط حروفه وتشكيلها ، على يد أبى الأسود الدؤلى واضع علم النحو ، ودوّن الإمام مالك (الموطأ) فى صحيح الحديث سنة ١٤٠ ﻫ ، وكانت مسانيد السنة والقرآن فى البدء حسب رواتها عن أبى بكر وعمر وغيرهما ، كل على حدة ، بصرف النظر عن موضوع الحديث ، أما (مسند ابن حنبل) فكانت مسانيده فى الحديث حسب موضوعه ، وتوالت المدونات فى القرن الثالث كالبخارى ومسلم وأبى داود والنسائى والترمذى وابن ماجة ، وكلما روى هؤلاء الستة حديثا أجمعوا عليه ، قالوا : «متفق عليه» . وتداول الفقهاء فيما بينهم «المدونة» لمالك و «الأم» و «علم الأصول» للشافعى و «ظاهر السنة» لأبى حنيفة .

ومن هذا يتبين أن الحاجة قد أصبحت ملحة إلى أصول يتوصل بها إلى استنباط

الأحكام فى العبادات والمعاملات ، ولا سيما فيما بعد القرن الثانى الهجرى فى عهد التابعين ، وظهر الخلاف واضحا جليا فيما نسميه «أصول الفقه» : فماهو السبيل إلى الثقة بصحة الحديث ؟ وهل يكون ذلك عن طريق الرواة أو عن كيفية الرواية بالتواتر أم بالشهرة ؟ وكيف يمكن تقدير فتاوى الصحابة؟ وهل يمكن اعتبارها اجتهادية غير ملزمة للمشرع ؟ وإلى أى حد يمكن الأخذ بأصل القياس ؟ وبالنسبة للحجة الشرعية هل يؤخذ بالحديث أو بالاجتهاد ، ما دامت مراعاة مصالح الناس هدف كل صاحب نزعة تشريعية ؟ وأخيرا كان الخلاف فى استقراء الأساليب العربية من حيث التعميم والتخصيص . .

كل هذه التساؤلات كانت مدعاة لتدوين صحاح الأحاديث بمسانيدها أحيانا ، وحسب أبواب الفقه أحيانا أخرى ، وكان الفضل الأول فى وضع علم أصول الفقه يرجع إلى الإمام الشافعى الذى صاغ قواعده صياغة علمية مرتبة ، وهو الذى لخص مذهبه فى هذه العبارة الموجزة : «إذا صح الحديث فهو مذهبى» ، وعلى هذا الأساس وضع قبل غيره «علم الأصول» أى أصول الفقه لاستنباط الأحكام .

وكانت أكثر المذاهب الأربعة شيوعا فى مصر ، الحنفى والمالكى والشافعى ، وانتفع المصريون كثيرا بهذا التزاحم بين الثلاثة ، ونشطت الحركة الفكرية الإسلامية ، مما جعل مصر محط الأنظار ، ومقصد العلماء من سائر الأمصار .

ولكن مالبثت هذه الحركة أن فترت بعض الفتور ، مما جعل المؤرخين يطلقون على عصر ما بعد الأئمة ، ابتداء من القرن الرابع «عهد التقليد» حيث توقف العلماء عن الاجتهاد المطلق ، فلم تنتعش روح الاستقلال الفكرى الحر ، وكانت هذه الظاهرة انعكاسا لما حل بالعالم الإسلامى عامة من عوامل سياسية وعقلية وخلقية ، فاختار كل عالم حزبا سياسيا ، وانتمى إلى واحد من أصحاب المذاهب الفقهية ،

وكلما حاول أحدهم أن يجتهد رأيه ناله التشهير من غيره ، على نحو غير لائق بأخلاقيات العلماء ، ولا سيما أن دينهم الإسلام . وأخذ كل منهم منهج التبعية ، بدراسة أقوال السابقين ، ومقارنة بعضها ببعض ، يرجحون قولا على آخر ، حسبما تمليه عليهم ميولهم واتجاهاتهم .

ودبت المطامع السياسية فى العالم الإسلامى ، وأصبح لاهم للسلمين غير الحكم، متوسلين إلى ذلك بالدين ، تقربا إلى العامة بالانتساب إلى رسول الله : هذه خلافة عباسية نسبة إلى (العباس) عم رسول الله ، وتلك خلافة فاطمية نسبة إلى (فاطمة) بنت رسول الله ، وتداخلت الدولتان وساد الصراع، وانشقت دويلات على هذه وتلك ، واستحر النزاع بين الشيعة والسنة ، ونشأت المدارس فى مكة ودمشق والقاهرة والإسكندرية ، وتضافرت الجهود على تعويض عهد التخلف فى الثقافة الإسلامية ، لهذا كان القرنان الخامس والسادس أزهى عصور الفكر الإسلامى ، لاتسامها بالشمول والموسوعية ، فى العلوم النابعة من دين الإسلام ، والعاملة على خدمته ، وتجديد نسيجه بالتفسير والقراءات والحديث والفقه والنحو والصرف والأدب والتاريخ والقصص وتقويم البلدان .

ومما ساعد على ذلك النهوض بالفكر الإسلامى ، تدوين هذه المؤلفات ، بعد أن تم تدوين القرآن والسنة فى القرون السابقة ، وتبادل مخطوطاتها ، والتنقل بين المدن الإسلامية الكبرى ذات المدارس العلمية فى أصبهان وبغـداد والكوفة والبصرة والموصل ومكة والمدينة ودمشق والفسطاط والإسكندرية والأندلس .

وعلى الرغم من تعدد (الخلافات) السياسية والمذهبية ، فإن رجال العلم مضوا فى طريقهم لإحياء علوم الإسلام ، وإذا قلنا الخلافات ، فإنما نقصد بها جمع (خلافة) وجمع (خلاف) فى آن واحد ، فقد اقترن عصر الخلافات

بالخلافات حقا وصدقا .

ترى هل استوعب السلفى ما خلفته هذه القرون من تراث ؟ وإلى أى حد تأثر بهذه الخلافات ؟ وما هى جهوده التى أسهم بها فيه ؟ وهل كان ذلك تجديداً منه أم كان تقليدا ؟ ، وما هى جوانب الخلق والابتكار فيما خلفه لنا ؟ وما هى العوامل العامة والخاصة التى جعلت منه شخصية منفردة لها خصائصها ومشخصاتها ؟

(٢)

السّلفى .. والتحرك الثقافى

«حافظ متقن مشهور رحال ، سمع ببغداد الكثير، وخرج منها سنة خمسمائة ، وطاف الأقاليم ، ثم سكن الإسكندرية وعُمِّر ، وحدّث بالكثير ، ورُحل إليه من الآفاق وكان ثقة ورعا .. »

— الذهبى —

من أصبهان

قلنا إن السلفى فارسى الأصل ، بلده (جرواآن) من أعمال (أصبهان) التى حجبت شهرتها معالم الحياة فى مسقط رأس السلفى ، فصرنا لاندرى شيئا يذكر عن هذا البلد حتى فى معاجم البلدان ، وكتب المسالك والممالك ، ذكرها ياقوت فقال : وجروان ، محلة كبيرة بأصبهان يقال لها بالعجمية أو بالأعجمية (جُرْواآن) ينسب إليها أبو على عبد الرحمن بن محمد بن الخصيب بن رُسته ، واسمه إبراهيم ابن الحسن الجرواآنى روى عن الفضل بن الخصيب وتوفى سنة ٣٨٧ هـ .

ومهما يكن من شىء ، فإن الفتى قد تحرك فى ميعة الصبا تحركا ثقافيا نحو الأضواء الباهرة الجذابة فى أصبهان ، التى يهمنا أن نتخذها قاعدة انطلاق السلفى، نحو البلاد الواسعة فى الربع الأخير من القرن الخامس الهجرى ، ترى ماذا كان من منغصات فى أصبهان جعلت السلفى يغادرها إلى الآفاق ؟ وماذا كان بها من فضائل سارت فى ركابه أينما حل وارتحل ، ولازمته لزوم الغريزة للإنسان من مهده إلى لحده ؟

وإصبهان ـ بكسر الهمزة ـ مدينة فى (إقليم الجبال) أو (الجبل) الذى كان يسمى قديما (ميديا) ـ ، داخلة فى كورة أصبهان التى قصبتها (اليهودية) وسميت بذلك لأن اليهود عند جلائهم مع بختنصر من أرض فلسطين قد سكنوها فسميت باليهودية ، التى منها ومن أصبهان المدينة تتكون أصبهان الكورة أو الإقليم ، ويقال أيضا إن الإسكندر الأكبر قد بنى أصبهان .

هواؤها طيب ، والأرض خصبة ، تنبت الفاكهة كالعنب والرمان والسفرجل والتفاح والزعفران النادر ، ويخترقها نهر راكد ، ويشرب أهلها من العيون والآبار حيث تتجمد مياهها شتاء ، وتعذب صيفا ، ويعملون فى الزراعة والتجارة

والصناعة ، وتمر بها طرق القوافل إلى جميع الجهات .

سكانها أخلاط من العجم المجوس واليهود والعرب ، دخلها الإسلام سنة ٢٣ هجرية على يد فاتحها عبد الله بن بديل الأحنف بن قيس فى زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (١) ، ودخلت فى حدود فارس منذ زمن طويل .

وأهل أصبهان إذن أكثرهم عجم ، من أشراف الدهاقين وفيهم الأكراد ، والعرب فيها قلة ، انتقلوا إليها من الكوفة والبصرة ، وهم من ثقيف وتميم وبنى ضبة وخزاعة وبنى حنيفة وبنى عبد القيس ، ومنهم بطون وأفخاذ من بنى هلال وقيس ، فضلا عن همدان الوافدة من اليمن إلى أصبهان .

وأول من كتب بالعربية فى ديوان أصبهان ـ كما يقول أحد أبنائها من أهل القرن الرابع الهجرى وهو ابن رسته (٢) ـ سعد بن إياس كاتب عاصم بن يونس عامل أبى مسلم صاحب الدولة ، وأول من أخذ الناس بتعلم القرآن من أهل أصبهان ، ويقال إنه استقرأ المسلمين بها فكانوا ثمانين رجلا ، لم يحفظ القرآن منهم غير ثلاثة ، فلم ينقض عام حتى تعلموه جميعا وحفظوه .

وبعد الإسلام ، صار أهل أصبهان من أهل السنة والجماعة والأدب والبلاغة ، وظهر فيها القراء والأدباء والفقهاء ، وصار جامع أصبهان أعمر بالجماعة من أى جامع آخر فى سائر الأمصار بعد جامع مصر . (٣) ومن أهلها أيضا حنابلة غلاة يبالغون فى ذم معاوية ، وكان منهم خرَّمية ، أما لسانهم ففيه مدّ لعجمتهم .

ولا ندرى ماذا نال المقدسى منهم حتى وصفهم بالبلاهة ، ووسمهم بفساد الأخلاق والطباع وشبه عمائم علمائهم بالمخاد ، « يرى أحدهم بخفيه وبزته ، وفى كمه رغيف يكدمه ، أو زبيب يقضمه ، وقال فى موضع آخر « إن نساءهم يحرسن الحمامات ، ويخرج الدجال من سوقهم » . (٣)

---

(١) فتوح البلدان : البلاذرى .
(٢) الأعلاق النفيسة : ابن رسته .
(٣) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم : المقدسى .

أما ياقوت فإنه يتوسع فى أصل (إصبهان) - بكسر الهمزة وهى بالفتح أشهر - ويقول فيما يقول إنها مدينة معروفة من بلاد فارس، سميت باسم أول من نزلها وهو أصبهان بن فلوج بن لمطى بن يافث بن نوح ، بينما نزل أخوه همدان فسميت به ، ويشتقها ياقوت من كلمتين فارسيتين : (إصبه) يعنى البلد و (هان) يعنى الفرَس ، فهى بلد الفرسان ، لنجدتهم ، وكانوا معروفين بها و بالبأس والفروسية، وعنده أنها مدينة عظيمة مشهورة من أعلام المدن وأعيانها ، وهى اسم المدينة التى أصلها (جَىّ) ثم (اليهودية) واسم للإقليم كله ، ثم يقول بعد عرض مشتقاتها عند الجرجانى وابن دريد : « وقد لهج بحديث اشتقاق أصبهان عوام الناس وهوامهم » ، وقيل فى الأساطير مايفيد أنهم - لشجاعتهم - حمل إليهم اللواء .

ونحن نعلم أن الصحابى الجليل سلمان الفارسى من أصبهان ، وأنه صاحب فكرة الخندق التى رحب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة الخندق عام ٥ ه وأمره بتنفيذها ، اقتباسا من خبرات أهل فارس فى الحروب قبل أن يعرف العرب فن الهندسة الحربية ، وليس أدل على براعة أهل أصبهان بالذات فى العلوم الهندسية والمساحة وتخطيط المدن من أن أحد أبنائها وهو المهندس محمد بن لنة الأصبهانى هو الذى مسح أصبهان مسحا هندسيا ، ونوه بذلك ابن رسته الأصبهانى المنسوب إلى (جروآن) أصلا .

ويقول ياقوت إن مساحتها ثمانون فرسخا فى مثلها، وأنها تشتمل على ستة عشر رستاقا (مدينة) بكل منها ٦٣٠ قرية قديمة غير المحدثة ، وهى على الجملة صحيحة الهواء ، يغلب عليها الجفاف ، وتربتها أصح تراب الأرض . »

ابن البلد

هذ لمحة خاطفة عن أصبهان البلد . . المدينة والكورة أو الإقليم ، سواء من الجوانب الطبيعية أو العمرانية أو التاريخية أو البشرية ، وقد درج على أرضها الحافظ السلفي وهو في ميعة الصبا ، واستنشق هـواءها ، ونشأ في بيت من بيوت الإسلام، ورثة الفروسية والنجدة والشهامة بين أخلاط من الأديان والملل والنحل، وانطبعت أحاسيسه ومداركه بما يجـرى حـوله من الأحـداث اليومية ، فما هي الظروف التي أحاطت به ـ وهـو في هذه السن الباكرة ـ لتدفعه إلى الرحيـل عن بلاده ؟ وهل كانت هذه الرحلة برضاه أم على كره منه ؟ ولماذا غادرها إلى غير رجعة ؟ فهل هان عليه الأهل والوطن إلى هذا الحد ؟

على هذه التساؤلات سنحاول باجتهادنا أن نجيب ، مادام المؤرخون للسلفي لم يذكروا لنا شيئا عن ذلك في قليل أو كثير ، بل أغمضوا أيضا عيونهم جميعا عن أمر له أهميته وهو : هل كان السلفي ـ وهو المسلم ـ عربي الأصل أم هل هو فارسي ؟

ولسنا نملك حق المجازفة للبت في عروبته،في هذا الغموض الذي يكتنف تاريخ أسرته ، وإن كنا نرجح أنه فارسي الأصل ، اعتنق الإسـلام أبوه وجده القريب وجده الأعلى ـ وهو الرابع (سلفة) ـ وقد رأينا أن هذا الاسم فـارسي معناه بالعربية ثـلاث شفاه ، وعلى ذلك لو كان السلفي عربيا لنسبوه إلى القبيلة العربية التي انحدر منها ، وقد ذكرنا بعض هاتيك القبـائل التي نزحت إلى أصبهان من الكوفة والبصرة واليمن ، ولم يكن منها السلفي ، حتى لقد حرص راوى « المشيخة البغدادية » على أن ينتهي بنسب السلفي هكذا : « .... بن إبراهيم سلفة السلفي » .

كما أن الطول النسبي لسلسلة آبائه وأجداده ـ على ما رأينا ـ كان كفيلا بأن يجعل لسان السلفى فصيحا على عادة أبناء العرب فى وراثتهم للفصاحة عنهم كابرا عن كابر ، ولكن إشارة عابرة من كلام أبى جعفر بن الباذش ، توحى بأنه فارسى غير عربى ، إذ يقول : «هو على عجمته يقرض الشعر ، ويجيبه منه ماليس برديء ولاجيد» فهو إذن أعجمى، وليس ثمت عربى يمكن أن ينكر عليه أحد قول الشعر على هذا النحو .

على أن تلك الفارسية لم تكن مطعنا فى أصالة الثقافة الواسعة التى أحاط بها السلفى ، وبز فيها فطاحل العرب ، ذلك أن (الإسلام) هو مصدر هذه الثقافة وليست (العروبة) ، لقد حفظ السلفى القرآن صغيرا ، ودرس المبادىء الأولى للكتابة والقراءة والحساب، وتردد على حلقات الدرس، دائرة فى إثر دائرة فى محيط أصبهان ، فلما بلغ السابعة عشرة جلس للحديث ، وكان أول سماع له فى العام التالى، وظل يتنقل بين المعلمين فى حلقاتهم وزواياهم ومساجدهم ، حتى إذا اكتمل له من العمر ثلاثة وعشرون عاما ، رحل عن أصبهان إلى بغداد وذلك سنة ٤٩٣ هـ .

ومن الطبيعى ألا يبقى مثل هذا الفتى الطموح أكثر من ذلك فى بلده ، وبين عينيه هدف بعيد يرمى إليه ، بعد أن ضاقت بيئته الأولى به ، ولم تعد تطفىء شوقه إلى الاغتراف من مناهل العلم ، الذى لايعرف وطنا ، ولايعترف بحواجز، وعقبات . . ومهما تكن المضايقات التى حوله من الطباع البشرية فقد رحل وهو غير ساخط ، حبا فى الرحيل لذاته ، ورغبة فى التزود من علماء بغداد، وجريا على ما كان يسمعه من رحلات الأصبهانيين إلى بغداد ودمشق .

وإذن فإن التحرك الثقافى الذى قام به السلفى لم يكن باعثه كراهية لقوم عاشرهم فأساءوا إليه ، ففر من وجوههم يلتمس النجاة ، أو خالفهم فى العقيدة

فطاردوه ، ولا باعثه عصيان الأهل والولد عن فساد خلق ، أو ارتكاب موبقة من الموبقات . . كلا ، بل الباعث هو طموح شاب تتوق نفسه إلى طلب المزيد من علوم الإسلام ، حيثما كان العلماء ومعاهد العلم . . والإسلام .

أصبهان . . وأصبهانيون

فلنبحث إذن عن معالم الحركة الفكرية فى أصبهان ، خلال القرنين الخامس والسادس للهجرة ، حتى يمكننا الوقوف على أثر البيئة الأصبهانية فى النشأة العلمية الأولى للسلفى . . ابن أصبهان .

ولقد تفتحت عيناه أولا على أبيه محمد ، وكان ـ على ما وصفوه ـ شيخا عفيفا ثقة واسع المعرفة كثير السماع ، وإذن فقد تلقى عليه ابنه بأصبهان ومكة فى الحج وتأثر به فى سلوكه الطيب ، وحسن معاملته للناس ، وتبجيلهم له ، حتى توفى إلى رحمة الله ، وابنه فى الثامنة والعشرين من عمره ، أى بعد رحيله عن أصبهان بخمس سنوات ، فلم يحضر وفاته سنة ٤٩٨ هـ أو سنة ٤٩٩ كما فى بعض الروايات .

قال الصاحب أبو القاسم بن عباد فى إلمامة شاملة عن الحياة الفكرية فى أصبهان فى هذه الفترة التاريخية :

«وقد خرج من أصبهان من العلماء والأئمة فى كل فن ما لم يخرج من مدينة من المدن ، وعلى الخصوص علو الإسناد ، فإن أعمار أهلها تطول ، ولهم مع ذلك عناية وافرة بسماع الحديث ، وبها من الحفاظ خلق لا يحصون ، ولها عدة تواريخ ؛ وقد نشأ فيها الخراب فى هذا الوقت وقبله فى نواحيها ، لكثرة الفتن والتعصب بين الشافعية والحنفية والحروب المتصلة بين الحزبين ، فكلما ظهرت طائفة ، نهبت محلة

الأخرى وأحرقتها وخربتها ، لايأخذهم فى ذلك إل ولا ذمة ، ومع ذلك فقلّ أن تدوم بها دولة سلطان ، أو يقيم بها فيصلح فاسدها ، وكذلك الأمر فى رساتيقها (مدنها) وقراها التى كل واحدة منها كالمدينة ، (١)

أصبهان إذن تربة خصبة ، وبيئة صالحة ، لم يكن خروج السلفى منها بدعا من الأمر ، لا من حيث المناخ الصالح لعلم الحديث ـ وقد وجدت بذوره عوامل النماء بها كاملة موفورة ـ ولا من حيث الرغبة فى الخروج منها ، كما خرج علماؤها وأئمتها ، للأسباب التى ذكرها ابن عباد .

وفى خلال سبع سنوات محصورة بين السابعة عشرة من عمره حتى الثالثة والعشرين ، وعلى أرض أصبهان ، استطاع السلفى الشاب أن يتردد على كثير من علماء بلده ، وأن يأخذ عنهم ، وأن يتأثر بهم ويحذو حذوهم ، فهو حينئذ ـ بحكم السن ـ على استعداد للتطبع والتقليد ، وملكاته لا تزال متفتحة كالزهرة فى حاجتها إلى الماء والهواء والشمس والغذاء .

وإن أصبهان التى توفى بها الشيخ الرئيس الفيلسوف العملاق ابن سينا سنة ٤٢٨ ، والتى فقدت عالمها الجليل الحافظ أبا نعيم الأصبهانى المتوفى بها سنة ٤٣٠ عن ٩٤ سنة وقبل أن يولد السلفى بأربعين سنة تقريبا ، لم تعدم أصبهان هذه من بعدهما علماء أجلاء ، ساروا على نهج أبى نعيم فى «حلية الأولياء» و«تاريخ أصبهان» ، وما وراء ذلك من شتى المعارف الإسلامية .

لقد كانت أصبهان منذ النشأة الأولى للسلفى عامرة بالعلماء وأكثرهم من المعمرين ، وهذه ظاهرة عجيبة نسجلها لهم على التاريخ ، ومنهم صاحبنا الجليل الإمام السلفى ، الذى عاش فى عصر الأعلام الضخام المعمرين الذين ذاع صيتهم فى كل أنحاء العالم الإسلامى ، ومنهم :

---

(١) معجم البلدان : ياقوت .

ـ الحافظ الإمام أبو نعيم أحمد سبط الحافظ صاحب « حلية الأولياء » المتوفى سنة ٤٣٠ هـ.

ـ أبو طاهر محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الرحيم مسند أصبهان والكاتب الثقة والرحالة المتوفى سنة ٤٤٥ .

ـ والحافظ أبو بكر العطار الأصبهانى وكان إماما ثقة، عارفا برجال الحديث ومتونه ، وكان عظيم الشأن ببلده وتوفى سنة ٤٦٦ .

ـ والحافظ عبد الوهاب بن محمد بن إسحاق بن منده وهو من بيت مشهور بالحديث ورحل فى سبيله ومات بأصبهان سنة ٤٧٥ وكان واسع الرواية حسن الحظ كبير الشأن .

ـ ومحمد بن أحمد بن محمد بن الحسن بن ماجة أبو بكر الأبهرى الأصبهانى الإمام العالم المشهور الذى انتهت إليه رياسة العلم بأصبهان ومات بها سنة ٤٨١ عن ٩٥ سنة .

ـ والحافظ أبو العباس بن بشرويه الأصبهانى الإمام المحدث الحافظ الذى توفى سنة ٤٩٢ عن ٩٦ سنة .

ـ والحافظ الإمام العالم المحدث أبو الفتح أحمد الحداد الأصبهانى المتوفى بأصبهان سنة ٥٠٠ هـ عن ٩٢ سنة .

ـ والإمام أبو سعيد محمد الأصبهانى المطرز المتوفى سنة ٥٠٤ هـ .

ـ وابن الهبارية الشاعر البغدادى الذى قدم أصبهان وتوفى سنة ٥٠٩ .

ـ ويحيى بن عبد الوهاب ابن منده العبدى الأصبهانى المحدث الحافظ

المؤرخ، ولد بأصبهان وروى الكثير عن أبيه وعميه، وقدم بغداد وحدث بها وسمع منه الشيخ عبد القادر الجيلانى وابن الخشاب والسلفى، وتوفى ببلده سنة ٥١١ أو سنة ٥١٢ عن ٧٩ سنة، وله كتاب «من عاش من الصحابة مائة وعشرين سنة» و «تاريخ أصبهان» و «مناقب العباس» و «مناقب أحمد».

ـــ وعالم أصبهان ومحدثها أبو منصور الأشقر الأصبهانى المتوفى سنة ٥١٤.

ـــ والإمام إسماعيل الطلحى الأصبهانى حافظ عصره المتوفى بأصبهان سنة ٥٣٥ هـ عن ٧٦ سنة.

ـــ والصوفى أبو القاسم النيسابورى الأصبهانى المتوفى سنة ٥٥١

ـــ والحافظ أبو مسعود عبد الجليل ابن كوتاه الأصبهانى المتوفى سنة ٥٥٣.

ـــ والنحوى الأديب البلدانى أبو الفتح نصر بن عبد الرحمن الفزارى السكندرى صاحب كتاب فى أسماء البلدان والأمكنة والجبال والمياه. دخل أصبهان ومات بها سنة ٥٦١ ذكره الصفدى.

ـــ وأبو الحسن على بن أحمد اللباد الأصبهانى المتوفى بها سنة ٥٦١.

ـــ وأبو حنيفة محمد بن عبيد الله الأصبهانى الخطيبى المتوفى سنة ٥٧١.

ـــ وأبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الأموى الديباجى الأصبهانى العثمانى الإسكندرانى المحدث المتوفى سنة ٥٧٢ تقريبا.

ـــ والعماد الكاتب الصاحب الأصبهانى الذى ولد بأصبهان سنة ٥١٩ ورحل منها مع أبيه وعمل فى خدمة صلاح الدين: كاتب إنشائه وشاعره ومؤرخه ومرافقه فى السماع على السلفى بالإسكندرية سنة ٥٧٢ وصاحب «خريدة القصر فى شعراء العصر» والمتوفى سنة ٥٧٧.

— وأبو الفتح عبد الله بن أحمد الأصبهانى الخرقى المتوفى سنة ٥٧٩ عن ٨٩ سنة .

— وأبو المكارم أحمد بن محمد التيمى الأصبهانى ابن اللبان العدل القاضى المتوفى بدمشق سنة ٥٩٧ .

— ومنتخب الدين أبو الفتح أسعد بن خلف العجلى الأصبهانى شيخ الشافعية بأصبهان وقد توفى بها سنة ٦٠٠ عن ٨٥ سنة .

— أليس فى هذه المجموعة المختارة من الأصبهانيين — وما أكثرهم — ما يشير إلى أن أصبهان فى العصر الذى أدركه السلفى قد أنجبت الصفوة من علماء الإسلام : أئمة وحفاظا ومحدثين وفقهاء وأئمه وقضاة وشعراء وفلاسفة وأدباء ومؤرخين ومتصوفة طالت أعمارهم ، ورحل بعضهم إلى الآفاق ؟

كما أن وفاء الكثير منهم لبلدهم حداهم لتأليف الكتب النادرة عن أصبهان وتاريخها وأعلامها وفضائلها ، فأسهموا بذلك فى بناء صرح « علم البلدانيات » الذى يفخر به التراث الإسلامى . من ذلك :

— « تاريخ إصبهان » لأبى عبد الله حمزة بن الحسين المؤدب من أهل القرن الرابع .

— « محاسن أصفهان » لمفضل بن سعد المافروخى وقد اقتبس من سابقه .

— « تاريخ أصفهان » لأبى بكر أحمد بن موسى بن مردويه المتوفى سنة ٤١٠ هـ .

— « تاريخ أصفهان » لابن منده الجد والحفيد .

— « تاريخ أصفهان » لأبى الشيخ ابن حيان

— « تاريخ أصفهان » لأبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهانى فى مجلدين .

— « تاريخ أصفهان » لأبي بكر محمد بن أبي علي أحمد بن عبد الرحمن المعدل الأصبهاني .

— « قلائد الشرف في مفاخر أصبهان وأخبارها » لعلي بن حمزة الأصفهاني .

— « تاريخ أصفهان » للفيروز ابادي المتوفى سنة ٤٧٦ هـ .

— « معجم أصبهان » للحافظ السلفي المتوفى سنة ٥٧٦ هـ [(١)] .

ومن هذا الثبت يتبين لنا مسبقاً أن السلفي ـ كعلماء بلده أصبهان ـ عنى بالتاريخ والبلدان والأعلام ، وسيكون على غرارهم فيما سيخلفه لنا من التراجم والمعاجم ، وعلى نهجه سيترسم خطاه ياقوت الحموي .

ولقد جرى حدث تاريخي هام جمع بالصدفة بين أصبهان والإسكندرية ، آن الآن أن نذكره هنا لنضعه بين يدي القارئ ، ونحن نتلمس أسباب رحلة السلفي من بلده إلى أن ينتهي به المطاف إلى الإسكندرية .

فإن لم يكن في هذا الحدث ما يكفي لذلك ، فلا أقل من أن نعرف لونا من الصراع العقائدي الذي اكتنف الفترة التي نشأ فيها السلفي ، وشاءت الأقدار أن تجعل منه هو همزة الوصل بين البلدين الجليلين .

ويتلخص الحادث في أن بعض أهل الفرس من الإسماعيلية قد نادى بإمامة نزار بن المستنصر بالله الخليفة الفاطمي المصري ، الذي دامت خلافته ستين سنة من سنة ٤٢٦ إلى سنة ٤٨٦ ، وانضوى تحت علمه الأسود مشرق الإسلام ومغربه ، وإذ ذاك كان نفوذ الإسماعيلية ما بين الري وهمدان من إقليم الجبال الذي منـــه

(١) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ : السخاوي (ـ ٩٠٢ هـ) .

أصبهان ، حتى استولوا على أصبهان، ونشروا بها دعوتهم بزعامة الحسن بن الصباح ، الذى رحل إلى مصر ليتعمق فى دراسة المذهب الشيعى بدار الحكمة بالقاهرة ، بينما كانت الثورة فى الإسكندرية على أشدها مع نزار ، وإن كانت على حالتها سنية لا شيعية .

وكان أمير الجيوش بدر الجمالى الأرمنى الأصل وزير المستنصر قد دبر مؤامرة لإقصاء نزار عن الإمامة بعد أبيه ، ومن هنا كان الخلاف بين الحسن ابن الصباح وبدر الجمالى ، وسرعان ماقبض على الحسن، وزج به فى سجن دمياط، ثم أمر بإطلاق سراحه ، وأركبه السفينة من الإسكندرية فى رجب سنة ٤٧٢ إلى الشام ، من حيث كان يريد بلاد المغرب فرست به السفينة على عكا ، ومنها ذهب إلى حلب وبغداد وخوزستان . فراح يتفقد مراكز المذهب الإسماعيلى حتى وصل إلى أصبهان ، فأعلن إمامة نزار بعد أبيه المستنصر ، كيدا فى بدر الجمالى ، ومن ثمت ظهرت طائفة (النزارية) فى أصبهان .

ويبدو لنا أن مثل هذه الانحرافات السياسية المغلفة بغشاء شفاف من العقيدة لم ترض طبيعة فتى سنى شافعى كالسلفى ، ففر بعقيدته بعيدا عن كل صراع من شأنه إفساد العلاقات بين المسلمين .

أوائل الشيوخ

لسنا نبالغ فى القول بأن السلفى قد سلخ مائة عام بالتمام يطلب العلم ، ويسمع من العلماء وغير العلماء ، سواء فى بلده الذى به نما ونشأ وشب وترعرع ، أو فى البلاد التى رحل إليها ، إلى أن انتهى به المطاف بالإسكندرية وحتى آخر ليلة قضاها بها من عمره المديد ، وكان شيوخه يزيدون على الألف - كما يقول التجيبى - وجمع بعض أصحابه أسماء النساء منهم فى معجم ، وهذا « اتساع عظيم فى الأخذ عن المشايخ » على حد قوله (١) .

وإنه لمن الأهمية بمكان أن نذكر أسماء الشيوخ الأوائل الذين تلقى عليهم السلفى قبل أن يغادر أصبهان إلى بغداد ، ففى هذه الفترة القصيرة من حياته الأولى - وهى لاتزيد على سبع سنوات - قرأ القرآن سنة ٤٨٦ على إمام النحو هبة الله محمد ابن الصفار (٢) ، وكان حافظا للحديث ، ولم يكن السلفى قد جاوز السابعة عشرة ، ثم كان له سماع فى العام التالى سنة ٤٨٨ ، وهذا نبوغ ونضوج قبل الأوان ، واشتد ساعده ، واستقام عوده فى الطلب ، بعد رحلات فى الآفاق ، استغرقت ٣٨ سنة .

واتفق ابن الأبار والسبكى على أن أول سماع للسلفى فى أصبهان كان سنة ٤٨٨ على رئيسها ومسند عصره فيها أبى عبد الله القاسم بن الفضل الثقفى ، وكان أول شىء سمعه بيتان من الشعر أنشدهما مؤدبه ومعلمه ، وقد بعثه فى حاجة فقال له : نعم ، وهما :

إذا قلت فى شىء : « نعم » فأتمه ... فإن نعم وعد على الحر واجب
وإلا فقل : « لا » تسترح وترح بها ... لئلا يقول الناس إنك كاذب

---

(١) المعجم : ابن الأبار .

(٢) بغية الوعاة : السيوطى .

وعلى ذلك كان (الصدق) أول درس تلقاه فى الأخلاق التى هى ركيزة هذا العالم المدخر ليكون مسند الدنيا ، ومحدث المحدثين ، وأصدق الرواة ، وأدق الثقاة ، والفضل فى ذلك كله يرجع إلى شيخه الأول الرئيس الأصبهانى مسند عصره أبى عبدالله الثقفى ، وهو عربى أصيل ينتمى إلى ثقيف ، وقدنزح إلى أصبهان وعلا بها شأنه ، وشاءت الأقدار أن يكون هذا العالم (العربى) أول معلم لهذا الفتى (الأصبهانى) بعد أبيه ، وقد وافانا السبكى أيضا بعدد آخر من أوائل شيوخ السلفى بأصبهان ، منهم من ينتمى إلى الكرخ (البغدادية) ، والمدينة (الحجازية) مثل : مكى بن منصور بن علان الكرخى ، ومحمد بن محمد بن عبد الوهاب المدينى ، فضلا عن عبد الرحمن بن محمد بن يوسف السمسار ، وسعيد بن محمد الجوهرى ، والفضل بن على الحنفى ، ومعمر بن أحمد اللنبانى ، وأبى الرجا بندار بن محمد بن جعفر الخلقانى (١) ، وأبى وفاء السلفى عليه نحو شيوخه إلا أن يسير على نهج سابقيه ومعاصريه ، فوضع معجما حافلا لشيوخه الأصبهانيين ، وإلى وقتنا هذا لم يتم العثور عليه .

ومهما يكن من غموض هذه الفترة الأولى من النشأة العلمية للسلفى ، فإنه خرج من بلده أصبهان فى رمضان سنة ٤٩٣ ومعه زاد لابأس به من الشعر الرخيم الحكيم ، وكان قد حفظ القرآن الكريم ، وهو الأصل الأول فى دين الإسلام الحنيف ، وحدث بالكثير من أحاديث رسول الله ﷺ ، دراية ورواية ، متونا وأسانيد ، إذ أن الحديث الشريف هو المصدر الثانى للأحكام فى الإسلام ، ومما لاشك فيه أن لسان السلفى ـ وهو فارسى ـ قد أخذ يستقيم رويداً رويداً ويتدرب على الفصاحة العربية ، على أيدى شيوخه الذين وفدوا إلى أصبهان من قبائل عربية ، لغتها الأصلية هى

(١) ألف باء : البلوى .

لغة القرآن ، ترى هل اكتفى السلفى بهذا الزاد ، وهو يعلم أن التجوال فى الآفاق هو السبيل الوحيد إلى تحقيق ماتطمح إليه نفسه الوثابة طلباً المزيد من العلم وهو أنبل زاد ؟ لعل السلفى قد استوعب القول السائد فى عصره على كل لسان وهو « بلاد الحديث اليوم التى تشد المطايا إليها ثلاث : (بغداد) و (أصبهان) و (نيسابور) .

إلى بغـــداد

لم يكن السلفى من أهل الثراء ليزوده أبوه بشىء من المال ، وقد أزمع الرحيل فى طلب العلم ، بل آثر أن يتحلى بالأخلاق الفاضلة وهو شاب نشأ فى طاعة الله ، وأمله كبير فى أن يظله الله تعالى بظله يوم لاظل إلا ظله ، وتأدب مع ربه فآثر أن يرحل وهو حافى القدمين ، مجاهداً فى سبيله ، وتعرض لنفحات رمضان ، لاشاغل له إلا علماء بغداد ، يغترف من معين علومهم ، غير مهاجر إليها من أجل دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، ولنستمع إليه وهو يتحدث عن دخوله بغداد :

« دخلتها فى الرابع من شوال (أى سنة ٤٩٣) فلم يكن لى همة ، ساعة دخولها إلا المضى إلى ابن البطر ، فدخلت عليه ، وكان شيخا عسراً ، فقلت : قد وصلت من أصبهان إليك (أى لأجلك) ، فقال : اقرأ (جعل بدل الراء غينا) فقرأت عليه ، وأنا متكىء لأجل دمامل بى (من طول السير وهو حافى القدمين طوال أيام الرحلة تأدباً مع الله فى طلب العلم) ، فقال : أبصر ذا الكلب . فاعتذرت إليه بالدمامل ، وبكيت من كلامه ، وقرأت سبعة عشر حديثا ، وخرجت ، ثم قرأت عليه نحوا من خمسة وعشرين جزءاً (من الأحاديث) ولم يكن بذاك » [1] .

---

(١) الطبقات الكبرى : السبكي .

كان أول لقاء للسلفى ببغداد مع هذا (الشيخ العسر) الذى حرمه الله نعمة الفصاحة ، فخلط فى النطق بين الراء والغين ، كفيلا بأن يحمل الفتى الطموح يرتد عن قصده يائسا من رحمة الله ، بعد وغورة الطريق ، ووعثاء السفر ، ولكن شعوره الرقيق ، وإحساسه بخيبة الآمل فى هذا (الشيخ العسر) ، ودموعه التى ذرفها فيما بينه وبين نفسه ، وغريزة الفروسية التى ورثها عن أجيال بلده ، كل ذلك لم يحل بينه وبين صروح الآمل التى بات يشيدها بخياله الجنح على المدى الواسع البعيد .

فنى بغداد سمع السلفى أيضا من الفقيه الشافعى أبى الحسن الطبرى الكيا الهراسى وكذلك من أعلامها المعاصرين ومنهم: أبو بكر الطريثيثى والنحوى المعروف الفصيحى الاستراباذى مدرس النحو بالمدرسة النظامية ببغداد وهو الخطاط الأديب ، وقد جالسه وروى عنه ، وأبو عبد الله بن اليسرى ، وثابت بن بندار ، وكتب عنهم فى معجم له باسم (المشيخة البغدادية) تمكنا من الاطلاع على صورة شمسية لمخطوطته ، غير أن حسرتنا على فقدان معجم شيوخه الأصفهانيين لاحد لها .

وأخذ السلفى طريقه من بغداد إلى الحجاز لأداء فريضة الحج مع أبيه وبعض أصحابه : فسمع بالكوفة من أبى البقاء المعمر محمد الحبال ، وبمكة من الحسين بن على الطبرى ، وبالمدينة من أبى الفرج القزوينى ، ثم عاد إلى بغداد ، فأخذ الفقه من الكيا الهراسى ، وعلوم اللغة من ابن زكريا التبريزى . وروى عن الامام أبى محمد جعفر بن السراج ، وأبى منصور السيورى الشاعر الأديب ، وسمع من شيوخه

ورفاقه كأبى على البرقانى ، وهزارشت بن عوض ، وأبى عامر العبدرى ، وعبدالملك بن يوسف ، ومحمد الخير الأندلسى ، وكان الحريرى فى حلقته بالبصرة، والناس يسمعون منه المقامات يمليها عليهم ، فلم يعرج عليه السلفى .

وقضى بعد ذلك تسع سنوات ، يتجول فى عديد من البلدان الفارسية ، ففى زنجان سمع من محمد أبى بكر أحمد بن محمد زنجويه ، وفى همدان سمع من غالب أحمد ابن محمد بن محمد المزكى وغيره ، وتجول فى الجبال والمدن ، وتلقى العلوم من علماء الرى ودينور وقزوين وساوه ونهاوند وأذربيجان ودربند ، وعاد إلى آمد وخلاط ونصيبين والرحبة ، وكان تحصيله من علمائها ومعرفته بأحوالها الجغرافية والتاريخية والبشرية يفوق الوصف ، وسجل عنها مذكرات ضافية ، ومنتخبات وفوائد ، تركها عند أصحابه فى سلماس وآمد وديار بكر ، على أمل ظل يداعبه طويلا فى أن تصل إليه ، بعد أن استقر فى الإسكندرية، وهو على غيبتها عنه حزين أشد الحزن ، و« معجم السفر» ملىء بهذه الحسرات، كلما تذكر أصحابه ومجالسه .

فى دمشق

وفى سنة ٥٠٩ وصل السلفى إلى دمشق ، وكثيرا ما كانوا يذكرون له أن أصبهان تشبه دمشق ، وبها جلة كرام من الأعلام ، فماذا يمنع هذا الشاب الجوال من استكمال معرفته بمعالم الثقافة بها ، والاستماع إلى رجالها ونسائها ، وفى جعبته حتى الآن محصلة علمية وافية وعاها من سفر وحج وإقامة طوال سبع سنوات ، هى قليلة فى العدد ، ولكنها عند مجتهد متحمس غيور كالسلفى حافلة بشتى المعارف التى قد يقضى غيره العمر كله ولا يدرك عشر معشارها .

ودخل دمشق وقد ناهز الثلاثين من عمره ، ولم تطل إقامته بها أكثر من عامين ، فسمع من أبى طاهر الحنائى ، وأبى الحسن بن الموازينى وغيرهما ، وكم أبدى ابن عساكر الدمشقى من أسف لأنه لم يظفر بالسماع من السلفى بالشام ، ولكنه سمع بقراءته من شيوخ عدة وأصحاب كثيرين، ثم يمم ساحل الشام حتى وصل إلى (صور) وفيها لقى قلة من العلماء فى فترة قصيرة من الزمن ، ومنها ركب البحر إلى الإسكندرية فدخلها سنة ٥١١ ومن ذلك التاريخ كانت له رحلة أخرى ، دامت نحو خمسة وستين عاما ، رحلة بين الناس والكتب ، لا بين البلاد والأقاليم ، ولم يغادر الإسكندرية إلا فى رحلة علمية قام بها سنة ٥١٥ إلى القاهرة ، حيث قضى ثلاث سنوات، وعاد بعدها مباشرة إلى الإسكندرية التى استطابها ، فتديرها وتزوج منها وجعلها بلد إقامته ، وأراد الله أن تكون مسرحا طويلا عريضا لأخصب فترة من حياته العلمية ، حتى ثوى تحت أطباق ثراها سنة ٥٧٦ .

ولما لم تطل إقامة السلفى بالقاهرة ، فقد استطاع أن يسمع بها من أبى صادق المدينى وغيره ـ كما سنرى ذلك فى حينه ـ ، وتاقت نفسه بعد أن استقر به المقام فى الإسكندرية إلى أن يضع معجمه الثالث لشيوخه ، وضمنه أسماء من تلقى عنهم بعد مشيخة أصبهان ومشيخة بغداد ، وهو «معجم السفر» .

وقد كثر الرواة عن السلفى إلى درجة نادرة ، وروى عنهم كثير غيرهم ، وكلهم علماء ثقات عرفهم العالم الإسلامى فى المشرق والمغرب ، منهم سبطه أبو القاسم عبد الرحمن بن على ، وسعد الخير وعلى بن إبراهيم السرقسطى ، وكذلك أبو العز محمد ابن على اللقابادى ، والطيب بن محمد المروزى ، وروى رواة آخرون عن هؤلاء الثلاثة مثل : الحافظ أبى سعد بن السمعانى ، وهبة الله بن عساكر ، ويحى بن سعدون القرطبى ، ومئات غيرهم سنذكرهم فى فصل الختام إن شاء الله .

وروى عنه جماعة آخرون بالإجازة ، وماتوا وهو على قيد الحياة منهم: القاضى عياض اليحصبى المغربى ، وحماد الحرانى ، والحافظ أبو الحسن المقدسى ، وعبدالغنى وعبد القادر الرهاوى ، والفقيه بهاء الدين بن الجميرى ، والسبط وآخرون ، وآخرهم أبو بكر محمد بن الحسن السفاقسى ابن أخت أبى الحسن المقدسى المتوفى سنة ٦٥٤ ؛ فقد «روى عن السلفى المسلسل بالأولية حضورا ، ولم يكن عنده سواه» ، كما يقول السبكى ، وسنرى أن الآخذين عنه مباشرة وبالإجازة ظلوا نحو مائة سنة وهم يروون عنه .

و هكذا تتميز الرحلة السلفية بالمراحل الثلاث الآتية :

١ ـ مرحلة النشأة الأولى فى أصبهان مابين مولده سنة ٤٧٠ ورحيله عنها سنة ٤٩٣ وفيها تلقى من أبيه ومعاصريه ، وكان نضجه الفكرى فيها قبل الأوان .

٢ ـ مرحلة الأسفار إلى بغداد والكوفة والبصرة ومكة والمدينة وبلاد الفرس ودمشق وصور ، مابين وصوله إلى بغداد سنة ٤٩٣ ووصوله إلى الإسكندرية سنة ٥١١ ، وفيها سمع وأسمع ، وتعلم وعلم ، وهو فى ريعان الشباب .

٣ ـ مرحلة الاستقرار بالإسكندرية من سنة ٥١١ حتى وفاته بها سنة ٥٧٦ ، وقدرها خمسة وستون عاما ، وفيها كان مقصد الوافدين إليه من المشرقين والمغربين ، وبلغ خلالها أوج النضوج الفكرى فأعطى أسخى ما يكون العطاء ، ولاسيما بعد عودته من مصر ، حيث قضى ثلاث سنوات مابين سنة ٥١٥ و سنة ٥١٧ .

وإذا كان الرجل عادة ما يبلغ مرحلة هـذا النضوج فى سن الاربعين ، فإن السلفى ـ كما رأينا ـ قد شذ عن هذه القاعدة ، ولاحت ملامح النجابة مبكرة فيه ، على غير المألوف عند طلاب العلم ، فقد جلس للحديث فى السابعة عشرة ، وكان له سماع

فى الثامنة عشرة ، فما باله وهو يدخل الإسكندرية فى الأربعين ؟

لقد أوتى من بسطة الجسم وقوة احتمال الأجواء المتقلبة ما شجعه على اختراق الآفاق سائحا فى الأرض ، فوضعت له الملائكة أجنحتها وهو يجاهد نفسه فى سبيل العلم ، قانعا بما رزقه الله ، عفيف القلب واللسان واليد ، عزيز النفس ، رافع الجبهة ، لا يتحول عن المثل العليا التى تزود بها من دروسه الإسلامية ، ولا يحيد عنها فى حياته مع نفسه ، وحياته مع الناس ، فهل جاء الإسكندرية ، وماتزال به رغبة فى المزيد من العلم ، أم كفاه ماحصله ليحتل كرسى الأستاذ بها ؟ . . إنما العلم كالبحر الزاخر لا أول له ولا آخر .

ثغر الإسكندرية

لسنا ندرى ولا السلفى نفسه يدرى ، إن كان هذا الشاب الأصبهانى الرحالة النابغة قد وضع لنفسه خطة وبرنامجا لرحلته التى تتبعنا خطاه فيها ، وأغلب الظن أن الأقدار وحدها هى التى ساقته أخيراً إلى الإسكندرية ، عن غير قصد منه أو تدبير سابق ، فلم يكن له أقارب بها أو أصدقاء أو شيوخ سبقوه إليها ، فأغروه بالتحرك نحوهم ليصيبه من خيراتها ما أصابهم .

لقد كان يصح فى الأذهان أن يتخذ السلفى من بغداد أو مكة أو المدينة أو الكوفة أو البصرة أو دمشق دار إقامة له ، وكل منها على مدى القرنين الخامس والسادس عامر بالحضارة والثقافة ، حافل بخزائن المعرفة وفطاحل العلماء ، يقصدها طلاب العلم من كل مكان ويغدق الملوك والسلاطين بسخاء عليهم كوسيلة للدعاية النبيلة لأمجادهم ، بإنشاء المعاهد العلمية وملحقاتها من مكتبات ومدن جامعية ، ومنح للطلاب ومخصصات دائمة ، لكى يتفرغوا للدرس والبحث .

فهل كانت الإسكندرية أكثر أضواء من مدائن الثقافة الإسلامية فى هذا العصر حتى كان اجتذابها للطلاب أقوى وأشد ؟ ولم لا ، وهى ذات الموقع الجغرافى الممتاز على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وهواؤها طيب صيفا وشتاء ، يمر بها وينزل القادمون من بلاد الأندلس والمغرب فى الطريق إلى الحج ، والقادمون بتجارتهم من الشرق إلى أوروبا وإلى المغرب العربى قاصيه ودانيه . .

ثم هى هدف استراتيجى هام ، غزاه القراصنة طمعا فى سلب خيرات الشرق ، وطالما شن المغامرون غاراتهم على ثغرها المحروس ، فصدهم أهلها بكل بسالة ، ونالت على مر الأيام اهتمام الخلفاء والملوك والسلاطين ، فأقاموا أسوارها وشيدوا أبراجها وأبوابها وطهروا خليجها ، وعمروا أساطيلها ومسالحها ومحارسها ، وتخيروا حكامها وولاتها ، وتفقدوا بأنفسهم أحوالها ، وأكرموا شيوخها وعلماءها ، وأنشأوا مساجدها ومدارسها ، وفتحوا للوافدين إليها رباطاتها ، فجاءوها من كل فج عميق ليرابطوا على سواحلها دفاعا عن حومة الإسلام ، تطوعا وتبرعا ، إيمانا بفضل الرباط فى سبيل الله ، ورغبة فى أجر من عمل بالحديث الشريف : « ثلاثة لا ترى أعينهم النار : عين حرست فى سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله ، وعين كفت عن محارم الله » ، أو كما قال .

تلك هى « الإسكندرية العظمى » كما يسميها ياقوت ، ليميزها عن ثلاث عشرة إسكندرية أخرى فى العالم ، كانت عاصمة الديار المصرية منذ أنشأها الإسكندر المقدونى ، إلى أن فتحها عمرو بن العاص سنة ٢٠ هـ - وهو تاريخ مقارب لفتح أصبهان - فانقشع الظلم والظلام اللذان اتسم بها حكم الروم بمصر ، وحكم المجوس بفارس ، وعلى الرغم من انتقال مقر الحكومة الإسلامية العربية من الإسكندرية إلى الفسطاط وأخيرا إلى القاهرة ، فإن منار الإسكندرية لم يزل عاليا ، حقيقة

ومجازا ، وسنرى أن « المدرسة السلفية » ستكون أبعد أصداء من إشعاعات منار الإسكندرية .

ولم تكد تنقضى أربعة قرون على الإسلام فى الإسكندرية ، حتى كانت هذه المدينة العريقة مركزاً هاما للثقافة الإسلامية ، على الرغم من التقلبات السياسية ، التى سادت هذا العصر ، وعمت تلك المنطقة بأسرها ، كما سنرى ذلك بالإسهاب فى موضعه ، وسنرى فى الوقت نفسه السبب المباشر لقدوم السلفى إلى الإسكندرية.

ما بعد الإسكندرية

لاشك أن التحرك الثقافى الذى قام به السلفى كان من أجل طلب الحديث ، وكما كان شائعا فى عصره أن بلاد الحديث التى تشد إليها الرحال ثلاثة هى : بغداد وأصبهان ونيسابور ، وإذن لم تدخل الإسكندرية فى برنامج رحلة السلفى ، فماذا كان يقصد من وراء مسيرته العلمية إلى الإسكندرية ؟ وهل كان يستهدف بلادا أخرى بعدها كالقاهرة والفسطاط وما بعد الديار المصرية ؟ ولماذا ؟

لقد كان للسلفى مجلس علم بأصبهان قبل أن يغادرها ، أى عندما كان فى ريعان شبابه لم يتجاوز الثلاثين ، وكان ممن سمع منه بها ابن يحيى بن عبد الرحمن ابن عبد المنعم بن عبد الله القيسى الدمشقى الأصبهانى ، ودفعه حب الرحلة فى طلب العلم لأن يستوطن غرناطة حيث توفى سنة ٦٠٨ ، وكان من الطلائع الرواة عن السلفى بالأندلس ، ولقد رأينا فى قول الصاحب بن عباد تلك الموجات المهاجرة من أئمة أصبهان وعلمائها إلى خارج البلاد ، والدوافع إليها .

ولم يكن بالسلفى حاجة إلى الترحال : لا للنزهة ولا طلب العيش أو الفرار من اضطهاد، ولكنه كان كما يقول ابن نقطة «جوالا فى الآفاق ، سآلا عن أحوال الرجال» .

وأوجز الدبيثى هذه الرحلة بمفهومنا نحن وهو (التحرك الثقافى) فقد قال عن السلفى:

« حافظ متقن مشهور رحال سمع ببغداد الكثير ، وخرج منها سنة خمسمائة ، وطاف الأقاليم ، ثم سكن الإسكندرية ، وبعد أن جعلها آخر المطاف استطرد قائلا «وعمر وحدث بالكثير ، ورحل إليه من الآفاق» . وقد رأينا تفاصيل هذا التحرك ، ووقفاته عند كل مدينة أخذ فيها ، وأخذوا منه فيها .

وأورد ابن عساكر قدوم السلفى إلى دمشق فى طلب الحديث سنة ٥٠٩ ، وذكر مجالسه بثغر سلماس ، ثم خروجه إلى مصر ، فسمع بها ، ثم استوطنها «وصارت له بها وجاهة» - كما يقول - حتى بنى له ابن السلار مدرسة بالإسكندرية ، وتوقف ابن عساكر عند هذا الحد .

أما ابن الأبار فأكمل هذه الرحلة بعد ابن عساكر دون أن يذكر لنا صاحب هذه التكملة ، الذى قال إن قدوم السلفى الإسكندرية سنة ٥١١ كان لسماع الحديث على عالمها ومحدثها أبى عبد الله بن الحطاب الرازى ، وفى نية السلفى من قدومه هذا أن يخترق بلاد المغرب إلى الأندلس للأخذ عن أصحاب ابن عبد البر القرطبى المالكى الفقيه الحافظ المحدث المتوفى سنة ٤٦٣ هـ صاحب « الاستيعاب فى أسماء الأصحاب » وغيرهم ، فإذا تم له المراد من رب العباد ، عاد إلى بلده أصبهان ، وتلك كانت نيته ، ولكن أهل الإسكندرية شغلوه بالسماع وصرفوه عن أى تفكير آخر فى الانصراف عنهم ، ووجد منهم الصدر الرحب وعندهم الكرم الزائد ، فأقام بها حتى مات الرازى سنة ٥٢٥ ، وقد استوفى المائة ، فكان السلفى خير خليفة له بها ، وهو يومئذ ابن خمس وخمسين سنة - . فطابت له الإقامة ، وتزوج منها بامرأة ثرية صالحة ، وطال عمره كما طال السماع منه والانتفاع به

وإذا كان أمله الذى كان يراوده فى الأخذ عن علماء الأندلس لم يتحقق

فى السفر إليهم فقد كتب هو إليهم من الإسكندرية ومنهم : أبو عمران بن أبى تليد ، وأبو محمد بن عتاب ، وأبو الحسن بن بقى ، وأبو الوليد بن طريف ، وأبو الحسن ابن عفيف ، وأبو القاسم بن صواب ، وعلى رأسهم جميعاً القاضى أبو على ابن سكرة الصدفى السرقسطى ، وكان السلفى يعظم شأنه ، ويعجب من نقاء حديثه ونباهة شيوخه ، وإذا بابن الأبار يضع لنا « المعجم فى أصحاب القاضى أبى على الصدفى » وفى مقدمتهم السلفى الذى شاءت الأقدار أن تأخذ عنه الأندلس ، بعد أن حرمته من أخذه هو عنها ، وتكون له عند أعلامها على مر العصور حرمة وافرة ، سواء فى السماع منه ، حضوراً أو إجازة أو مناولة .

بلاد .. وعلماء

لم نعلم أن أحداً من العلماء قبل السلفى أو بعده طاف ببلاد كثيرة مثله ، أو أخذ عن علماء كثيرين مثله ، ويكفى هنا أن نستخرج أهم هذه البلاد وأشهر العلماء والشعراء الذين لقيهم بها فى رحلاته ، كما صورها بنفسه فى «معجم السفر» ، وكثيرا ما كان يلقى أحدهم فى بلد ثم يلقاه فى غيرها فيما بعد ، أو لا يلقاه ، ويعلق السلفى عنهم كثيرا من المسموعات فيقيدها فى كتبه التى يجعلها مجموعات أو أجزاء ، يودعها أحيانا عند أحد أصحابه على أمل العودة إليها ، وتشاء المقادير ألا يراها إلى الأبد ، ومع ذلك يشير إلى أماكنها والأشخاص المودعة عندهم ، كالأجزاء البغدادية والأجزاء السلماسية وغيرها .

وفيما يلى لمحة خاطفة إلى تلك البلاد التى سمع بها ، والرجال الذين عرفهم هناك من مختلف الجنسيات والميول الثقافية التى عرفوا بها ، قبل دخوله مصر والإسكندرية ، لأننا آثرنا أن نخصص لها فصلا خاصا ، عندما يستقر بالديار المصرية فيما بعد .

أصبهان : القرميسيني وأبو الحسن على بن بادس الكرجي .

الكرج : الكرجي المذكور وأبو محمد شعيب السلماسي الصوفي وابن عيسى القبيني .

همذان : الجنزى المقرىء وأحمد الغزالى أخو أبى حامد الغزالى ، وقاضى همذان أبو المظفر شبيب البروجردى الذى حج مع السلفى سنة ٤٩٨ وكتب عنه السلفى فى « الأجزاء العراقية » ، وأبو شجاع شيرويه بن شهردار بن شيرويه الديلمى . وأبو بكر عبد الله الدندانقانى المروزى . وأبو الحسن على النهاوندى الأشترى الأصفهسلار . ورآه السلفى بالأشتر.وقبلا ببغداد وهو رحالة عالم بالمنازل بين الكوفة ومكة ودخل الشام وخراسان وغزنة.وابن سيف الآملى[1]، ورآه السلفى ببغداد أيضاً . والطوسى وعبد الكريم بن دشمتريار الوفراوندى ، وقد رآه ببغداد سنة ٤٩٩ ، وناصر بن مهدى عبد الله المشطبى الطائى .

نهاوند : أبو فرج بن ورده النهاوندى ، وابن علان النهاوندى

واسط : أبو بكر أحمد بن محمد القادسى. وأبو الحسن صدقة بن عمر بن أحمد القصار المغربى . والقاضى أبو الأزهر بن يعقوب الكنانى رئيس واسط . وابن شيران الحنفى المقرىء

شهرستان : أبو الفتح أحمد بن رشيد الأدمى

ساوة : أم أحمد زليخا بنت إلياس الغزنوية الواعظة المحدثة . وأبو محمد العالم الأديب . وست البلد الرومية ، وابن علان الساوى .

---

(١) آمل التى من أعمال طبرستان .

آمد : أبو منصور سالم بن المظفر العمرانى القاضى ، وأبو الحسن على بن هبة الله القاقى

قزوين : أبو إسحق إبراهيم بن مُمير الخيارجى . وكاسول الأبهرى الصوفى ثم سيلقاه السلفى فى رباط الاسكندرية .

الرز(١): أبو عبد الله صالح النهاوندى .

نيسابور : الفارسى .

زنجان : أبو العباس النووى الأنصارى .

السوس : أبو طالب أحمد بن سوار الأهوازى .

الرى : الرويانى ، والبياضى ، وابن سهلون الرازى(٢) ، وابن شهراشوب النيسابورى ، وأبو الليث المراغى ، وكُار بن ناصر الحدادى الفقيه ، ومحمد بن إسماعيل البخارى ، والعصّارى القزوينى .

الأهواز : أبو محمد راشد المقرىء الاسداباذى ، والأمير أبو نصر رزماشوب ابن زياد الديلمى الأهوازى ، وأبو موسى الجوخانى ، وابن على الرازى .

مرند (٣) : أبو بكر صديق بن وندر الأزدى المرندى الشاعر ، وأبو البركات عبد السلام السلمى الشيرازى ، وقد نزل السلفى عنده بها .

زوند : أبو طاهر على الجرباذقانى .

---

(١) من مضافات همذان .
(٢) نسبة إلى الرى .
(٣) من مدن أذربيجان .

دربند : الفقيه أبو عمرو عثمان بن شاذى الفقاعى ، وعلق عنه السلفى فى أجزاء تركها فى ثغر سلماس .

الحصين (١) : أبو الزلال صفوان بن عطاف الماكسينى .

بالوان (٢) : أبو زرعة عمر الأنصارى .

الدينور : ابن صخر الطوسى . وسيراه فى بغداد ونهاوند وجنزة ، وقد صحبه السلفى مع المتصوفة فى قهستان وأذربيجان وأرانيه ، وعبد الله بن عـلان المعدل وقد نزل السلفى عنده بها .

تستر : الحافظ أبو السمح عبد الله التيمى ، وابن رامك التسترى .

الدون : أبو نصر ظفر الدونى ، وأخوه أبو محمد الدونى شيخ السلفى ، والإمام أبو محمد عبد الرحمن بن وشنه الدونى المتصوف .

سلماس (٣) : أبو محمد عبدالله الطنطلى ، ونعمة الله بن عمر بن أبى الحسن رئيس سلماس ، وكان السلفى يأنس له طول مدة إقامته بها ، وقرأ عليه كثيراً من الأجزاء التى تركها هناك عند سفره منها إلى ديار بكر .

القصر (٤) : أبو عمرو عثمان البيروتى .

ماردين : أبو الحسن على الآمدى .

---

(١) على نهر الخابور .

(٢) من أعمال الدينور .

(٣) من أعمال أذربيجان .

(٤) من أعمال خوزستان ،

ميّافارقين : أبو الحسن على الفارقى الشروطى ، وكتب عنه السلفى فى الأجزاء التى أودعها ثغر آمد مع فوائد ديار بكر .

شرْوان : ابن على المفضض ويسميه السلفى باللجينى ، واختار من أجزائه جزءاً أودعه كتبه التى تركها فى سلماس .

وقد جمع المفضض أخبار الحسين بن منصور الحلاج ورواها للسلفى ببغداد بعضُ من سمعها عنه ، وأراد السلفى أن يجتمع بالحلاج شخصياً فى شروان ، وسمعها منه وعلق عليها « بعدم الثقة فى رواته المجاهيل » .

قرميسين : أبو على الحرانى .

سهرورد : ابن حماد الكاتب المنعوت بالكافى لنفسه .

اللولتين : ابن موسى القاضى .

أبهر : ابن أبى حماد الأسدى ، والقاضى عبد الغفار الرازى شيخ الصوفية ، والقاضى نصر السروى ، كتب عنه السلفى فى الأجزاء التى جمعها بأذربيجان وأرمينية وشروان وأودعها ثغر سلماس .

عرابان وقنا (١) : أبو موسى عطيه القنوى .

الفاروت (٢) : ابن سنبر الشيبانى، وسيراه السلفى فى بغداد .

المعافر : على بن الحسن المذكر .

نصيبين : المنيحى .

---

(١) من أعمال سنجار .

(٢) تحت واسط بسبع فراسخ .

عسكر مكرم : أبو سعد المبارك الديباجى .

ثغر نشوى : المفرج بن أبى عبد الله النشوى .

ثغر حانى : المباركة بنت أبى الحسن الحنبلى ، انتخب السلفى من فوائدها فى الأجزاء التى أودعها مدينة آمد .

الدُّونَق : ابن الحسن الدونقى .

النعمانية : الجرجرانى المقرئ .

بَرْوَج (١) : أبو عبد الله الأسعردى .

مزدقان :

مكة : أبو القاسم عبدالله البغدادى . وأبو التمام غالب الأنصارى الأندلسى . وسيجد له السلفى بالإسكندرية أجزاء كثيرة بخطه . والطبرى والهمدانى الزكى . وقد قرأ عليه أيضاً بالمدينة .

بغداد (٢) : أم الفضل رابعة بنت أبى حليم عبد الله بن إبراهيم الخَبْرى . وابنها العالم الأديب أبو الفضل محمد . وست البلد الرومية . والنيسابورى . وأبو القاسم المهنى وهو من أقران السلفى فى السن وحج معه، وسمع معه بمكة والكوفة وجزة وأذربيجان . وست الأهل بنت على الباحمشى العكبرى وشهرتها الهادرة . وأبو المعالى عبد الله الحلوانى المروزى . وأبو الحسن عبد الودود النحوى المغربى . وكريمة بنت أبى بكر الدقاق الحافظ، وهى محدثة سمعت من شيوخ

---

(١) من بلاد الهند .

(٢) راجع أيضاً « المشيخة البغدادية » للسلفى (مخطوط) .

السلفى . وعبد الرحمن بن حسان البوصيرى ، وسمع السلفى من ابنته مريم بالإسكندرية وهى امرأة كبيرةالسن صالحة وكتب السلفى عن أبيها . وأبو زكريا يحيى بن أبى ملول بن عشيرة الزناتى وافترق هو والسلفى إلى أن لقيه بالإسكندرية ودرس بها وتزهد وأفتى مدة إقامته بها ، وله رحلة إلى الحجاز واليمن والعراق . وأبو منصور يلتكين (ابن البوق) وهو من أتراك مصر ، وكان يحضر على السلفى ببغداد ، وكان تاجراً بعد أن كان جندياً ، وسمع من السلفى بالإسكندرية ، ومات بها سنة ٥١٢ هـ

الكوفة : الخزرجى الجابرى . وأبو الحسن على بن الرطاب المقرىء . وابن قنين العبدى . وابن الجليل القرشى . وابن على الحال البرمكى ، ثم لقيه فى بغداد . وأبو زكريا يحيى بن محمد القلالى . وابن حمزة الثقفى .

البصرة : ابن حفص المعدل ، وابن غفيل العامرى .

دمشق : دريع بن كامل البابى . وأبو طاهر شبل الحارثى السراج وقد انقطع للسلفى عند دخوله دمشق وفارقه عندما غادرها سنة ٥١١ . وأبو إبراهيم شعيب الواغرى الفرغانى . وأبو حفص عمر بن هرون الخجندى . والتقيا معا ببغداد . وأبو المكارم عبدالله الشيبانى قاضى بعلبك . وأبو محمد عبد الله بن النقار الحيرى . وأبو محمد بن كالويه المروزى . وأبو بكر عبد الله بن ثنية المقرىء . وابن سرخ الكازرونى . وأبو الحسن على الكاتب القصرى . وأبو طالب على بن أبى عقيل الصورى . وابن إبراهيم القروشى للخشوعى . والطائى . وابن هبة الله الموصلى الواعظ الشهير بالحنيك . وأبو محمد الديبلى المقرىء . وأبو القاسم الغازى بن عمار ابن عبد الله المقدسى . وأبو البركات كتائب السلمى الجانى الحنيفى . وقد دخل أصبهان وسمع بها وكتب عنه السلفى عندما دخلها .

خلاط : أبو الحسن على الآمدى النحوى الفقيه :

الرحبة[١] : ابن سهل الغزنوى الذى تفقه مع السلفى ببغداد ، وكتب إليه السلفى قصيدة يذكره فيها بما كان بينهما من ود أيام طلب العلم ببغداد .

تدمر : أبو المسيب وهيب بن مترّف بن مهيوف التميمى « وإنما كتبت عنه لغرابة اسمه والموضع كذلك » [٢] .

النخلة : وصية بن عبدالله البكرى . سمع السلفى منه شعره، فقيده ولكنه سرق منه وهو فى (منى) مع ملابسه ولم يلتقيا .

صور : أبو محمد عبد الجليل بن المسلم الحيقى المتكلم الأشعرى وكان يسكن تنيس ، وكان يحضر عند السلفى ، وهو فى صور ، لسماع الحديث .

---

(١) وهى رحبة مالك بن طوق بالشام .

(٢) معجم السفر : السلفى .

(٣)

السلفى .. على الطبيعة

« وكان حافظ الحديث ، وعالما به ،
سافر فى طلب الكثير » .

— ابن الأثير —

أقرب المسالك

لم تعد دراسة الشخصيات العلمية مجرد نبش للقبور ، واستخراج توابيت الموتى وعرضها فى دواليب من زجاج يتسلى برؤيتها الأحياء ، وما كان ذلك ليكون إحياء لأمجاد السابقين بحال من الأحوال ، وليس فيه مطلقا أى أثر من الوفاء لذكرياتهم ، من حيث نريد تمجيدهم والاحتفاء بأعمالهم ، التى أثروا بها التراث القومى ، وهو الشغل الشاغل لكل أمة عريقة .

وإنما تكتمل الدراسة حقا وتفى بالمطلوب ، إذا أمكننا أن نعتبر هذه الأعمال — بعد طول عهدنا بها — كائنا حيا لايزال ينبض فى موقعه الصحيح من المكان والزمان ، بين الأرض والسماء ، وهذا هو البعث الحق ، الذى به نعيد إلى الشخصية المدروسة عناصر وجودها فى بيئتها الأولى ، لمعايشة أحداثها من جديد : تأخذ منها وتعطى ، تؤثر فيها وتتأثر بها ، تتحرك فى محيط أبعادها ، كيلا تبقى جثة محنطة فى متحف يزار .

نحن إذن بصدد عملية (خلق) لا (تأليف) ، وشتان بينهما ، نحن نحدد تاريخ الولادة والوفاة ، ونحشد كل طاقاتنا للبحث عن الفترة المحصورة بينهما ، من خلال المراجع التى بين أيدينا ، ونحاول تقويم المعوج وتصحيح الخطأ ، فى حدود خبرة وافية بمجريات الحياة عبر القرون ، ومن غير افتئات على منطق المعقول ، وعندى أن الدارس المخلص المؤمن بعلم (الأنتروبولوجيا) هو الذى لا يقنع بمعطيات المادة التاريخية ، وإنما يسبغ عليها الحياة التى كانت تحياها فى عصرها وعلى أرضها ، أى يرد إليها أنفاسها من جديد ، ويتابعها فى حركاتها وسكناتها من المهد إلى اللحد ، متمشيا مع كافة الروافد التى أسهمت فى خلق مجرى

حياتها العلمية ، بالسلب أو بالإيجاب ، ذلك أن الإنسان جزء من التاريخ ، لا ينفصل عنه ، ولا يمكن أن يستغنى عنه ، أو يخرج عن نطاقه ، ومن هذا المنطلق نعاهد القارىء على أن نعرض لشخصية السلفى . . على الطبيعة . . ومع التاريخ خطوة خطوة . . وعلى الرغم من صعوبة هذا النهج، إلا أنه أقرب المسالك إلى الهدف .

وقبل أن نقوم بإجراء مسح شامل للعالم الإسلامى فى العصر الذى ظهر فيه الحافظ السلفى، نرى أن من الضرورى اقتباس نظام «الخريطة المضيئة» ، فى تحقيق المنهج الذى ألزمنا به أنفسنا أمام القارىء ، وكلنا يعلم أن كل مدينة كبرى فى العالم الحديث ، تضع فى ميادينها ومحطاتها التى فى أنفاقها خرائط مضيئة كدليل أو مرشد لكل من يريد الوصول إلى مكان لا يعرف كيف يتجه إليه ، فما عليه إلا أن يضغط على زر يحمل اسم المكان المقصود فما تلبث الخريطة أن تضاء بالكهرباء ، فيرى عليها خط السير ، والمواصلة التى يسلكها وأسماء المحطات التى سيمر بها ، ونحن بدورنا سنسلك مع القارىء أسلوب الخريطة المضيئة ، لنتعرف على أبعاد الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية ، كلما ضغطنا على أزرار أصبهان وبغداد ودمشق وأخيرا الإسكندرية ، فلنبـــدأ إذن بالمسح الشامل العاجل لنحصل على دقائق وتفاصيل الخريطة المضيئة التى هى الوسيلة الوحيدة للتعرف على مقومات الثقافة السلفية، والعناصر الخفية التى تكمن وراء مخلفاته الفكرية ، وإلى أى مدى من الأصالة كانت مكانته فى تراثنا الإسلامى ، بما أضافه إليه من جديد ، ظل الانتفاع به بارزا وملحوظا فى مختلف الأجيال التى جاءت بعده ، على أوسع نطاق فى العالم الإسلامى .

وسبق أن عرفنا أن سنة ٤٧٠ هـ كانت سنة ميلاد السلفى ، وهى ساعة الصفر ـ باللغة العسكرية ـ للانطلاق عبر المكان والزمان ، حتى توفى بالإسكندرية سنة ٥٧٦هـ .

ولكن الشخصية التى بين أيدينا ، لايمكن أن تتخذ سنة مولدها بداية البحث ، ولا سنة الوفاة نهاية له ، فهناك عوامل شتى كان لها تأثيرها فى الجنين قبل أن يولد ، لا بسنة ولا بسنوات ، ولا خمسات ولا عشرات ، وبالتأمل فى تتابع الأحداث يتبين لنا جليا أن الربع الأخير من القرن الخامس ، قد انحدرت إليه مؤثرات ترجع إلى الربع الأول من القرن الرابع ، وعلى ذلك، وفى ضوء ذلك ، سنبدأ المسح التاريخى ، الذى سنجعله عن عمد شاملا وعاجلا .

من المحيط إلى المحيط

عندما بزغ نور الإسلام على الارض من الجزيرة العربية ، بدأت أكبر دولتين فى العالم كله تتصدع أركانهما وهما : الفرس والروم ، وانتصر الإسلام بمبادىء السلام ، والجهاد فى سبيله ، وعلت راياته التى سايرت مواكب فتوحاته ، بعد أن لقى محمد عليه السلام ربه وهو عنه راض ، وسار الخلفاء الراشدون فى الامصار على هذه الرسالة الخالدة التى لايملكون لها بديلا أو عنها تحويلا ، وجاءت دول الخلافة ، فنقلت معها عاصمة الإسلام من المدينة إلى الكوفة إلى دمشق إلى بغداد إلى القاهرة ، تباعا مع بنى أمية والعباسيين ثم الفاطميين ، فالأيوبيين ، وعندهم سنتوقف بالبحث، لأن السلفى عاش فى أكناف الدولتين الفاطمية والأيوبية ، وهما الدولتان الوارثتان للدولة العباسية التى كانت تمتد من المحيط إلى المحيط .

كانت الدولة العباسية ـ ومذهبها السنة الشريفة ـ قد بسطت نفوذها من بغداد إلى المشرق والمغرب ، ومنها يمتد حكم الخليفة العباسى على الولاة فى كل مكان ، حاملين شعار الدولة ، وعلى الرغم من اتساع رقعة الخلافة فإن كل مصر من الامصار كان يتأثر بكل ما يجرى حوله من التيارات السياسية التى كانت تحيط

بكل توابع الدولة تحت راية الحكم ، وتجمع رعاياها تحت راية العلم ، وأصبح المؤرخون حينما يذكرون سنة من السنين ، لا يتحدثون عن بلد مستقل ، أو عالم منقطع فيه عما وراءه ، بل تجمع هذه السنة أخبار الخليفة فى العاصمة وأحداثها وما جد فى غيرها ، ووفيات الأعلام بها وبغيرها فى آن واحد ، كما نلحظ ذلك فى متجددات السنين عند ابن الأثير ، فى « الكامل » وابن كثير فى « البداية والنهاية » وابن واصل فى « مفرج الكروب » وابن تغرى بردى فى « النجوم الزاهرة » وأبى شامة فى « الروضتين » وغيرهم من بعدهم ، فمثلا يذكر ابن تغرى بردى سنة ما فيقول : السنة الأربعون من خلافة المستنصر الفاطمى بالقاهرة ، ويطوف بكل أحوال البلاد والعباد فى هذه السنة فى جميع أرجاء العالم الإسلامى . .

ويدب الضعف شيئا فشيئا فى خلافة بنى العباس ، ويستقل كل وال بولايته ، وقد يتوسع على حساب جيرانه الضعاف ، فتتكون إمارات فى الموصل وأنطاكية والرها وحلب ودمشق والقدس ، من غير حدود فاصلة بينها .

ومن أقصى المغرب الإسلامى يمتد تيار مضاد جارف يأتى فى طريقه على كل نفوذ للعباسيين ، وتبرز على وجه التاريخ دولة جديدة فى مصر ، وتؤسس بها (القاهرة) عاصمة للعالم الإسلامى تتحدى بغداد ، وتتناطح الخلافتان ، ويتصارع المذهبان : خلافة لا تنتسب إلى رجل أو جماعة ، وإنما إلى سيدة جليلة ، لها مكانتها من الرسالة المحمدية ، وهى زوج الإمام علىّ آخر الخلفاء الراشدين ، وأم شهداء كربلاء ، وهل هناك شرف أسمى من أن تنتسب (الدولة الفاطمية) إلى (فاطمة الزهراء) بنت رسول الله محمد عليه السلام ومن اسمها الشريف اشتق اسم أكبر جامعة لتدريس علوم الإسلام ، على المذهب الشيعى وهو (الجامع الأزهر) .

ويتوالى الخلفاء الفاطميون — أو المصريون كما كانوا يسمونهم أحيانا — وتنتشر دعوتهم ، ويشتد أزر دعاتهم ، وتتوطد أركان ولاتهم ، ومن فوق المآذن ، تسمع إضافة لم يعرفها المسلمون من قبل للأذان ، وهى (حى على خير العمل) ، وينقطع الدعاء من فوق المنابر لخلفاء بنى العباس ، فور قدوم المعز لدين الله الفاطمى سنة ٣٦٢ هـ ، وتنصيبه خليفة بعد تأسيس القاهرة .

ومن هذا التاريخ وبغداد لاتصبح ولاتمسى إلا على فوهة بركان ، والناس فى المشرق والمغرب ضحايا للخلاف المذهبى بين التسنن والتشيع ، ولا يكاد يمر يوم على بغـــداد العباسية السنية إلا وتجتاحها الحـــرائق وحالات السلب والنهب ، والمجاعات والصواعق ، والزلازل والطوفانات وتخريب القصور والمدارس ، والفتك والغدر ، وتنفتح أبواب الرشوة والنفاق على مصاريعها أمام المغامرين اللاعبين بالنار ، عشاق السلطة والصولجان .

ومن (الأحساء) — على الخليج العربى — يتحرك القرامطة ، وينضم إلى بدعتهم عرب من الشـام ، أخـذوا يزحفون إلى مصر ويعيثون فيها فساداً ، ويردهم المعز لدين الله على أعقابهم ويمنحهم الأصفر الرنان ، ليأمن شرورهم وغوائلهم ، وهم يرحبون بما قد ظفروا به ، ولكن الذهب لم يلبث أن انطفأ بريقه ، وتبين لهم أنه خدعهم بأموال زائفة ، وقد اشتهر المغاربة بطلاء المعادن بما يشبه الذهب الذى يطمع فيه كل مغامر ، ولم يكتف المعز بذلك ، بل أرسل فى إثرهم عشرة آلاف فارس استردوا دمشق من أيديهم .

وفى كلمة واحدة : لم يكد ينقضى القرن الرابع حتى كانت الدولة الفاطمية قد فرضت إرادتها على دمشق وحلب ومكة والمدينة والموصل وما وراء النهرين ، بينما تنحسر الموجة العباسية عن بغداد ، تحت ضربات تشتد وتشتد على امتداد مائة سنة أخرى ، بزغ فى الثلث الأخير منها نجم أحمد السلفى بأصبهان .

. . وأطل القرن الخامس

وأطل القرن الخامس بالفتن والمآسى التى اشتد أوارها واضطربت مراجلها فى بغداد ، ولم تقف المجازر المتبادلة بين السنة والشيعة عند حد ، وبالأموال والهدايا استطاع الفواطم أن يكسبوا من العراق إلى صفوفهم صنائع يدعون بدعوتهم ، وساعدهم على ذلك بقاء الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، فى الخلافة ستين سنة ، ثم تظهر دولة السلاجقة سنة ٤٢٩ ، ويستولى ملكهم طغرلبك على جرجان وطبرستان وخوارزم ودهستان وكرمان وقزوين وبلاد الجبل بما فيها أصبهان ، وينتزع حلب من المصريين ، ثم يستردونها منه ، وفى سنة ٤٥٤ يشق ابن باديس صاحب المغرب عصا الطاعة على الفواطم ويخطب للعباسيين ، وتدين بلاد المغرب بالولاء لبغداد ، مع ما تعانيه من بلايا ورزايا ، وتنقضى دولة بنى بويه ، بعد ١١٠ سنة بينما يبعث المستنصر بالله جيشاً من مصر لتأديب الخارجين عليه بالمغرب ، كما يقطع أهل الحجاز — من فوق المنابر — دعاءهم للخليفة الفاطمى سنة ٤٦٢ ، ويعيدونها للعباسيين .

ولما أحس المستنصر بانحسار نفوذه فى الأمصار استدعى بدر الجمالى الأرمنى من الشام وولاه الوزارة ولقبه أمير الجيوش ، ويشهد هذا القرن مغامرة البساسيرى — التركى الأصل — الذى الشق على العباسيين ، واحتدم الصراع بين الترك والديلم ، فاستعان البساسيرى بالخليفة المستنصر بالله الفاطمى ، فمنحه ولاية الرحبة ، وهابه العرب والعجم جميعاً ، واستنجد الخليفة العباسى بالسلاجقة ، لنسف مؤامرة البساسيرى ، فدخل طغرلبك بغداد ، وتزوج من أخت الخليفة ، فتفانى فى خدمته وأظهر براعته فى طرد البساسيرى منها ، بعد أن دخلها سنة ٤٥٠ ، رافعاً أعلام الرافضة الفاطميين المصريين ، وفى هذا يقول الذهبى :

« كان القحط الشديد بديار مصر ، والوباء المفرط ، وكانت العراق تموج بالفتن والخوف والنهب والسلب من عسكر طغرلبك ومن الأعراب ومن البساسيرى ، وخطب بالكوفة وواسط والموصل للمستنصر المصرى ، وفرحت الرافضة بذلك ، واستفحل أمر البساسيرى ، وجاءت الخلع والتقليد من مصر له ولقريش صاحب الموصل ، ولدبيس صاحب الفرات وأقاموا شعار الرفض (أى الشيعة) »[1]

وبعد أن ظلت سطوة الفاطميين قائمة فى الشام زهاء ١٦٠ سنة ، خرجت البلاد الشامية من أيديهم سنة ٤٦٨ ، بينما كان صاحب حلب قد اتخذ موقف الحياد من المعسكرين المصرى والعباسى ، لأن حلب عرضة لأى خطر من هنا أو من هناك ، وأوقف الملك الخوارزمى الدعاء الشيعى (حى على خير العمل) ، وأعاد الخطبة للمقتدى بالله الخليفة العباسى ، وأبطل ما كان مكتوباً - على عهد الفاطميين - من لعن الصحابة على جدران المساجد ، واشتد أزر الخوارزمى ، عندما استعان بالسلاجقة فى محو آثار الشيعة سنة ٤٧١ ، حيث كان التاريخ قد سجل مولد الحافظ السلفى بأصبهان ، وهى يومئذ فى قبضة السلاجقة ، وبها من علماء الإسلام المشاهير عدد كبير ، لهم مؤلفاتهم فى اللغة والحديث والفقه والبلدانيات ، وكلهم توفى إلى رحمة الله ، بعد عمر طويل على نحو ظاهر ، ولعل السلفى — وهو يومئذ طفل صغير — لم يدرك أحداً منهم كالنيسابورى وابن منده وابن ماكولا .

فى هذا الخضم المتلاطم من الصراع بين الترك والديلم ، وبين السنة والشيعة ، وبين الأشاعرة والمعتزلة ، تظهر الدولة الخوارزمية فى خراسان سنة ٤٩٠ هـ ، وبعد سنتين يطمع الصليبيون الأوربيون فى العالم الإسلامى فيغزون (بيت المقدس) ،

---

(١) العبر فى خبر من عبر : الذهبى : حـ ٣ ص ٢١٥

وكان السلفي قد خرج من أصبهان إلى بغداد سنة ٤٣٩ ، وتكون أصبهان - مسقط رأسه - مسرحا لحوادث دامية بين السلطان بركياروق وأخيه محمد لعدة سنوات ، ويكون الفتك بالشيعة الذين بها على أشده ، بينما الغزو الإفرنجي يجتاح الشام بلدا بلدا ، ومع ذلك يواصل السلفي رحلته من دمشق إلى صور إلى الإسكندرية .

إذ ذاك كانت الشام في قبضة الدولة النورية ، دولة نور الدين محمود زنكي ، ومذهبها سني ، وشاءت الأقدار أن يخدم الشاب الكردي صلاح الدين هذه الدولة ، وسيكون على يديه جمع شمل العالم الإسلامي المبعثر الأشلاء ، وتكون الوحدة بين مصر والشام ، سبيل الجهاد لتحرير الأرض المقدسة من براثن الصليبيين ، في ظل دولة مجاهدة سنية معتدلة هي الدولة الأيوبية التي أسسها صلاح الدين الأيوبي ، وقد عاش السلفي في عصره الذهبي بالإسكندرية ، ونال تقديره بها ، حتى لقي ربه سنة ٥٧٦ هـ .

إذن كان تيار القرن الخامس عنيفا ، لأنه بلغ أقصى مدى العنف الذي بدأ مع القرن الذي قبله ، ثم كان القرن السادس تصحيحا للأخطاء الجسام التي ترسبت في أعماق البيئة التي نشأ فيها السلفي ، حيث قام صلاح الدين برفع أعلام السنة ، ومحو آثار الشيعة ، بوفاة آخر عنقود من خلفائها وهو العاضد بالله سنة ٥٦٧ ، وقيام الدولة الأيوبية ، بينما بقيت الدولة العباسية على حالها ، وليس لها غير الاسم ، على الرغم من انقطاع الخطبة لخلفائها بمصر ، في الفترة الطويلة ما بين سنة ٣٥٨ وسنة ٥٦٧ هـ وإلى أن قضى على التتار بغزو بغـــداد سنة ٦٥٦ ، بعد ٥٢٤ سنة من الزمان ، وعاصرتها الدولة الفاطمية من ٢٩٧ طوال ثلثمائة سنة ، وارتفعت خلالها رايات الفواطم ، المصريين في الأندلس والمغرب ومصر والشام ومكة والمدينة وبغداد والموصل والكوفة والبصرة وأصبهان وخراسان .

ومع هذا النفوذ الواسع فى الزمان والمكان ، نالت من التجريح والتشنيع مالم تنله دولة غيرها ، ولم تكن مظاهر حضارتها فى القصور والمنشآت والمعاهد والمساجد لتحول دون انقراضها ، فاقتلع خصومها - من أهل السنة والجماعة والسلف الصالح والأشاعرة - الصفائح التى كانوا قد ثبتوها على باب الكعبة (١) ، تحمل اسم الخليفة الفاطمى ، وحل محلها اسم الخليفة العباسى من جديد .

ثم انقضت تلك السنون وأهلها . فكأنها وكأنهم أحلام

وتصدى ابن واصل لنقد الدولة الفاطمية نقداً لاذعاً (٢) وقال إنهم أدعياء ، لا حظ لهم فى النسب الهاشمى ، وأن دعوتهم باطنية إسماعيلية رافضة ، ومنهم انتشر فى الآفاق دعاة الملاحدة الباطنية ، وأن عقيدتهم فى الإمامة - بعد النبى عليه السلام - لعلى بن أبى طالب ، ثم للحسن والحسين ، وخالفوا الزيدية والاثنى عشرية ، حتى آلت الإمامة إلى المعز لدين الله ، مؤسس الدولة الفاطمية أو المصرية الشيعية ، ومقرها القاهرة ، وقال فيهم أحد الشعراء :

زنادقة شيعية باطنية مجوس وما فى الصالحين لهم أصل

وكذلك ابن تغرى بردى(٣) الذى سلق دولة الفواطم بألسنة حداد ، فنسبهم إلى اليهود والمجوس والملاحدة والباطنية والعبيدية ، وسميت العبيدية لأن والد عبيد من نسل القداح المجوسى الملحد ، وقيل إنه كان يهوديا ، ودامت دولتهم من زمن المهدى بالمغرب من سنة ٢٩٩ حتى سنة ٥٦٧ هـ .

---

(١) البداية والنهاية : ابن كثير .
(٢) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب : ابن واصل .
(٣) النجوم الزاهرة : ابن تغرى بردى .

وإذن فقد آن الأوان لهـذه المراجل أن يهدأ أوارها ، وتنطفىء نيرانهـا ، وكيف يكون ذلك ، والصليبيون قد احتلوا الأراضى المقدسة بالشام ، وطمعوا فى مصر ، وأمعنوا فى البلاد سلبا ونهبا ، وقتلا وتشريدا ، فنهضت (الدولةالنورية) بالشـام لتتحمل مسئولياتهـا التـاريخية ، وتصد باسم الإسلام غزوات القراصنة الأوروبيين للشرق ، ويكون السلفى قد استقر فى الإسكندرية أكبر ثغور الشرق ، ومعقل الفكر الإسلامى فى ذلك الوقت ، وملتقى المشارقة والمغاربة ، وإذن فقد عاش الرجل فى كنف الدولتين الكبيرتين الفاطمية والأيوبية ، وشهد نضـال صلاح الدين الأيوبى فى بدايته ، عندما وحد بين مصر والشـام ، كعمل طليعى لسحق غارات الصليبيين ، ونسف الخلافات المذهبية بين المسلمين .

أضواء على أصبهان

والآن ننتقل مع السلفى فى كل مكان حل به ، ولنضغط على أزرار الخريطة المضيئة ، ابتداء من أصبهان وانتهاء بالإسكندرية ، وسنرى فيما سنرى أهمية المناخ الذى نشأت فيه مدارك هذا الفتى ونمت ، سواء من عوامل الطبيعة ، أو تقلبات السياسة ، أو معـالم الثقافة . وهانحن معه من بداية الطريق ، من أصبهـان وستكشف لنـا الأضواء ما كان خافيا علينـا من حياته فيما بين ٤٧٠ و ٤٩٣ هـ ، والروافد الثقـافية التى أمدت بحره الزخار بمواهبه الفكرية التى بز بها كل عالم من قبله ومن بعده .

فتح السلفى عينيه ، فإذا به من مواليد جرواآن وهى محلة كبيرة من أصبهان التى كانت يومئذ تحت حكم ملك السلاجقة السلطان ملكشاه ، ووزيره نظام الملك قوام الدين الطوسى ، وقد نالت أصبهان وبغداد من عنايتهما ورعايتهما الكثير ، قبل

أن يولد السلفى ، أما بغداد فقد أنشأ بها نظام الملك مدرسة كبرى سميت باسمه (النظامية) ، وذلك سنة ٤٥٧ ، وبدأت الدراسة بها سنة ٤٥٩ ، واستدعى للتدريس بها الإمام أبا إسحق الشيرازى ، وكان من عادة هذا الوزير أن يستدعى معلميها من فارس وغيرها ، مثل الدبوسى والغزالى ، ولم يكتف بإنشاء (المدرسة النظامية) ببغداد فأنشأ بنفس الاسم مدرسة أخرى فى (نيسابور) أى فى بعض الأمصار التابعة للدولة السلجوقية ، التى اتسعت — بعد خروج ملكشاه سنة ٤٨٥ من أصبهان لغزو بغداد ، وخلع المقتدى بالله العباسى من الخلافة — فشملت ماوراء النهر وماوراء نهر جيحون ، وبلادالروم والجزيرة والشام والقسطنطينية وبلاد الخزر والهند ، ومات ملكشاه مسموما ، فحملوا تابوته إلى أصبهان حيث كان مدفنه ، وخلفه ابنه الأكبر : ركن الدولة بركياروق ، وما لبث وزيره نظام الملك أن لحق به ، إذ امتدت إليه يد غلام من الديلم بخنجر غادر وهو فى طريقه إلى بغداد ، بعد أن قضى فى وزارة السلاجقة نحو أربعين عاما ، وكان شغوفا بسماع الحديث ، عالى الهمة ، وافر العقل ، محبا للعلماء والصلحاء .

كان ذلك سنة ٤٨٥ ، وهو حادث أليم هز أرجاء أصبهان وبغداد ، وتأثر به الصغار والكبار ، العلماء والمتعلمون على السواء ، وأدركه السلفى ووعاه ، قال الراوى عن السلفى ، وهو الحافظ عبد الغنى : سمعته يقول : « أنا أذكر قتل نظام الملك فى سنة ٤٨٥ وكان عمرى نحو عشرين سنة [١] » . ويقال إنه كان ابن عشر سنين إذ ذاك [٢] ، ومهما يكن من أمر الخلاف هنا فالأرجح أن السلفى قد ولد سنة ٤٧٠ ، والثابت عن المؤرخين الثقات أن نظام الملك قد مات شهيدا فى هذا

(١) الطبقات الكبرى : السبكى .

(٢) البداية والنهاية : ابن كثير .

الحادث سنة ٤٨٥ ، والمهم أن السلفى قد أدرك هذا المصاب الفادح ، الذى جرى لوزير خطير ، بكى عليه العلماء قبل غيرهم واضطربت لمصرعه أحوال العباد فى أصبهان وبغداد جميعا .

وتولى الوزارة من بعده تاج الملك أبو الغنائم ، فسار على نهج نظام الملك ، وأنشأ مدرسة باسمه هى (المدرسة التاجية) لتخليد ذكراه ، كما خلدت (المدرسة النظامية) ذكرى نظام الملك ، وبهما علا صيت بغداد ونيسابور .

أما أصبهان فكانت يومئذ مركز إشعاع ثقافى ، ينبض بالحيوية والصراع الفكرى العنيف ، فيها أهل السنة والمعتزلة والأشاعرة والإسماعيلية النزارية ، فيها دعاة للعباسيين العراقيين ودعاة للفاطميين المصريين : هؤلاء شيعية باطنية ، وأولئك سنية معتدلون ، وكذلك منهم غلاة الحنابلة وغلاة الرافضة ، ومعهم جميعا يهود ، يحرضون عند اللزوم ، ليعيشوا فى جو الفتن التى لا بقاء لهم إلا فى مناخها .

وإذا سلطنا بعض الأضواء على إحدى الحقائق التاريخية الواردة ، تبين لنا أن الوزير نظام الملك كان يعقد مجالس العلماء فى أصبهان ، ودخل عليه فى أحد مجالسه ذات يوم شيخ المعتزلة عبد السلام القزوينى (١) ، وعنده بعض العلماء ، فقال له : أيها الصدر قد اجتمع عندك رءوس أهل النار ، فقال له نظام الملك : وكيف كان ذلك ؟ فقال : أنا معتزلى ، وهذا مشبّه ، وذلك أشعرى ، وبعضنا يكفر بعضا . فضحك الوزير .

---

(١) رحل إلى مصر وأقام بها ٤٠ سنة ومات بأصبهان سنة ٤٨٨ هـ .

ولقد رأينا فيما كتبه ابن ميسر فى « تاريخ مصر » ، كيف أن زعيم الإسماعيلية الحسن الصباح قد رحل إلى المستنصر بالله بالقاهرة ، ودرس المذهب الشيعى ، ووقف على أسرار الباطنية [1] ، وعاد إلى أصبهان ، فنشر بها المذهب المعروف بالنزارية ، ثم نشره فى حلب وبغداد وخوزستان ، كما أن السلاجقة قد دانوا بالولاء للدولة الفاطمية ، ورفعوا الألوية المصرية ونادوا بشعار (حى على خير العمل) سنة ٤٨٩ ، وما لبثوا سنة ٤٩٤ أن نكلوا بالباطنية فى أصبهان ، وصادروا أموالهم ، وصارت أصبهان سنة ٤٩٦ مسرح الفتنة بين بركياروق وأخيه محمد ، بينما الصليبيون يستولون على (بيت المقدس) الذى كان بأيدى المسلمين خمسة قرون طوال ، منذ العام السادس للهجرة ، ويحاول الخليفة الفاطمى أن يصدهم . فيبعث إليهم بجيش قوامه عشرون ألفا ، فيرتد مهزوما ، وتثور الحمية فى النفوس ، مما أذاعه الشعراء فى كل مكان ، للحث على استرداد مقدسات الإسلام فى الشام .

إذن فقد جاوز السلفى ـ وهو لا يزال فى أصبهان ـ العشرين من عمره ، وأصبح يتنفس فى جو خانق ، من الصعب على موهوب ناضج مثله أن يعيش فيه ، وكيف يبقى هو ، بينما سبقه إلى الهجرة من بلده من هم أكبر منه سنا ، وأكثر علما وإمامة .

الملوك والوزراء يتهاوون صرعى بالسم والغدر ، مع ما لهم من الأيادى البيضاء على العلم والعلماء . . لا يدرون لمن يكون الولاء : لخليفة القاهرة الفاطمى أم لخليفة بغداد العباسى أم لملك أصبهان السلجوقى ؟ . . المذاهب الفكرية مزقت الشمل ، وخلفت التعصب الأعمى باسم الدين ، والدين من كل هذه المذاهب

---

(١) اقرأ للامام الغزالى كتاب « فضائح الباطنية » حققه وقدم له الدكتور عبد الرحمن بدوى

الظاهرة والباطنة براء . . والإفرنج يطمعون فى خيرات بلاد الإسلام ، فجاءوا بخيلهم ورجلهم ، ليغرسوا باسم الصليبية الأوروبية دولة لهم فى قلب العالم الإسلامى بأفريقية وآسيا ، بعد أن أدركوا هذه الخلخلة ، فاغتنموها .

كيف إذن يطيب المقام بأصبهان البلد الطيب المعمور بالخيرات ، المشهور بالأمجاد ، والأعلام والأئمة . ! .

لقد استوعب السلفى الفتى هذه الفترة المبكرة من حياته على صعيد أصبهان ، واختزن الحسرات — وهو فى مقتبل العمر — على مصير بلده وأمته ، واجتر الأوجاع صباح مساء ، من جراء ما ظل يعلق بقلبه وعقله من منازعات وخصومات .

أما السلفى فقد عاش من غير شك فى الصورة المضيئة ، ولم تجرفه التيارات العنيفة إلى الجانب المظلم من تاريخ أصبهان ، الذى عايشه وعاصره ، فى تلك السنوات القلائل من صباه الأول ، فهل كان السلفى إذ ذاك فى صف المعارضة ؟ أم كان هناك فى صف الحياد السلبى ؟ ليكون ممن يؤثرون العافية ، ويتفرجون على المآسى ولا يحركون ساكنا ؟ لسنا ندعى هذا الزعم ، وإنما الواقع أن الخير فى أمة محمد عليه السلام إلى يوم الدين ، بفضل الدعوة الداعية إلى الحكمة والموعظة الحسنة ، فقد كان بأصبهان رصيد ضخم من (الإسلام الصحيح) البعيد عن الفتنة والشغب ، ومن هذا الرصيد استمد السلفى مسلكه الهادئ المستأنى فى كل ما أخذ وأعطى ، ومادامت البداية سليمة على هذا النحو ، فإن العواقب على الرغم من المحن والخطوب ستكون أسلم وأهدى سبيلا .

أدرك السلفى بعض العلماء من (بيت ابن منده) المشهورين بأصبهان ، وهم الذين توارثوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلوم الحديث ،

وكانت لهم الإمامة والصدارة بأصبهان ، ومنهم من اشتهر بالرحلة إلى الآفاق ، كالحافظ المحدث عبد الوهاب بن محمد بن إسحق .

وإلى جانب هؤلاء ، أدرك السلفى ببلده — وهو يافع — بعض الجلة من الأصبهانيين ، عرفوا بالنبوغ فى علوم اللغة وآدابها ، والفقه والتفسير والحديث وتاريخ المدن وعلى رأسهم مسند العصر ورئيس أصبهان ومحدثها الإمام أبو عبد الله الثقفى الذى كان أول سماع للسلفى على يديه سنة ٤٨٨ ، كما سمع من السمسار والجوهرى والمدينى والحنفى والكرخى واللتبانى ممن ذكرهم فى معجم شيوخه الأصبهانيين .

ويجب ألا ننسى أن السلفى كان شافعى المذهب ، وبانضمامه إلى صفوف الشافعية ، نجا ونجوا معه من غلاة الحنابلة فى بلده ، كما أنه ورث عن أبيه قبل رحيله عنه إلى بغداد ، الفكر المعتدل ، والسلوك المتزن ، فقد روى أبو الحجاج البلوى[1] عن أستاذه السلفى بالإسكندرية أنه قال : سمعت أبى يقول بمكة ، سمعت معمر بن أحمد العبدى بأصبهان يقول عن مشايخ المتقدمين : « الصوفى إذا تمذهب ، يصفع قفاه حتى يذهب » .

---

(١) ألف باء : البلوى

أضواء على بغداد

نحن الآن مع السلفى على أبواب بغداد ، بعد أن قضى بعض أيام من رمضان سنة ٤٩٣ فى السفر إليها من بلده أصبهان ، يطلب علم الحديث ، فرحل منها حافيا حتى تورمت منه القدمان فى الطريق ، وقد نسى ما أصابه ، حتى بلغ بغداد فقصد على التو شيخا محدثا بغداديا سمع به من غير شك قبل الرحيل ، وهو نصر بن البطر ، وساقته الأقدار إلى بيته ، فجلس إليه ، وسرعان ما خاب أمل السلفى فيه كما رأينا ، إذ وجد منه الغلظة والفظاظة ، عندما سمع منه وهو ينطق الراء غينا ، وأسمعه السلفى من محفوظاته ، وهو على ثقة مما يحفظ ، كثرة وإتقانا ، ومع ذلك لم يعبأ به فهو كما وصفه السلفى « رجل عسر » ، وبات ليلته شاكيا باكيا : يشكو الدمامل التى أصابت قدميه من طول المشى ، ويبكى من خيبة أمله الذى كان قد عقده على أول رحلة له إلى بغداد ، ليتلقى العلم بها على أيدى أعلامها الأفذاذ ، وربما سأل نفسه : هل سيطلع عليه النهار ، وهو على هذا الحال من اليأس ؟ وهل البغاددة جميعا من هذا الطراز ؟ وهل من الخير له أن يعجل بالعودة إلى بلده ، ليجد من توجيهات والده ما يشفى غليله ؟

غير أن السلفى كان يحمل بين جنبيه همة عالية كفيلة بأن تزيح عن صدره كل هم أصابه ، فهو طموح النفس ، فروسى الغريزة والتربية ، فليحتمل ، وليمض حتى النهاية من الشوط ، وما إن شق أذان الفجر سمعه ، بعد ليل طال به أو قصر ، حتى ترددت فى أفق بغداد مع الفجر عبارات المؤذنين ، وقد اختلط بعضها ببعض ، ومن فوق المآذن السامقة يحاول كل مؤذن أن يصل بصوته إلى السماء السابعة : هذا سنى وذاك شيعى ، وخرج السلفى إلى الصلاة فى أقرب جامع ، وهو فى حيرة من أمره ، وسرعان ما تذكر أنه شافعى أى من أهل السنة ، فليختر الطريق الذي

يوصله إلى الصلاة مع أهل السنة ، والبعد عن الشيعة من أول يوم .

وكان السلفي قد قرر فيما بينه وبين نفسه أن يكون اسمه من الآن — طالما هو في بغداد — أحمد بن محمد يعرف بسلفه [١] . . وبهذا عرف بين كل من اختلط بهم خلال سنوات ، وصلى (سلفة) مع المصلين ، واندس بين أفراد الحلقة ، وسمع الدرس ، وهو يتأمل في وجوه المستمعين من شباب وشيوخ ، وينقل عينيه منهم إلى الشيخ الوقور ، الذي يلقي درسه بكل بشاشة ، على غير ما وجده بالأمس في الشيخ نصر ، ولم يشأ أن يتعرف بأحد ، إمعانا في الحذر والحيطة ، إذ لا يزال غريب الوجه واليد واللسان .

واندمج السلفي في بغداد اندماجا كليا ، وبسرعة فائقة ، فاستوعب جوها السياسي ، وتعرف على معالم حضارتها وثقافتها ، وتخير من بين علمائها من راح يسمع منه ويتلقى عنه ، غير متعصب ولا متحزب ، فإن خير الأمور الوسط .

يومئذ كانت بغداد مقر الخليفة العباسي المستظهر بالله منذ سنة ٤٨٧ هـ ، وعوامل الضعف تدب في أوصال الخلافة من سنوات طوال ، والخليفة لا حول له ولا قوة ، مع تلك التيارات الجارفة التي تتفاعل في العالم الإسلامي من الشرق إلى الغرب ، فتهز كيانه هزا : الفاطميون من القاهرة يحاولون صد الحملات الصليبية عن سواحل مصر والشام ، ويبعثون بالجيوش والأساطيل ، فلا يزداد الصليبيون إلا كثرة وتمسكا بالأماكن المقدسة ، وفي الوقت نفسه ينشر هؤلاء الفاطميون دعوتهم الشيعية في كل الأرجاء عن طريق الدعاة تارة ، والمغامرين والمنشقين على العباسيين تارة ، وعن طريق المرتشين وعباد الأصفر الرنان تارة أخرى ، وإذا

---

(١) المعجم : ابن الأبار .

ببغداد نفسها تصبح مسرحا للفتن الدامية التي لا تنقطع بين الشيعة وأهل السنة ، ولكن عندما دخلها السلفى ، كان ثمت هدوء نسبي ، وتحت الرماد وميض نار لا تنطفىء أبدا ، وآثار الخرائب والحرائق والقبور المنبوشة لا تزال شاخصة أمام السلفى ، وهو يتأمل ، ويكتم الألم فى نفسه ، أما الأتراك السلاجقة فقد اتخذوا لأنفسهم من أصبهان ما يمكن أن نسميه عاصمة لدولتهم ، فهم ما بين حين وحين يغزون بغداد، ثم يعودون إلى قاعدتهم أصبهان ، فى نزاع مستمر بين بركياروق وأخيه محمد ، وكلاهما طامع فى الملك وفى بغداد ، ولكل منهما جيش جرار ، ولاتسلم أى من المدينتين من غزوة أو حصار ، ثم ينعقد الصلح بينهما ، وتمضى على ذلك الأيام والسنوات .

وقبل أن تأذن شمس القرن الخامس بالغروب ، يموت بالقاهرة الخليفة الفاطمى المستعلى بالله ، وكان يغالى كل المغالاة فى الرفض ويأتى بالأعمال الشنيعة الفاحشة فى ذكرى كربلاء ، أشد مما كان معروفا عندآبائه وهم جميعا شيعة ، ويخلفه ابنه الآمر بأحكام الله ويتخذ (الأفضل) وزيرا له وهو ابن أمير الجيوش بدر الجمالى الأرمنى ، والخطبة فى بغداد للسلطان السلجوقى محمد بن ملكشاه ، وليست للخليفة العباسى المستظهر بالله ، ويموت بركياروق بن ملكشاه صاحب العراق وبلاد العجم ، ويخلفه ابنه جلال الدولة وعمره أربع سنوات ، وتكون الخطبة باسمه على منابر بغداد ، ويطمع السلطان محمد فى ملكه ، فيحاصر بغداد بجيشه ، لتعود الخطبة باسمه كما كانت سنة ٤٢٩ ، ويكاد ينشب بينهما القتال ، وصار الصلح المعقود من قبل بين بركياروق وأخيه حبرا على ورق ، بعد أن كانت أذربيجان وديار بكر والجزيرة والموصل للسلطان محمد ، والباقى للسلطان بركياروق ، ولا يقف الخلاف بينهما بعد هذا الصلح عند هذا الحد ، حتى بعد الموت ، لقد

كان الخلاف بين الأخ وأخيه ، والآن أصبح بين الأخ وابن أخيه ، وعلى بغداد ، فيتدخل بينهما بالصلح إمام الشافعية فى بغداد الكيا الهراسى الشيخ الذى يأخذ عليه السلفى ، وتكون الخطبة فى شرقى بغداد لأحدهما ، وفى غربها للآخر ، بهذا فض الهراسى ذلك النزاع ، بينما الخليفة العباسى حى يرزق ، وليس له من الخلافة إلا اسمها أو رسمها . هذا والزحف الصليبى يزداد كل يوم قوة ، ولا قبل للعباسيين ولا للفاطميين ولا للسلاجقة بجيوشهم الجرارة، التى تنتزع الشام بلدا بلدا، من أيدى الخلفاء المتنازعين ، يوما بعد يوم .

بغـــداد : معـالمها وأعلامها

لقد طاف السلفى ببغداد وعرف أسوارها وأبوابها ولا سيما (باب النوبى) أو الباب الشريف من دار الخلافة ، ومر بالقصور الفخمة التى للخلفاء والسلاطين، وعرف درب حبيب ، ودرب شوك ، ودرب العضدى ، ودرب صالح ، وباب المراتب، وباب البصرة ، وسوق العطر ، وسوق البلقاء ، وسوق الصيارف ، والحرم الطاهرى ، وخان الخليفة ، وخزانة البيمارستان النصرية [١] ، ومر بالرصافة والكرخ ، وشاهد آثار التخريب التى خلفتها المنازعات المستمرة بين الأحزاب المذهبية من شيعة وسنية ، غير أن ما كان يهم السلفى أكثر من هذا كله هو معاهد العلم ومناراتها العالية ، وخزائن الكتب التى اشتهرت بها بغداد ، وعلى الرغم مما انتشر حولها من ضباب سياسى ، كانت (المدرسة النظامية) بها منارة العلم [٢]

---

(١) وردت هذه المعالم فى « المشيخة البغدادية » للسلفى .

(٢) وأطلق اسم المدرسة النظامية أيضا على مدرسة أخرى بنيسابور وغيرها .

فى الشرق كله ، منذ أقامها الوزير السلجوقى محب العلم والعلماء نظام الملك سنة ٤٥٧ ، وبدأ التدريس بها بعد سنتين ، ثم قامت (المدرسة التاجية) ثم (المدرسة المأمونية) ثم (المدرسة النصرية) إلى جانب جوامعها العديدة ومساجدها مثل : جامع القصر ، وجامع الرصافة ، ومسجد العمرى ، والمسجد المعلق ، وكذلك الخانات والخزانات والدور ، وكلها على الدوام عامر بحلقات الدرس ، وتضم أهل بغداد وقصاد العلم بها والواردين إليها من طوس والكوفة والبصرة وفارس ومصر والشام والحجاز والمغرب ، كل حسب مذهبه الدينى ، واتجاهه السياسى ، يلتفون حول أساطين العلم يومئذ فى بغداد ، وهم الذخيرة الحية التى تزود منها السلفى ، فى الفترة التى قضاها بها ، وتخللتها فترة حجه ، ثم عودته ، إلى أن غادرها نهائياً إلى دمشق .

دخل السلفى بغداد ، ومدارسها وجوامعها ومساجدها أشبه ما تكون بخلايا النحل ، من كثرة العلماء والطلاب ، وتعدد حلقات الدروس فى كل مكان .

كان ببغداد إذ ذاك عدد كبير التقى بهم وسمع منهم — كما رأينا فى سجل البلاد التى زارها والعلماء بها ـ وفضلا عن كل ذلك كان بها أبو الحسن العبادى الواعظ ، وسعد الدولة بن الموصلايا كاتب الإنشاء ، الذى ظل وزيرا نحو ٦٥ سنة ، وكان نصرانياً فأسلم ، وكان حريصاً على ترغيب الناس فى العلم بحضور دروس الكيا الهراسى أبى الحسن الطبرى ، أحد كبار فقهاء الشافعية ببغداد ممن اشتغلوا على إمام الحرمين أبى المعالى الجوينى ، وقد تولى الكيا الهراسى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد — مع الإمام الغزالى — وعليه تفقه السلفى ومنه سمع .

كان الكيا الهراسى — والكيا يعنى « كبير القدر » — جريئاً فى الحق لا تأخذه فيه لومة لائم ، وكان معتدلا فى فتاواه ، قال السلفى إنه استُفتى فى كتبة

الحديث الشريف ، هل يدخلون فى الوصية كالفقهاء ، فأجاب بالإيجاب اعتمادا على قول النبى ﷺ : « من حفظ على أمتى أربعين حديثاً بعثه الله عالماً » . واستفتى أيضاً فى شتم يزيد بن معاوية فأجازه ، وخالفه الغزالى بحجة أنه مسلم ، ولم يثبت أنه رضى بقتل الحسين ، ولو ثبت ، لما كان ذلك مسوغا لشتمه ولعنه ، لأن القاتل لا يلعن ، مادام باب التوبة لا يزال مفتوحا ، ولعله اعتمد أيضاً على قول الرسول ﷺ « المؤمن ليس بفحّاش ولا بلعّان » .

كان ببغداد أيضاً الفقيه الشافعى أبو المظفر الخولانى ، وهو أنظر أهل زمانه ، وتلميذ أبى المعالى الجوينى بطوس ، وكان بها أبو محمد جعفر بن أحمد بن حسين الحنبلى البغدادى القارىء الشاعر المحدث صاحب « مصارع العشاق » المتوفى سنة ٥٠٠ ، وإمام النظامية وعلمها الخفاق أبو إسحق عبد الوهاب الشيرازى الفارسى إمام الشافعية الفقيه المحدث الذى استدعاه نظام الملك للنهوض بمهمة التدريس بالنظامية عند إنشائها ، وظل يقوم بهذه المهمة مدة طويلة وله «التنبيه» و «المهذب» ، وكذلك إمام الشافعية أبو المحاسن الرويانى ، وأصله من طبرستان ، وله رحلات فى طلب العلم ، وكان يحفظ كتب الشافعى عن ظهر قلب ، وكذلك أبو سعيد السمعانى صاحب « الأنساب » وهو الفقيه الشافعى الحافظ المحدث وله ذيل طويل على « تاريخ بغداد » لابن الخطيب البغدادى ، وله كتاب جمع فيه ألف حديث عن مائة شيخ ، إسناداً ومتناً .

ومن كبار الأعلام البارزين فى النظامية أيضاً فخر الإسلام إمام الشافعية أبو بكر محمد بن الحسين عمر الشاشى الشافعى ، وكان الوزير والأعيان حريصين على حضور دروسه ، وكثيرا ما عزل عن التدريس ثم أعيد ، وكان يسمى الجنيد لورعه وتقواه ، وانتهت إليه رياسة الشافعية ببغداد ، وكان يتعصب لمذهب أبى حنيفة

فى مجلس النظر وتوفى سنة ٥١٢ ، وكذلك إدريس بن حمزة أبو الحسن الشاشى الرملى العثمانى ، وهو من فحول الشافعية فى المناظرات ، وقد تفقه ببغداد على الشيرازى ، ودخل خراسان ، ووصل إلى ماوراء النهر ، وأقام بسمرقند ودرس بمدرستها المشهورة حتى لقى ربه .

وسمع السلفى من أبى منصور السيورى ، وحضر دروس اللغة على أبى زكريا يحيى بن على التبريزى شيخ أدباء بغداد المتوفى سنة ٥٠٢ ، وروى عنهم ، والدامغانى قاضى القضاة نزيل باب الطاق ببغداد ، وأبو الوفا بن عقيل شيخ الحنابلة ببغداد كان لايزال بها ، وكان معتزلى المذهب وتوفى سنة ٥١٣ وكان أنظر أهل زمانه وللسلفى كلام عنه سنراه فيما بعد ، كما حضر أبا الحسن على النحوى المعروف بالفصيحى الاستراباذى ، وقد استوطن بغداد ، وتولى تدريس النحو بالنظامية ، واشتهر بالخط الجيد ، والأدب الوافر ، روى عنه السلفى كثيراً وقال : « جالسته ببغداد وسألته عن أحرف من العربية » .

وعاصر السلفى أيضاً فى هذه الفترة الطغرائى الأصبهانى صاحب « لامية العجم » تلك القصيدة الخالدة التى كان لها دور كبير فى تطور الأدب العربى والتى شرحها شرحا وافيا الصفدى باسم « الغيث المنسجم فى شرح لامية العجم » فى مجلدين ، أما الحريرى صاحب المقامات فكان رجلا لغوياً نحوياً محدثاً ، أقام ببغداد ، وقد مر السلفى يوما بحلقة كبيرة بجامع البصرة ، فسأل عن المتصدر فيها فقيل له إنه الحريرى قد وضع شيئاً من الأكاذيب ، وهو يمليه على الناس ، فسكت ولم يعرج عليه . (١)

---

(١) وفيات الأعيان : ابن خلكان .

أما الزمخشرى الخوارزمى المعتزلى فقد كان إمام عصره فى التفسير والحديث واللغة والنحو والبيان ، استجازه السلفى عندما كان بمكة فردعليه بما لم يشف غليله ، فكتب إليه فى العام التالى كتابا أرسله مع أحد الحجاج .

وجاء فى ختام رسالة السلفى إلى الزمخشرى : « ولايحوج - أدام الله توفيقه - إلى المراجعة ، فالمسافة بعيدة ، وقد كاتبه فى السنة الماضية ، فلم يجب بما يشفى الغليل ، وله فى ذلك الأجر الجزيل » . فرد عليه الزمخشرى يقول : « ما مثلى من أعلام العلماء إلا كمثل السها مع مصابيح السماء ، والجهام الصغير مع الرهام ، مع الغوادق الغامرة للقيعان والآكام ، والسكيت المخلف مع خيل السباق ، والبغاث مع الطير العتاق» .

ويعلق ابن خلكان على هذه المراسلات بقوله : « وما أعلم هل أجازه بعد ذلك أم لا » . وإن كان معروفاً أن الزمخشرى قد توفى سنة ٥٣٨ هـ .

كانت بغداد فى هذه الفترة ملتقى الوافدين إليها من أقصى البلاد ، كأبى بكر الطرطوشى ، وعبد الله بن محمد بن العربى الأندلسيين ومحمد بن تومرت المغربى ، وكان من أبرز أعلام بغداد يومئذ : أبو الحسن المبارك بن عبد الجبار الصيرفى المعروف بابن الطيورى صاحب (الطيوريات) الذائعة الصيت فى الحديث ، وهو المحدث الثقة ، ذو الأصول الصحيحة والعلم الواسع ، والمتوفى سنة ٥٠٠ ، وكذلك أبو الحسن على بن على الحسين بن على بن أيوب البزاز ، المتوفى سنة ٤٩٢ ، وأبو المعالى ثابت بن بندار البقال المقرىء المتوفى سنة ٤٩٨ ، والقاضى أبو البركات طلحة بن أحمد بن طلحة العاقولى الحنبلى المتوفى سنة ٥١٢ ، وكذلك الحافظ أبو عامر محمد بن سعدون بن رجاء الميورقى العبدرى أحد فقهاء مذهب داود ، وقد توفى سنة ٥٣٤ ، وأبو الحسين أحمد بن عبد القادر اليوسفى المتوفى سنة ٤٩٢ .

وأبو بكر محمد بن طرخان التركى الشافعى تلميذ الشيرازى وقد توفى سنة ٥١٣ ، ومسندالعراق ونقيب النقباء بها أبو الفوارس طراد بن محمد العباسى الزينبى المتوفى سنة ٤٩١ ، وكان يحضر مجالس العلم المفتوحة التى تعقد بدار عميد الدولة الوزير ابن جهير المتوفى سنة ٤٩٣ ، وكان ببغداد أيضاً إذ ذاك حجة الإسلام أبو حامد الغزالى وكان يدرس بالنظامية وتوفى سنة ٥٠٥ هـ ، وكان ببغداد أيضاً رزق الله ابن عبد الوهاب بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد أبو محمد التميمى البغدادى الحنبلى وقد ولد بها سنة ٤٠٠ وتوفى سنة ٤٨٨ (١) ، وهو آخر من روى عنه السلفى مطلقاً بالإجازة ، كما روى السلفى عن يحيى بن على بن بسطام الشيبانى أبى زكريا التبريزى الإمام فى النحو واللغة ومدرس الأدب بالنظامية وخزانة الكتب ، وله مصنفات عدة فى التفسير وشروح الحماسة لأبى تمام وديوان المتنبى ، كان يدمن الخمر ويقرءون عليه وهو سكران ، روى عنه السلفى وتوفى سنة ٥٠٢ عن ٨١ سنة (١) . . يا للعجب !

ومن كل هذا يتبين لنا بعض ملامح الحياة الفكرية ، التى عايشها السلفى من لدن دخوله بغداد ، إلى حين خروجه منها ، فى رحلات الحج والدرس ، ثم عودته إليها ليغادرها نهائياً إلى دمشق ، وسيكون هذا الرصيد الضخم من الثقافات أساساً متيناً ، أقام عليه السلفى بنيانه العلمى السامق ، قبل أن يبلغ الأربعين من عمره .

---

(١) طبقات المفسرين : الداودى .

أضواء أخرى .. على أجواء أخرى

قبل عام ٥٠٩ الهجرى وهو العام الذى وطىء فيه السلفى بقدميه أرض دمشق ، قضى سبع سنوات ، أكثر فيها من التنقل فيما بين بغداد والحجاز وفارس ، واكتسب خلالها ثروة ضخمة من المعرفة الدينية والدنيوية ، كان لها أكبر الأثر فى صقل شخصيته ، وهو يقترب من سن الأربعين ، وهى مرحلة النضوج الفكرى ، والعطاء الوثيق .

غادر السلفى بغداد إلى الحج وأداء الفريضة ، والتزود من أرض الحرمين بروحانية الإسلام ومواقف انتصارات رسول الإسلام على أعداء الإسلام ، لأول مرة فى حياة هذا الأصبهانى النابغة الرحالة ، ويومئذ كانت بلاد الحجاز تتمتع بهدوء نسبى ، وهى بمنأى عن الصراع السياسى والمذهبى العنيف الذى وقفنا عليه فى أصفهان وبغداد والقاهرة ، وذلك على الرغم من بسط نفوذ الدولة العباسية على مكة والمدينة ، بينما ترتفع دعوة الفاطميين فى فترات متفاوتة ، تحت اسم (العلوية) وأحقيتها بالذيوع والانتشار من (العباسية) ، واستطاع المصريون من القاهرة أن يبعثوا بالهدايا والخلع والأصفر الرنان ، حتى وجدوا من أهل الحجاز من يسمع لهم ويستجيب لدعوتهم .

أما السلفى فقد اتخذ لنفسه خطاً سليما واضح المحجة هو (الاعتدال) ، من خلال تمذهبه بتعاليم الإمام الشافعى ، فلما غادر بغداد نزل بالكوفة ، حيث التقى بأبى البقاء المعمر بن محمد الحبال ، ومضى إلى مكة وأتم شعائر الحج ، ولقى بها الحسين بن على الطبرى ، ثم سمع من أبى فرج القزوينى بالمدينة ، ومنها عاد إلى بغداد ، وتزود بها فقهاً ولغة ، ثم رحل إلى البصرة سنة ٥٠٠ ﻫ فسمع من

محمد بن جعفر العسكرى ، وأغراه طلب العلم بالرحيل إلى زنجان ، فأخذ عن أبى بكر أحمد بن محمد بن زنجويه ، وهمدان فاتصل بعلمائها الذين منهم أبو غالب أحمد بن محمد بن محمد المزكى ، واخترق السهل إلى الجبل ، وتعرف على أحوال المدن الجبلية ، وسمع من علماء الرى ودينور وقزوين وساوه ونهاوند ، وطاف ببلاد أذربيجان حتى دربند وآمد وخلاط ونصيبين والرحبة ، وانتهى به المطاف إلى الشام فنزل دمشق سنة ٥٠٩ ومعه ذخيرة ضخمة من حصائل العلم الغزير ، الذى استوعبه من مختلف الأجواء على أيدى العديد من العلماء والأدباء .

هذه هى دمشق سنة ٥٠٩ وقد نزل بها السلفى ، ولعله تذكر فى التسو واللحظة ماكان لها من مجد على أيدى الأمويين الذين اتخذوها عاصمة لدولتهم ، وقدامتدت حتى استوعبت الأندلس ، وبها ترعرعت الثقافة الإسلامية ، وازدهرت أيما ازدهار قروناً طويلة ، وظلت خلالها تستمد المزيد من المشرق ، ثم تعود به إلى المغرب خصباً وفيراً ، عبر الإسكندرية ذهابا وإيابا .

وإذا ضغطنا على أحد أزرار الخريطة المضيئة فلنضع إصبعنا الآن على دمشق الفيحاء ، لنكشف أحوال الشام ، فى هذه الفترة القصيرة ، وهى عامان أو نحو ذلك ، أشهر من عرف خلالهما من العلماء : أبو طاهر الحنائى ، وأبو الحسن بن الموازينى . ذلك على الرغم من الغزو الصليبى الذى روعت به سواحل الشام ، وسقوط بيت المقدس فى أيدى أمراء أوروبا ، الذين استساغوا الغارات المتوالية على الديار الشامية ، بعد أن ظلت سنين طويلة مسرحا لصراع مذهبى متشابك أسهمت فى خلقه أطماع السلاجقة ، الذين بظهورهم أوشكوا على طمس معالم الدولة العباسية فى بغداد وتوابعها ، ثم زحفوا إلى الشام أملا فى وقف التيار الفاطمى الجارف ، الذى أصبح فى القرن السادس الهجرى فى أوج ازدهاره ، من حيث (الدعوة)

و (الجهاد) معا ، فوجدت مصر الفاطمية نفسها تواجه مسئوليتها التاريخية فى طرد الصليبيين من الشام ، وقد وضعت فى اعتبارها أن مصر تتوقع أخطار الغزو عليها بعد غزو الشام ، وإذا بالجيوش البرية والأساطيل المصرية تتوالى على البلاد الشامية وتشتبك بالصليبيين فى ملاحم ضارية ، كانت الدائرة فى معظمها لهؤلاء الغزاة ، دون أن يدب اليأس فى نفوس المصريين ، ودون أن يكفوا عن الاستعداد والجهاد للحرب هجوما ودفاعا ، مما يشير إلى أن بث الدعوة الفاطمية فى الشام ، قد كلفها ثمنا غاليا ، دفعته بالدماء والأشلاء .

يبدو ذلك جلياً من ثنايا أقوال المؤرخين لهذه الحقبة، وعلى رأسهم ابن تغرى بردى ، الذى كلما تحدث عن حملة صليبية على الشام ، تحدث عن استصراخ أهلها وأمراء مدنها الساحلية والداخلية لمصر — لا للعراق أو فارس — لكى تنجدهم مما هم فيه من الكرب .

على أية حال ، لم يطل بالسلفى المقام بدمشق أكثر من سنتين ، ثم غادرها إلى (صور)، ومنها ركب السفينة فعبرت به البحر ، حتى رست على ثغر الإسكندرية سنة ٥١١ ، فاستوطنها منذ ذلك التاريخ حتى لقى ربه بعد ٦٥ سنة ، هى أخصب مرحلة فى حياته الطويلة ، وهى فى الوقت نفسه أهم حقبة فى تاريخ الأمة الإسلامية ، فيما بين أخريات الدولة الفاطمية ، وأوليات الدولة الأيوبية .

القاهرة والإسكندرية

قصد السلفى ثغر الأسكندرية فى فترة عصيبة محفوفة بالمخاطر ، حيث كان الطريق من الشام إلى مصر - سواء بالبر أو البحر - يكاد يشتعل ناراً ، فقد جرد نائب الموصل حملة قوامها ١٥ ألف فارس لغزو الشام ، فاستنجد أهل عسقلان بمصر عندما حوصرت يافا ، فأرسل إليهم المصريون سبعين سفينة وضربت قواتهم الحصار عليها من البر والبحر ، كان ذلك سنة ٥٠٩ ، والسلفى لايزال بالشام ، وفى العام التالى ، قدم بلدوين الذى يسميه المصريون (بردويل) ملك القدس إلى مصر ؛ للانتقام من حملاتها المتوالية لنجدة أهل الشام ، والكيد من الصليبيين الغزاة الطغاة ؛ فلما بلغ العريش أصابته الحمى ، فمات غير مأسوف عليه ، بعد أن ظل ملكا على القدس ، أكثر من ستة عشر عاما ؛ استولى خلالها على معظم بلاد الشام ، وورد عدة نجدات لأهلها قدمت من الموصل ومصر .

وفى السنة التى قدم فيها السلفى إلى مصر وهى سنة ٥١١ وصلت جيوش مصر وأساطيلها ، وانضمت إليها قوات الشام ، وتعاون القطران الشقيقان فى البر والبحر على تنسيق الدفاع بينهما عن صيدا وعسقلان ، ودارت رحى القتال على أرض فلسطين ؛ وصمد المجاهدون أى صمود ، لفترة ستة أشهر ، ثم عاد كل جيش من حيث أتى .

ولاندرى كيف خاطر السلفى بحياته فى هذه الفترة ، فرحل إلى مصر ، ولاندرى كيف نجا من الموت ، والبحر مشحون بالسفن المقاتلة ذاهبة آيبة ، ولكن هكذا كتب الله له النجاة من أخطار الحرب والبحر معاً ، حتى بلغ مصر ، فكانت الإسكندرية أول بقعة من أرضها الطيبة وطئتها قدماه ، وهى يومئذ كالشوكة

فى حلق الدولة الفاطمية الحاكمة من القاهرة ، وهى باسطة نفوذها على الشام والعراق وفارس والحجاز واليمن ، وحتى الأندلس غرباً ، وإذا كان الفواطم - أو المغاربة الشيعة - قد استطاعوا أن يقيموا لهم دولة ، منذ وضع جوهر الصقلى حجر أساس القاهرة سنة ٣٥٨ هـ ، باسم مولاه المعز لدين الله الفاطمى ، على الرغم من وجود الدولة العباسية التى عاصمتها بغداد ، فإن الإسكندرية وحدها كانت دولة داخل دولة ، بما كان يحتمل فيها من ثورات متوالية ، ضد الحكومة خلافةً ووزارة ، سياسة وعقيدة .

ومهما يكن من أمر المناخ الذى حبت به الطبيعة ثغر الإسكندرية على مدار السنة صيفاً وشتاء ، ربيعاً وخريفاً ، فقد طابت للسلفى الإقامة بها ، وما إن استقر قراره بالحى الغربى منها قريباً من البحر (حى الجمرك حالياً) حتى راح يفتح منافذ حسه على الأحداث الجارية فيما حوله ، وهى انعكاس من غير شك لمجريات الأمور فى القاهرة .

الخليفة يومئذ هو الآمر بأحكام الله - بعد أبيه المستعلى بالله - وقد جاوز العشرين ربيعاً ، وزمام الأمر لوزيره المستبد أمير الجيوش (الأفضل) الأرمنى ابن بدر الجمالى ، وكان بدر الجمالى هذا والياً على عكا فاستدعاه الخليفة الفاطمى المستنصر بالله سنة ٤٦٦ لإخماد ثورة عليه فى مصر ، وليتولى أمرها إذا نجح فى كسر شوكة الثوار ، فما لبث أن قضى على خصوم الخليفة من الأتراك والعرب والسود فى سائر الديار المصرية ، فكافأه على ذلك بأن جعله « كافل قضاة المسلمين وداعى دعاة المؤمنين وأمير الجيوش » وظلت الوزارة من بعده لأولاده الذين استبدوا بالسلطة .

فى ذلك الوقت كان (الأوحد) يقود ثورة فى الإسكندرية ضد أبيه بدر الجمالى ،

الذى أرسل جيشاً تمكن به من إخماد الثورة ، والقبض على أبنه ، ومصادرة أموال الثوار ، ومن الغرامة التى فرضها على الإسكندرية مسلميها وأقباطها وقدرها ١٢٠ ألف دينار ، عمر جامع العطارين سنة ٤٧٧ هـ ، وجعل فيه الخطبة للفاطميين ، بينما أهل الإسكندرية يرفضون التشيع ولا يرضون بغير التسنن بديلا .

ومات الأوحد سنة ٤٨٧ فخلفه فى الوزارة (الأفضل) الذى حجر على الخليفة المستنصر حتى مات فى تلك السنة ، وقد بلغ نفوذ الوزراء الأرمن أقصى درجة من الاستبداد بالحكم ، وأصبح الخلفاء معهم أصفارا على الشمال ، فلما مات المستنصر بعد خلافة دامت ستين عاما ، أبعد الأفضل عن الخلافة ولى العهد (نزار) ابن المستنصر وهو المستحق لها ، وبايع أخاه المستعلى بالله ، والمستعلى ابن أخت بدر الجمالى والأفضل خاله ، وإلى هذ القدر من الاستبداد بلغ نفوذ الوزراء .

ووقفت الإسكندرية مع نزار ، وبايعه أهلها بالخلافة — برغم أنف الأفضل — ولقبوه بالمصطفى لدين الله ، وإذ ذاك كان والى الإسكندرية أحد مماليك بدر الجمالى وهو الأمير التركى ناصر الدولة أفتكين ، وقاضيها جلال الدولة ابن عمار .

وخرج الأفضل سنة ٤٨٨ هـ من القاهرة لإخماد ثورة نزار فى الإسكندرية ، ولكن الثوار صمدوا ، وعاد الأفضل مهزوماً ، ولاسيما بعد أن ضم الثوار إلى صفوفهم عرب الوجه البحرى ، ومع ذلك لم ييأس الأفضل فعاود الكرة على الإسكندرية ، فحاصرها وهدم أسوارها ، وحطم أبوابها وأبراجها بالمجانيق ، وقطع عن أهلها الميرة ، وتمكن من القبض على نزار وأفتكين وقتلهما ، وجعل قضاء الإسكندرية لأبى الحسن أحمد بن حديد بدلا من قاضيها ابن عمار الذى كان ضالعاً فى ثورة نزار ومبايعته بالإمامة .

. . وأصبح الآمر بأحكام الله خليفة ، وفى سنة ٥١٧ جعل ولاية الإسكندرية للمؤتمن سلطان الملوك نظام الدين أبى تراب حيدرة ، وضمت إليه أيضاً الأعمال البحرية ، فأصلح ماتهدم من أسوار الإسكندرية ، وعمر أسطولها وأقام بها مسجده الذى نسب إليه ، وأدرك الأخطار التى تتعرض لها فى هذه الفترة من إغارات الصليبيين على الشام ، وبالتالى على سواحل مصر ، وعلى رأسها الإسكندرية لكى يكف الفاطميون عن إرسال قواتهم البرية والبحرية ، لتخليص الأراضى المقدسة من براثنهم ، هذا والسلفى يتردد فى القاهرة ما بين سنة ٥١٥ وسنة ٥١٧ على علمائها : يسمع منهم ويسمعون منه ، وقد أصم أذنيه عن كل هذه الأحداث .

ومع هذا فقد عاشت الإسكندرية فى العصر الفاطمى عموماً ، وهى فى بذخ وترف ورواج اقتصادى ، فوق أتون ملتهب من تلك الثورات الدامية المتوالية على الحكومة المركزية ، ويسمى السلفى هذه الفترة بأيام الفتنة ، وقد تفاداها بالسفر إلى القاهرة ، حتى لايصيبه ماأصاب الطرطوشى وابن عوف وسائر علماء الإسكندرية ، وقد اندكت بالمجانيق حصونها وأبراجها وأسوارها وأبوابها ، ومع ذلك ظلت مساجدها تعلو وتعلو ، وقصور ولاتها وقضاتها وتجارها - ولاسيما بمنطقة الرمل - محفوفة بالبساتين الرائعة ، ذات الينابيع والنوافير والأزاهير التى وصفها لنا شعراً ونثراً شعراؤها وعلى رأسهم ابن مكنسة المتوفى سنة ٥١٠ وظافر الحداد المتوفى سنة ٥٢٩ وابن قلاقس المتوفى سنة ٥٦٧ .

أما الخليج فقد عنيت به الدولة أيما عناية ، فطهرته حتى جرى فيه الماء ، وازدهرت ضفافه بالمزارع والحدائق والمتنزهات والقصور ذات الرياض اليانعة ، فى ذلك الثغر الضاحك الذى اشتهر بسمائه الصافية ، ونسيمه العليل .

تلك هى الإسكندرية ، برمالها الناعمة ، وأفقها الصافى ، وبحرها اللازوردى ،

وخليجها الرقراق . بضفافه السندسية ، وهى بهذه الخصائص والمزايا ، جديرة بأن تجذب إليها أفواج الوافدين من كل مكان ، سواء بوصفها همزة الوصل بين الشرق والغرب ، على أى نحو من أنحاء هذه الصلة ، من مرور بها للتجارة أو لطلب العلم ، أو موقعها فى الطريق إلى الحج ، أو بقصد الاستقرار بها ، وقد طابت الإقامة فيها للجميع من كل مكان .

ومن هنا نجد سكان الإسكندرية فى هذه الفترة أخلاطاً شتى من سلالات القبائل العربية التى فتحت الأسكندرية مع القائد الفاتح عمرو بن العاص سنة ٢٠ هـ ، ونشرت بها الإسلام والعروبة ، وممن توافدوا عليها بعد الفتح من الشام والحجاز واليمن والعراق من العرب والترك والفرس ، ومن جاء أيضاً من جزر البحر المتوسط وبلاده المطلة على سواحله ، ومن الأرمن والمغاربة والسودان وأهل الأندلس ، كالتجار والحجاج وطلاب المعرفة والوزراء ، وقد شاءت الأقدار أن تمنح الإسكندرية كافة المؤهلات الطبيعية والتاريخية ، فبلغت مكانتها المرموقة من الحضارة والثقافة والنضال ، وانصهرت كل هذه العناصر بحضاراتها فى بوتقة الإسكندرية .

وكان للسلفى نصيب من المكان فى مصر هو (الإسكندرية) ، وأن يكون له بها نصيب من الزمان هو خمسة وستون عاما من القرن السادس الهجرى ، وقع الثلثان الأولان منه فى ظل الدولة الفاطمية ، والثلث الأخير منه فى ظل الدولة الأيوبية ، وأدرك السلفى هذه وتلك ، حيث كانت الإسكندرية فى أوج ازدهارها ، على الرغم من الأحداث والخطوب الجسام التى خاضتها مصر ، وانعكست أصداؤها على الأسكندرية ، بل شاركت فى خطوط سيرها مشاركة إيجابية تركت الإسكندرية فيها بصماتها واضحة كل الوضوح ، وغيرت مجارى التاريخ تغييراً رئيسياً وشاملا .

وسنرى فيما يلى من الصفحات كيف أن الصعيد الثقافى بالإسكندرية ، الذى عايشه السلفى وعاشه بها ، لايمكن فصله عن الأحداث السياسية التى جرت على أرض الإسكندرية ، وتفصيل ذلك موجز فيما يلى من السطور .

ثقافة الإسكندرية فى خضم الأحداث

إذا جعلنا الإسكندرية تحت نظرنا المدقق ، وألقينا على الجانب الثقافى بها كل ما نملك من قوة الإضاءة ، بحيث لانخرج عن دائرة القرن السادس الهجرى ، وهو عصر السلفى بها ، تتضح لنا حقيقة ثابتة طريفة ، وهى أن الثورة السياسية فى الإسكندرية ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالثورة الثقافية بها ، وأن أهلها بمن فيهم من ولاة وقضاة وعلماء وشعراء هم صناع هذه (الثورة) ، التى بوأت للإسكندرية مكانتها التى انفردت بها عن مختلف عصورها ، فكانت بحق فى أوج عصرها الذهبى ولا نزاع .

فلنتأمل قول ابن تغرى بردى (١) إن وزراء الفاطميين « كانوا تحت الحجر والضيق . . وإنما كان يطلق عليهم (الوزراء) لكون العادة كانت جرت بأن الملك للخليفة لالغيره ، وهم بلا مدافعة كانوا أعظم من سلاطين زماننا هذا . . » ولقد رأينا كيف استنجد المستنصر ببدر الجمالى ، واستدعاه من الشام لإخماد الثورة التى كانت فى القاهرة ضده ، فلما فتك بالخصوم أشد الفتك وبلا رحمة استساغ هذا الأسلوب من قمع الحريات ، فاستوزره الخليفة ، وما لبث الوزير أن جمع زمام الحكم فى يده ، دون الخليفة ، على الرغم مما كان بينهما من مصاهرة ، كان جديراً

---

(١) النجوم الزاهرة ، وتكاد تكون العبارة منقولة عن الذهبى .

بالوزير أن يصون حرمتها ، ولكن الذى حدث كان غير ذلك إذ أن ظل الخليفة الفاطمى قد تقلص ، وصار الأمر إلى الوزير الارمنى ، ودأب هؤلاء الوزراء على ذلك ، وشاءت المقادير أن يثور أبناء الوزراء على آبائهم ، جزاء وفاقا لما بثوه من الدسائس بين الخلفاء وأولادهم ، يالها من مضحكات مبكيات !

ولم تشهد مصر فى تاريخها حكاما أغلظ أكباداً ، وأقسى قلوباً من هؤلاء الارمن الذين أصبحوا وزراء فى دولة الفواطم ، فإذا بنا أمام الثورات العنيفة بالإسكندرية تواجه هؤلاء الوزراء جميعاً وعلى رأسهم بدر الجمالى ، فينضم الاوحد إلى ثوار الإسكندرية ضد أبيه — كما ذكرنا — فيحاصرها ويصادرها ، ويحبس أعيانها ويعزل قضاتها ، ثم يأتى الأفضل ، وما كان بأفضل من أبيه إلا بمظالمه وفظائعه ، التى قوبلت من أهل الإسكندرية بكل إباء وشمم ونضال مرير .

أما الأفضل فقد ظل وزيراً مدة ثمان وعشرين سنة ، حفلت بالخسف والعسف، ولقى منه خلالها علماء الإسكندرية أشد العنف ، وعلى الرغم من أن وزراء الارمن فى العصر الفاطمى كانوا يعتنقون المذهب السنى كراهية فى المذهب الشيعى - لأنه مذهب خلفائهم وأولياء نعمتهم - إلا أن علماء الإسكندرية كانوا سنية ويرفضون التشيع ، وقد أخذت الإسكندرية — عن بكرة أبيها — على نفسها عهدا وميثاقا أن تحارب الظالمين ، والأفضل على رأسهم جميعا بعد أبيه .

لقد كان حكم الأفضل جائرا أشد الجور طيلة سنى وزارته ، فسفك دماء العلماء بالإسكندرية ، سواء كانوا من أهلها أو ممن قصدوها واستطابوا الإقامة بها ، أما من كتبت لهم النجاة من براثنه ، فقد أمر بتشريدهم أو عزلهم عن القضاء - إن كان أحدهم قاضيا - أو حبسهم أو نفيهم ، حتى لا يعكروا عليه صفوه ، ويثيروا الجماهير ضده .

ولقد صور لنا السلفى ما كان يلقاه علماء الإسكندرية فى هذا العصر من

الفتك الذريع وحصد الأرواح ، ومع ذلك يفزعون عندما يتقدمون إلى الموت إيماناً منهم بالشهادة فى سبيل الله ، فيحدثنا عن على بن أحمد بن الطوير القيسرانى العدل فقيه الإسكندرية الذى «كان مسموع القول فضربت عنقه مع غيره من الفقهاء ، فالتفت فى تلك الحال إلى آخر وهو أبو حفص بن الشوا ، وقال : يا فلان : فزعت ؟ لا تفزع فليس بيننا وبين الجنة إلا ضرب الرقبة » . وكان ابنه عبد الله قد أخذ معه ، وسيق إلى الموت ظلما وعدوانا . فقال : يا هؤلاء إن كنتم أمرتم بقتله فقدموه قبلى حتى أجده فى ميزانى . فتعجب الناس من قوة قلبه [١] .

هؤلاء هم شهداء الإسكندرية وضحايا الحرية فى «أيام الفتنة» ـ كما يسميها السلفى ـ ومن أجل ذلك ـ على الأرجح ـ غادر الإسكندرية إلى القاهرة فرارا من شرها وضررها .

ونكتفى هنا بالحديث عن اثنين من علماء الإسكندرية كان لهما مع الأفضل مواقف عجيبة ، أولهما :

أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسى ، الذى قدم مصر من الأندلس سنة ٤٨٩ أى فى خلافة المستنصر ووزارة الأفضل ، وكان عارفا بالطب والتنجيم والموسيقى والرياضة والكيمياء ، وعرض خدماته على تاج المعالى مختار ، كاتب الأفضل وأقرب المقربين إليه ، فاستخدمه ، ونال الحظوة عنده ، فدبت الغيرة فى نفس الأفضل منه ، فلما اعتقل الأفضل تاج المعالى ، اعتقل بالتالى محسوبه أمية ، بعد أن دبج فيه المدائح نثرا وشعرا ، وحبسه لهذا ، أو لسبب آخر ذكره ابن أبى أصيبعة وهو أن الأفضل قد طلب إليه العمل على رفع مركب غارق فى البحر ، فقام أمية بهذه المهمة ، ولما قاربت النجاح ، هبط المركب فى القاع ، بعد أن كبد الدولة خسائر فادحة ، فحبسه بالإسكندرية ، فألف أثناء الحبس كتابه المعروف «الرسالة المصرية» ، ضمنها معلوماته ومشاهداته فى مصر ،

---

(١) معجم السفر : السلفى .

ولما يئس من المقام بها غادر الإسكندرية سنة ٥٠٦ قاصدا بلاد المغرب ، وخدم ابن باديس سلطان المغرب وأهداه هذه الرسالة القيمة ، وكان يتبادل مع شاعر الإسكندرية ظافر الحداد ذكرياته بها ويتشوق حنينا إليها .

أما ياقوت الحموى (١) فقد ذكر أن السبب فى حبسه هو أن أحد تلاميذه قد طعن فيه لدى الأفضل ، فحبسه فى دار الحكيم أرسطاليس بالإسكندرية .

وإذا كان السلفى لم يلتق بأبى الصلت أمية فى الإسكندرية ، إلا أن كليهما قد سمع بالآخر ، بعد أن قدم إليها السلفى ، وبعد أن رحل عنها أمية ، ومن الصدف العجيبة أنهما من مواليد سنة ٤٧٠ هـ ، هذا أصبهانى توفى سنة ٥٧٦ ، وذلك أندلسى توفى سنة ٥٢٨ هـ ببلده المهدية .

أما الأندلسى الآخر الذى ذاق المر أيضا من الأفضل فى الإسكندرية فهو الزاهد العالم الفقيه المالكى أبو بكر الطرطوشى الذى ولد ببلده طرطوشة قبل السلفى بعشرين سنة ، وكانت له رحلة إلى المشرق ، فدخل بغداد ومكة والبصرة والشام ، وعاش فى مصر على الكفاف ، مكتفيا بجمع الحطب والملح فى برية (رشيد) ، هو وصاحب له سائح معه فى الله ، وكان الأفضل قد قتل جماعة من فقهاء الإسكندرية ، ولم يبق بها منهم أحد ، ولم يجد أهلها من يفقههم فى أمور دينهم ، ويبصرهم بشئون دنياهم ، وعلموا بوجود الطرطوشى برشيد ، فركب إليه الصفوة من أهل الإسكندرية ، وعلى رأسهم قاضيها ابن حديد ، ودعوه للإقامة بين ظهرانيهم وتكفلوا له ولصاحبه بالمعاش الكافى ، فرضى بالذهاب معهم قانعاً من الحياة بما يسد الرمق ، ويعين على العبادة .

---

(١) معجم الأدباء .

دخل الطرطوشى الإسكندرية سنة ٥١١ — وهى نفس السنة التى نزل فيها السلفى بها — وتزوج من خالة تلميذه ومريده أبى الطاهر بن عوف ، ومن ماله الخاص بنت له مدرسة لنشر المذهب المالكى بالإسكندرية ، وكان سكنهما فوق المدرسة ، و « كان البلد عاطلا من العلم ، فأقام بها وبث علماً جماً » — كما يقول ربيبه ابن عوف — وبحق لقد بذل الطرطوشى جهداً فوق الطاقة ، حتى نشر الدين على حقيقته بالإسكندرية ، وخدم السنة ، وهزم البدعة ، مما جعل الدعوة الشيعية يتقلص ظلها بسرعة وينحسر نفوذها فى الإسكندرية .

وذاع صيت الطرطوشى ، فوفد عليه طلاب العلم من كل مكان ، حتى من خارج مصر ، واتبع طريقة أرسطو مع المشائين من تلاميذه ، فكان الطرطوشى يخرج مع تلاميذه فى نحو ثلثمائة وستين من طلاب المعرفة إلى المتنزهات والخلوات ، فى لهو برىء ، ويقيمون الصلاة ، ويتعبدون ، ويتدارسون الفقه والحديث ، والحلال والحرام ، فكثر أتباعه وأنصاره فى المدرسة والرحلة .

ولم تأخذه فى الحق لومة لائم ، فجهر على رءوس الأشهاد بنقد كل مسلك معوج ، سواء أكان من العامة أو الخاصة أو القضاة ، فامتد لسانه بتجريح القاضى ابن حديد ، ومظالم الوزير الأفضل ، والمنكرات والبدع التى يرتكبها العامة ، والدين منها براء ، وشاع أمره وذاع ، وكثرت الوشايات ، ونقلوا عنه أيضاً أنه قال بتحريم الجبن الرومى .

وتغير قاضى الإسكندرية من جهته ، فصار ينحرف عن الطريق كلما لقيه قادما عليه ، مع أنه أوصى بألا يغسله بيديه ولا يصلى عليه عند موته غير الطرطوشى ، ففعل ، أما الأفضل فقد أمر بالقبض عليه وحبسه بالفسطاط وطال حبسه ، فدعا عليه ، فما لبث أن استجاب الله دعوته ، ومات الأفضل لساعته مقتولا سنة ٥١٥ ،

وخلفه فى الوزارة المأمون البطائحى ، فلما سمع بالطرطوشى ، أطلق سراحه وأكرمه ، واستمع إلى نصائحه وإرشاداته ، فعمل بها ، ووافق على بناء مسجد باسمه فى الإسكندرية ، فرد إليه الطرطوشى هذا الجميل بما هو أجمل منه وأخلد على الزمان وهو كتابه الجليل « سراج الملوك » وقد ضمنه آراءه الصائبة القائمة على شريعة الإسلام ، بصدد الحكم العادل النزيه ، فكان حقاً سراجا منيراً يهتدى به كل حاكم مسئول من ملك وسلطان ووزير ، ويكفى دليلا على نفوذ تعاليم الطرطوشى فى الناس أن ابن تومرت ـ وهو تلميذه ـ قد قام بثورته فى المغرب ، وكان المشير الأول على ابن عبد المؤمن فى حكومته الجديدة ، على هدى من سلوك الطرطوشى وسراجه واستمساكه بالسنة ، ومات الطرطوشى بالإسكندرية سنة ٥٢٠ هـ وبها دفن ، وهو القائل :

« إن سألنى الله عن المقام بالإسكندرية ، لما كانت عليه فى أيام الشيعة العبيدية من ترك إقامة الجمعة ومن غير ذلك من المناكر التى كانت فى أيامهم ، أقول له : وجدت قوما ضُلالا فكنت سبب هدايتهم » .

فى هذا الجو المشحون بالاضطراب النفسانى واضطهاد العلماء ، دخل السلفى الإسكندرية ، وطرقت أذنيه الأنباء يوما بعد يوم ، فماذا يفعل وهو أصبهانى غريب ، وقد سمع بما فعل الأفضل بالعلماء الغرباء ، وعلم أن مدائح أبى الصلت للأفضل لم تفلح معه ، وأن انتقادات الطرطوشى لتصرفاته قد أدخلته السجن ، ثم أكرمه من جاء بعده ، وهو المأمون البطائحى .

لقد استوعب السلفى كل ذلك ، فلم يورط نفسه فى أى احتكاك بالقاضى ، أو اصطدام بالوزير ، وتحاشياً لهذه الفتنة شد الرحال إلى القاهرة فقضى بها ثلاث سنوات ما بين ٥١٥ و ٥١٧ ، وهمه الأول والأخير لقاء العلماء وتعليم الطلاب

ثم عاد إلى الإسكندرية كما قلنا ، وقد منّ عليه الله تعـالى بنعمة الاستقرار ، إذ تزوج بامرأة موسرة عرفت قدره وأمانته ، فوكلت إليه التصرف فى مالها ، وكانت هى الأخرى من أسرة يشتغل أفرادها بالعلم رجالا ونساء ، شيبا وشبابا .

خطا السلفى خطوات وئيدة فى بث الدعوة إلى الدين ، على المذهب الشافعى ، ولم يلجأ إلى العنف أو النقد والتجريح ، بل رأى بثاقب فكره أن يلتزم بقوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » . وشق طريقه ، فاختار عملا مقبولا لم يعهده أهل الإسكندرية من قبل فى أصحاب مجالس العلم بها ، ذلك العمل هو رواية كتاب « فتوح مصر » لعبد الرحمن بن عبد الحكم ، وذلك فى أوائل سنة ٥١٥ فأقبل عليه الجميع لسماع قصة الفتح الإسلامى لمصر والإسكندرية على يد عمرو ابن العاص ، نقلا ورواية عن أوثق المصادر ، التى تناولت تاريخ مصر والإسكندرية منذ أقدم العصور - ومن العجيب أن تدريس السلفى هذا الكتاب للعامة والخاصة كان على نمط تدريس علم الحديث ، أى بالرجوع إلى الأسانيد .

وبهذا التشويق الفريد فى نوعه لفت السلفى الأنظار إليه ، وجمع الرواد حوله فى حلقات تبغى السماع فى تؤدة وهدوء ، على أسس علمية وأدبية ، وبهذا جدد السلفى علما من علوم الإسلام ، قد اندثرت معالمه منذ فتح عمرو الإسكندرية ، ونعنى به (علم القصص) ، الذى كان (القاص) يقوم به : فيختلط بالناس فى الدكاكين والأسواق والميادين والمساجد والحروب فيعظهم ويحرضهم على الجهاد فى سبيل الله ، بالآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والنوادر الأدبية وقصص البطولات والمغازى .

وهكذا جمع السلفى بين الدين والأدب والتاريخ والأنساب والفتوحات والبلدانيات ، وبذلك يعتبر الرائد الأول للثقافة الشاملة فى الإسكندرية ، بنشر تاريخها على أهلها ، وهذا مدخل طريف ، كان له أكبر الأثر فى توطيد مركزه بها وفى خارجها ، لم يسبقه إليه غيره : ومن خلال هذا الأسلوب المدرسى استطاع

أن يغرس مبادىء الدين القويم فى النفوس ، وينأى بالدراسة عن كل ما يمس السياسة والساسة من قريب أو بعيد .

وفى عهد الخليفة الفاطمى الظافر ، كان وزيره ابن السلاّر الكردى الأصل ، قد تولى الوزارة سنة ٥٤٣ وكان سنيا شافعيا ، وعمر بالقاهرة وسائر المدن والقرى المصرية عدة مساجد ، فلما كان واليا على الإسكندرية وسمع بالسلفى ، أكرمه فعمر له مدرسة ، فوض إليه التدريس بها وسميت بالعادلية نسبة إلى الملك العادل الوزير ابن السلار ، وسميت بالسلفية نسبة إلى عالمها السلفى ، وقال ابن خلكان « ولم أر بالإسكندرية مدرسة للشافعيين سواها » (١) ولما كانت وفاة ابن السلار سنة ٥٤٨ ، فإن المدرسة أنشئت خلال السنوات الخمس التى سبقت وفاته ، والأرجح أن ذلك كان سنة ٥٤٤ هـ ، حيث كان السلفى قد جاوز أو قارب من العمر خمسة وسبعين عاما ، وهو مايزال قوى الذاكرة ، وافر العلم ، جم النشاط ، ثابت الأركان ، لاتزعزع مكانته فى الناس وأولياء الأمور هزات الخلافات السياسية أو المذهبية ، التى عصفت بغيره من قبل ومن بعد .

والآن آن الأوان لكى ننتقل بالقارىء إلى مرحلة الذروة من هذا البحث ، ونقصد بها الفترة الخصبة من الحياة العلمية بالإسكندرية التى قضاها السلفى بها ، والتى نود أن نفسح لها أوسع أبواب الكتاب تحت عنوان « الإسكندرية السلفية ، والسلفى الإسكندرانى » أو « السلفى والإسكندرية » ... فإلى هناك .

---

(١) وفيات الأعيان : جـ ١ ص ٤٦٧

(٤)

السلفي .. والإسكندرية

«والإسكندرية .. مازال بها الحديث
قليلا حتى سكنها السلفي ، فصار
مرحولا إليها في الحديث والقراءات»

— السخاوي —

التفاعل مع الزمان والمكان

لاشك أن العلم لاينمو ولايترعرع إلا بتفاعل العالم مع الزمان والمكان ، يأخذ منهما ويعطى للأجيال والأمصار ، ولهذا ينبغى أن نتوغل فى كيمياء هذه التفاعلات التى أدت فى النهاية إلى بلورة المفاخر السلفية ، فاتخذت مكانتها من التاريخ ، وكان لها من هذه المؤثرات العريضة ، ماجعل الفكر الإسلامى يزداد ازدهارا ، فاستحق السلفى أن يكون « شخصية فكرية » أصيلة ، ولأصالتها مبرراتها وعلائمها .

حقا إن الرجل شافعى المذهب ، والإمام الشافعى ركن من أركان هذا الفكر الإسلامى ، فهل جاء السلفى مكملا مافات الشافعى ؟ أم جاء مجدداً ومبتكراً ، لم يسبقه أحد فى هذا العمل التجديدى الابتكارى ؟ . . سنرى ونحكم .

ونتحدث فى هذا الفصل من الكتاب عن الإسكندرية السلفية ، والسلفى السكندرى ، بمعنى أن الإسكندرية ـ منذ نزل بساحتها السلفى ، وأقام بها ، إلى أن توفاه الله ـ قد كان لها طابعها المميز فى هذه الفترة من الزمان ، فما هو هذا الطابع ، حتى نستكشف البيئة الجديدة التى عاش فيها الرجل ، الذى ـ لطول مقامه بها ـ أصبح يعد فى الإسكندرانيين ، إقامة ووفاة ، وإن كان من الأصفهانيين أصلا ومولدا .

الإسكندرية السلفية

وهى بالذات إسكندرية القرن السادس الهجرى ، إسكندرية الفاطميين والأيوبيين ، إسكندرية الصراع المذهبى بين السنة والشيعة ، إسكندرية الثورة السياسية والثقافية ، إسكندرية الأعلام الشوامخ فى أزهى عصور الفكر الإسلامى الخلاق ، إسكندرية النضال المرير ضد القراصنة ومؤامراتهم .

خمسة وستون عاما قضاها السلفى فى هذه البقعة الفذة من أرض مصر ، لم يغادرها غير مرة واحدة فى حياته ، عندما زار القاهرة ، زيارة سلخت من عمره ونشاطه ثلاث سنوات ، ثم قفل راجعا إلى الثغر الذى استطابه دارا ، وتخيره مجالا ومصالا لفكره السباق ، ولم يبرحه بعد ذلك حتى لقى ربه .

وفى سنة ٥٦٩ توفى نور الدين محمود زنكى بدمشق ، ودبر جماعة من الموالين للدولة الفاطمية مؤامرة مع ملك صقلية يقصدون بها إعادة الحكم الفاطمى إلى ما كان عليه ، وكان من المتآمرين عمارة اليمنى الشاعر ، وقد استطاعوا أن يضموا إلى المؤامرة شخصا مجهولا من الإسكندرية .

وانخدع الصقليون ، فإذا بهم يشنون غارة بحرية على الثغر ، فى أواخر تلك السنة ، وعلى الرغم من استشهاد أكثر من مائتى مقاتل بالإسكندرية فى سبيل شرف الدفاع عنها من أتراك وأيوبيين وكنانيين ومغاربة وعرب البحيرة ، فإن الحملة قد منيت بالفشل ، وارتدت على أعقابها خاسرة ، وكشف صلاح الدين أسرار المؤامرة وكان الإعدام جزاء الخونة .

ترى هل كان لهذه الواقعة (١) أثر فى تفكير السلفى ؟ كلا ، فقد كان الرجل

---

(١) تحدث عنها القاضى الفاضل والعماد الكاتب .

ـــ على ماقلنا ـــ بعيدا عن الأحداث ، منزويا فى مدرسته ومنزله ، يعمل صامتاً فى ميدان العلم ، وهو لا يقل أهمية عن ميدان النضال ، والكل منهما دولة ورجال .

الإسكندرية يومئذ (جزيرة) فى (جزيرة) مفصولة من (جزيرة) ، وليس فى ذلك تلاعب بالألفاظ أو تنميق للعبارة ، نقصد بهما التشويق والإثارة ، وإنما هو الوصف الجغرافى الدقيق للإسكندرية ، فى هذه الحقبة التى نسلط عليها أضواءنا الكشافة ، لنوضح أمام القارىء معالم الصورة الحقيقية ، نابضة بالحياة ، ناطقة بصوتها المسموع ، دافقة بأضواء منارها ، على أوسع الآفاق ، وأبعد الأعماق .

(جزيرة فاروس) التى يتوسطها الفنار ، كانت مفصولة عن الساحل الإفريقى ببوغاز مائى ، تم ردمه فيما بعد ، فاتصلت الجزيرة بالساحل وسميت (جزيرة رأس التين) ، ثم (رأس التين) فقط ، ويذكرها السلفى باسم (الجزيرة) وهى التى عاش فيها ، ومات فيها .

قبل ذلك الردم ، كانت الإسكندرية أو (جزيرة الرمل) ، يحدها البحر شمالا ، ويحيط بها خليج الإسكندرية (ترعة المحمودية حاليا) ، ممتدا من فرع النيل الغربى ، وهو الفرع الكانوبى حتى يصب فى البحر من جانبها الغربى .

هذه (الجزيرة) كان يفصلها خليج الإسكندرية عن جزيرة أخرى من الغرب ، وتنحصر بين البحر وبين الشواطىء الشمالية لبحيرة مريوط ، وتضم الآن مناطق الورديان والقبارى والمكس والدخيلة ، ولهذا قالوا إن الإسكندرية كانت تمتد من (أبو قير) شرقا إلى (أبو صير) غربا ، على شريط من الأرض بين البحر والبحيرة ، يأخذ فى الضيق كلما اتجهنا إلى الغرب .

ومنذ وضع تخطيطها الإسكندر الأكبر ، وشق طرقها ونظم ميادينها ورثته البطالمة ، وهى كما وصفوها وشبهوها برقعة الشطرنج : شوارعها مستقيمة طولا وعرضا ، أطولها من الشرق إلى الغرب يسمى (الطريق الكانوبى) أو (طريق أبو قير) وهو ما يسميه العرب (المحجة الكبرى) ونسميه نحن (طريق الحرية) الممتد من (باب القمر) إلى (باب الشمس) ومكانه الحالى (باب شرقى) أى الباب الشرقى للمدينة حيث كانت تنتهى عنده مظاهر العمران ، ثم تتسع المسطحات الرملية والخلوات حتى أبوقير ، وتسمى اليوم بمنطقة (الرمل) ، كما أن أهم شوارعها الرأسية مايسمى الآن بشارع النبى دانيال ، ويمتد من البحر شمالا ، ويقطع طريق الحرية ، ويمضى إلى الجنوب حتى خليج الإسكندرية ، ذلك الخليج الذى يمد أرجاء المدينة بقنوات من الماء العذب ، تكسوها أغطية أشبه بالقناطر ، يتصل بعضها ببعض ، وتمتلىء بها صهاريج سفلية وآبار ، وتزدهر بها الدور والقصور والبساتين التى تكتنفها ، وأهمها « قصر الإسكندرية » الذى توفى به الملك توران شاه أخو صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٧٦ : على ما ذكره صاحب «الروضتين» .

وما من زائر أو رحالة حل بالإسكندرية إلا وذكر عظمتها وأشاد ببنائها ، ووصف منارها وخليجها المعروف وآثارها ومسلتيها وعمود السوارى بها ، وملعبها الشهير ، وأسوارها ، وأعمدتها القائمة والنائمة ، وديوانها (جمركها) ومدارسها ومجالسها وكنائسها وأديرتها وصهاريجها ومزاراتها وفنادقها ، وقصورها وبساتينها .

أما منطقة العمران من مدينة الإسكندرية فى هذا العصر فهى المحصورة بين البحر شمالا والضفاف الشمالية من الخليج فى استدارته من الغرب والجنوب حتى الباب الشرقى ، حيث تبدو آثار أسوار الإسكندرية القديمة من الناحية الشرقية ،

ومابعد ذلك حتى أبوقير ، تقع (منطقة الرمل) . وهى التى وصفها أبو الفداء بقوله : « وبالإسكندرية جزيرة الرمل وهى بين خليج الإسكندرية وبين البحر المالح ، وطولها بقدر نصف مرحلة ، جميعها كروم وبساتين وترابها رمل نظيف ، حسن المنظر ، وخليج الإسكندرية الذى يأتيها من النيل من أحسن المتنزهات لأنه ضيق مخضر الجانبين بالبساتين » . (١)

وكتب كاتب مراكشى مجهول من أهل القرن السادس يصف الإسكندرية فقال إنها « أعظم مدن مصر » و « تعجب كل من رآها لبهجتها ، وحسن منظرها ، وارتفاع مبانيها وإتقانها ، وسعة شوارعها وطرقاتها ، وهى برية بحرية ، وفيها من النعم والأرزاق والفواكه ماليس ببلد ، مع طيب هوائها وتربتها » . (٢)

وإذا كانت الإسكندرية فى هذا العصر قد ازدانت بالكثير من معالم حضارتها ، وآثار أمجادها ، فإن مايهم القارىء منها هنا هو آثارها الإسلامية من المقابر العامة والمساجد والرباطات والخانقاه ، وقد برزت أسماؤها من ثنايا مؤلفات السلفى نفسه ومن جاء بعده من المؤرخين والرحالة ، على امتداد القرون الثلاثة من الخامس حتى الثامن ، مثل (مقبرة وعلة) عند باب البحر حيث دفن الطرطوشى والسلفى وسند بن عنان وغيرهم من الصالحين ، وهى الآن فى آخر السكة الجديدة بحى الجرك ، و (مقبرة الديماس) وهى (كوم الدكة) الحالى حيث دفن كثيرون من أيام الفتح الإسلامى ، وعندما قامت البعثة البولندية بالحفر فى هذه المنطقة ، بحثا عن آثار المسرح الرومانى ، ظهرت مقابر عربية كثيرة تحت أنقاض متراكمة فوقها مع مرور الزمن ، وكان بالإسكندرية فى القرن السادس « دار الحكيم أرسطاليس »

---

(١) المختصر فى أخبار البشر .

(٢) الاستبصار فى عجائب الأمصار .

وفيها حبس الأفضل غريمه المهندس الأندلسى أبا الصلت أمية (١) وكان بها أيضاً «مجلس سليمان» من الأعمدة الرخامية . (٢)

ومن المساجد القديمة التى اندثرت ثم امتدت إليها الأيدى بالتجديد والتعمير ، إبقاء على ذكرى أصحابها أرباب الفضل (المسجد الغربى) وكان يسمى (جامع الألف عمود) وأصله كنيسة قديمة ، ولعله مسجد عبد الله بن عمرو بن العاص ، الذى اشترك مع أبيه فى فتح الإسكندرية ، ويسمى الآن (المسجد العمرى) عند ملتقى شارعى الخديوى الأول وأبى الدرداء .

أما أبرز المساجد والمدارس فى الأسكندرية السلفية فنذكرها فيما يلى :

١ — جامع العطارين : أى مسجد الجيوشى أو جامع الأسكندرية أو جامع الثغر أو « الجامع » فقط ، وكان فى الأصل كنيسة ، فانقلب مسجداً ثم عمره بدر الجمالى أمير الجيوش سنة ٤٧٧ هـ من الغرامة المالية التى فرضها على أهل الأسكندرية مسلمين ومسيحيين وقدرها ١٢٠ ألف دينار ، تأديباً لهم على الثورة التى قاموا بها ، وقد أراد بإنشائه أن يكون مركزاً لنشر المذهب الشيعى بالأسكندرية ، إرضاء للخليفة الفاطمى، ولايزال قائماً إلى يومنا هذا ، وسمى باسمه «شارع جامع العطارين» المتقاطع مع طريق الحرية الحالى ، وسمى بالعطارين لوجوده فى «سوق العطارين» ، حيث راجت تجارة التوابل من الشرق فى طريقها عبر الأسكندرية إلى أوروبا .

٢ — مسجد القمراء : ويقع عند باب رشيد أو باب شرقى حالياً ، وكان يعتبر مدرسة علمية حيث قرأ فيه ابن الطفيل العبدرى المقرى، كتاب « التذكرة »

---

(١) معجم الأدباء : ياقوت الحموى .

(٢) تحفة الألباب : الغرناطى وقد سكن الإسكندرية سنة ٥٠٨

فى القراءات لابن غلبون المقرىء سنة ٥٠٥ هـ [١] .

٣ — مدرسة الطرطوشى : بنتها للإمام أبى بكر الطرطوشى زوجته وهى خالة أبى طاهر بن عوف الزهرى من مالهـا الخاص ، وجعلت مسكنهما فوقها ، وتخصصت هذه المدرسة فى تدريس الفقه المالكى ، وأغلب الظن أنها أنشئت قبل سنة ٥١٥ أى قبل وفاة الطرطوشى بخمس سنوات على الأقل ، وقد أشادوا بفضل الطرطوشى فقالوا إنه « نقل العلم إلى الإسكندرية » إشارة إلى تنكيل الأفضل بعلمائها قتلا وتشريدا ، كما ذكرنا ذلك مفصلا ، وكانت تقع هذه المدرسة فى حى الجمرك بالقرب من مسجده الحالى ، وعلى هذا كانت هذه المدرسة نافذة الطرطوشى التى يطل منها بعلمه الغزير على الإسكندرية وما وراءها .

٤ — مسجد الطرطوشى : وهو لايزال قائما إلى اليوم عند باب البحر ويضم ضريح الطرطوشى ، وقد أمر الوزير الفاطمى المأمون البطائحى بإنشائه من مال ديوانه سنة ٥١٦ ، تكريما الإمام الطرطوشى ، وبناء على اقتراح تقدم به إليه عندما زاره بالقاهرة وأهداه كتابه « سراج الملوك » جزاء وفاقا على فك سراحه ، بعد أن زج به الأفضل فى السجن ، وقد كتب المأمون إلى قاضى الإسكندرية ابن حديد بتنفيذ فكرة المسجد بظاهر الثغر على شاطىء البحر ، حسبما يراه الطرطوشى وأن يبالغ فى إتقانه ، ومن الطبيعى أن يكون بناء هذا المسجد قد تم بعد بناء المدرسة ، وكلاهما منسوب إلى الإمام الطرطوشى ، الذى اتخذ من المسجد والمدرسة مركزين لمكافحة التشيع وإعلاء كلمة السنة ، ومحاربة البدعة .

٥ — المدرسة العادلية : وهى المدرسة السلفية وكانت تقع فى هذه المنطقة التى هى

---

(١) فهرست مارواه عن شيوخه ابن خير الإشبيلى .

باب البحر بالقرب من (مقبرة وعلة) عند (السكة الجديدة) . بناها الشافعية الوزير العادل ابن السلار سنة ٥٤٣ وقيل سنة ٥٤٤ ، وفوض التدريس بها للإمام الحافظ السلفى ، وكانت بالقرب من داره ، داخل السور عند الباب الأخضر بالقرب من مدرسة الطرطوشى ، وتخصصت فى تدريس الحديث والفقه الشافعى ، فسميت أيضا بالمدرسة الشافعية ، وفيها سمع عليه صلاح الدين الأيوبى فى رمضان من عام ٥٧٢ ، وقال ابن خلكان « ولم أر بالإسكندرية مدرسة للشافعيين سواها » (١) ولعله يقصد بذلك أنها أول مدرسة للشافعيين بها ، وإلا فهناك مدرسة أخرى سنذكرها بعد قليل .

٦ ــ مسجد المؤتمن : وينسب إلى بانيه المؤتمن سلطان الملوك نظام الدين أبى تراب حيدرة والى الإسكندرية فى خلافة الآمر بأحكام الله ، عندما تولى ولاية الإسكندرية سنة ٥١٧ ، وكان مكانه بالمحجة الكبرى ، أى طريق الحرية وهو الطريق الرئيسى بالأسكندرية الممتد من غربيها إلى شرقيها ، وهو أطول طرقها على الإطلاق وأوسعها ، وعلى جانبيه كانت توجد أهم منشآت الأسكندرية على مر العصور .

٧ ــ المدرسة المكينية : وذكرها السلفى فى « معجم السفر » وكان إمامها هو أبو القاسم السفاقسى البصير ، ولعلها تنسب إلى أبى المعالى محمود بن ناصر بن القاسم الكاتب المكينى المتوفى سنة ٥٢٥ ، وقد كتب إليه بالأسكندرية وقرأ علوم الأوائل ولاندرى أين كان مكانها ، وهى من المدارس التى اندثرت مع مرور الزمن .

٨ ــ المدرسة العوفية : وتنسب إلى الحافظ أبى طاهر بن عوف الزهرى

---

(١) وفيات الأعيان .

المتوفى سنة ٥٨١ هـ تلميذ الطرطوشى وكانت تقع فى المحجة الكبرى (طريق الحرية حاليا) من الجهة الغربية من غير شك ، وخصصت للمذهب المالكى ، بناها الوزير الفاطمى رضوان بن ولخشى سنة ٥٣٣ ، غير أن ابن ميسر قد ذكر أنها بنيت سنة ٥٣٢ فى السنة التى تولى فيها شمس الخلافة مختار الأفضل صاحب بهرام ولاية الإسكندرية ، وقرر فيها ابن عوف لتدريس الفقه والحديث والتفسير ، وقال صاحب « تاريخ الخلفاء »[١] وهى « أول مدرسة فى مصر فى أواخر العهد الفاطمى » وسميت بالرضوانية أيضا ، وكذلك بالحافظية .

٩ — مدرسة ابن جارة[٢] : وكانت مدرسة ومسجدا فى آن واحد ، حيث كان يجتمع الطلاب والفقهاء دارسين ومدرسين ولكل من المدرس والدارس مرتب شهرى وإن كان ضئيلا ، وقد شيدها الصاحب الوزير الصفى عبد الله بن على ناظر ديوان الاسكندرية فى أوائل عهد صلاح الدين الأيوبى تقديراً منه لذكرى الفقيه المغربى المالكى السكندرى أبى القاسم بن جارة المتوفى سنة ٥٣٣ ، والذى كان من أكابر العلماء ولا يخاف فى الحق لومة لائم ، وكان يحضر عنده بالمدرسة أعيان الفقهاء وحذاق الطلاب وعلى رأسهم الوزير نفسه ، ولما مات ابن جارة فى عهده ، انتقلت إدارة المسجد إلى ابنه فمات هو أيضاً فى عهد الصاحب ولم ينجب ، فرأى أن يتولاها من يخلف الشيخ ، على أن يكون له تدريس الفقه والإفتاء بالمدرسة ، إحياء لذكراه كعالم كان له قدره وهيبته ، فعهد بذلك إلى قاضى الإسكندرية وخطيبها جمال الدين الريغى ، الذى أبى أن يتناول على عمله هذا أجرا ، ووقف

---

(١) السيوطى .

(٢) المفاخر السنية : الحسن بن عتيق .

الصاحب على المدرسة - فيما وقف عليها - ما يسمى بالوقف الضاحكى بالاسكندرية وقدره ديناران، كان القاضى ينفقهما على تعمير مساجد أخرى بالثغر .

١٠ ــ المدرسة الصلاحية : أو المدرسة الشافعية أو مدرسة الشافعيين ، بناها السلطان صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٧٧هـ ، بعد وفاة السلفى بعام واحد ، وأراد بإنشائها الاستزادة من نشر المذاهب السنية ، لطمس معالم المذهب الشيعى الذى كانت عليه الدولة الفاطمية ، وربما أراد بإنشائها ، على ضريح أخيه توران شاه دفين الإسكندرية ، تخليد ذكراه ، وقد توفى فى نفس السنة التى توفى فيها السلفى ، وكانت « لاتبطل القراءة منها ولاطلب العلم ليلا ونهارا » .

ولقد سمع صلاح الدين ومعــه ولداه والقاضى الفاضل كاتب إنشائه والعماد الكاتب الأصبهانى وسائر كبار الحاشية دروسا فى الحديث على الإمام أبى طاهر بن عوف من موطأ مالك برواية الطرطوشى سنة ٥٧٧ ، وقد سجل هذه الواقعة القاضى الفاضل وهنأ صلاح الدين بهذا السماع ، وقارن بينه وبين الرشيد وهو يسمع من الإمام مالك نفسه ببغداد ، ومعه ولداه الأمين والمأمون ، ولاندرى إن كان هذا قد تم بهذه المدرسة الشافعية ، أم بالمدرسة العوفية المالكية ، طالما أن صلاح الدين كان يجل الإمام ابن عوف ، وقد خلف الطرطوشى على المالكية ، والأحرى أن يسمع منه فى مدرسته ، المهم هو أن المدرسة الصلاحية ، كانت المدرسة الشافعية الثانية بالاسكندرية .

وقد بالغ بعضهم فقال إن الإسكندرية كانت تضم بين أرجائها إذ ذاك مائة وثمانين مدرسة لطلب العلم ، منها الرشيدية والحافظية والبصاصية والنبيهية ومدرسة بنى حديد ومدرسة ابن حباسة [١] وقد استطعنا والحمد لله كشف الغبار عن بعض

(١) بدائع البدائه : ابن ظافر + الالمـام : النويرى السكندرى .

هذه المدارس ، مما يشير إلى كثرة مراكز الثقافة بالأسكندرية المسماة بالمدارس ، كما كان بها (جامع الدوانيق) والمسجد (المؤيد) ، وكان هناك رجال مهمتهم نقل الإجازات العلمية بين بغداد والأسكندرية ، فسموا بالإجازاتية ، منهم أبوالحسن على بن النفيس البغدادى الإجازاتى واشتهر بابن المقدسى وابن المكبر سمع ببغداد ودمشق ومصر والأسكندرية ومات بالقاهرة سنة ٦٤٠ .

١١ — دار المغاربة : لما كانت الدولة الفاطمية من أصل مغربى ، فقد استخدمت أبناء جاليتها فى المناصب الحكومية ، ومن الطبيعى أن تكون الجالية المغربية أكبر الجاليات الإسلامية فى مصر والأسكندرية ، وكان من سياسة صلاح الدين كسب هذه الطائفة إلى جانبه : بعد أن انقضت أيام الدولة الفاطمية ، فأنشأ دارا للمغاربة بالأسكندرية ، لتحويل أنظارهم عن المذهب الشيعى ، الذى كانت عليه دولتهم الغاربة وهذه‌الدار أشبه بجامعة إسلامية جديدة بالأسكندرية ، فإذا كانت‌المدارس التى ذكرناها قد خصصت للفقه والحديث على أحد المذهبين الشافعى أو المالكى ، وعهد بذلك إلى السلفى الشافعى أو ابن عوف المالكى ، فإن دار المغاربة كانت شاملة لجميع المذاهب السنية بالإضافة إلى مختلف فروع الثقافة الإسلامية ، وجعلها لطلاب العلم والتعبد من الوافدين إلى الأسكندرية من الأقطار النائية ، ولاسيما بلاد المغرب ، فيلقى كل واحد منهم مسكنا يأوى إليه ، ومدرساً يعلمه الفن (الفرع من العلوم الإسلامية) الذى يريد تعلمه ، وإجراء (راتباً منتظماً) يقوم به (أى يكفيه) فى جميع أحواله ، واتسع اعتناء السلطان (أى صلاح الدين) بهؤلاء الغرباء الطارئين (أى الوافدين) ، حتى أمر بتعيين حمامات يستحمون فيها ، متى احتاجوا إلى ذلك ، ونصب لهم مارستاناً (أى مستشفى) لعلاج من يمرض

منهم ، ووكل بهم أطباء يتفقدون أحوالهم ، وتحت أيديهم خدام يأمرونهم بالنظر فى مصالحهم ، من علاج وغذاء ، ورتب رجالا لزيارة المرضى الذين يترفعون عن العلاج بالمارستان من الغرباء خاصة ، ويبحثوا بما يرونه إلى الأطباء ليعالجوهم[١].

وبهذا عرفت الإسكندرية النظام الجامعى ، والتخصص فى فروع العلم ، والمدينة الجامعية ، والاهتمام بالمغتربين من طلاب العلم على نحو متكامل من توفير الخدمات العلمية والصحية والاقتصادية والضمان الاجتماعى ، والتفرغ للعلم ، كل ذلك عن طريق «دار المغاربة» بالإسكندرية ، أما شيخ السلفى المسمى محمد بن عبد الجبار الفرسانى المغربى (المنسوب إلى فرسان وهى قرية بشمال إفريقية ببلاد المغرب) ـ وقد ذكره الذهبى[٢]ـ فلا يبعد أن يكون السلفى قد أخذ عنه فى الإسكندرية .

١٢ ــ المساجد والرباطات : وعرفت الإسكندرية عدداً من دور العبادة الصوفية كالرباط والخانقاه ، التى كان يأوى إليها المتصوفة والمعتزلة من الزهاد والعباد ، وكان السلفى نفسه يسكن فى رباط بالإسكندرية مع رفيق له ، ولعل ذلك كان عند قدومه إليها ، وفيما بعد أنشأ بها الأمير الهكارى ـ متولى الإسكندرية والمتوفى سنة ٦٨٣ ــ « رباط الهكارى[٣] » خارج باب رشيد وقد دفن فيه بعد موته .

وهذا ابن جبير صاحب الرحلة المعروفة ودفين الإسكندرية بمقبرة[٤]

---

(١) رحلة ابن جبير .

(٢) المشتبه فى الرجال .

(٣) وفيات الأعيان : ابن خلكان .

(٤) التكملة : المنذرى .

عمرو بن العاص ، ونرجح أنها مقبرة الديماس أى كوم الدكة حيث توفى ودفن سنة ٦١٤ ، وقد أشاد بفضل صلاح الدين على الإسكندرية ، ورد إليه الكثير من الإصلاحات والمنشآت بهـا كالمدارس والحارس والمسالح والاستحكامات فى الإسكندرية ، فهى على حد قوله « أكثر بلاد الله مساجد ، ما بين اثنى عشر ألفاً وثمانية آلاف ، فى كل موضع منها أربعة أو خمسة ، وربما كانت مركبة ، أى أنها مدرسة ومسجد فى آن واحد ، ولها أئمة يرتبهم السلطان ، للواحد خمسة دنانير فى الشهر أو أكثر أو أقل » ، ثم يؤكد لنا أن لصلاح الدين ، جامعاً هو مصلى الجمعة المالكيين » . وذلك بخلاف ماشيده من مدارس للشافعيين ، ليستعين بهؤلاء وهؤلاء من أهل السنة ، على الشيعة والقضاء على مذهب التشيع ، ومحو كل أثر للفاطميين فى الإسكندرية بالذات .

وذكر الهروى(١) أن ابن منقذ أخبره أنه وجد بالإسكندرية اثنى عشر ألف مسجد ، فسأل الهروى القاضى الكاتب عن ذلك فقال له « إن الملك العزيز عثمان (وهو ابن صلاح الدين) كشف ذلك فوجدوا بها ألف مسجد .

ولما قدم ابن خزيمة الإسكندرية سنة ٥٦٠ وأقام بها أربعين سنة ، أى أنه عاصر السلفى بها ، قال إن بها ثمانمائة مسجد منها مائة وتسعون للخطبة « وكان بها مائة وثمانون مدرسة لطلب العلم ، حتى كان بالمدرسة خطاطون يكتبون على الفتاوى(٢)

---

(١) رسالة فى فضل الاسكندرية : السيوطى

(٢) رسالة فى فضل الاسكندرية : السيوطى

وهناك «جزيرة الإسكندرية» ـ وهى رأس التين حالياً وقبل اتصالها بفاروس بردم القناة التى كانت تصل ما بين الميناوين ـ وكان السلفى يسميها (الجزيرة) ، ويظهر أن كثيرا من المتطوعين للدفاع عن الإسكندرية كانوا يرابطون بها ، تقرباً إلى الله تعالى وجهاداً فى سبيله ، اعتقاداً منهم بما ورد من أحاديث عن فضل الرباط بالإسكندرية ، وقد أورد السيوطى وابن الصباغ من قبله عدداً من هذه الأحاديث ، وقال السلفى إن فلاناً « كان من المرابطين بالجزيرة من الإسكندرية . »

ولقد أشار ابن جبير إلى أن أهل الإسكندرية ـ كما لمس ذلك بنفسه ـ كانوا « يعملون فى معايشهم بالليل والنهار على السواء ، مما يمكن أن نفهم منه أن الحركة والنشاط فى شتى ضروب الحياة الدنيوية والدينية هما السمة التى عرفت بها الإسكندرية إذ ذاك ، ولاسيما إذا عرفنا أن هذه المدينة قد بلغت أوج ازدهارها الاقتصادى والعمرانى والثقافى فى عصر السلفى ، وكان بها عدد ضخم من الطوائف الأجنبية ولهم فنادق وأسواق ومصالح كثيرة فضلا عن المسلمين من المشارقة والمغاربة تجاراً وحجاجا وطلاب علم وفقهاء . وليس هذا بكثير على هذا الثغر الإسلامى الذى أعده خلفاء الفاطميين وسلاطين الأيوبيين من بعدهم لسحق غارات الصليبيين على مصر والشام والعالم الإسلامى .

وإذا كانت المبالغة قد مدت يدها إلى هذه الأعداد الضخمة من المؤسسات العلمية بالأسكندرية ، إلا أن الحقيقة التى تبرز لنا ـ على الرغم من ذلك ـ هى أن « الأسكندرية السلفية » كانت تحتوى على مراكز للثقافة الإسلامية الشاملة ، وبها جميعاً ناطحت مدارس بغداد ودمشق والكوفة والموصل والحرمين وقوص والقاهرة .

الإسكندرية محظوظة

هذا ، وإلى جانب هـــذه الحقائق الناطقة بالمكانة الثقافية الكبرى التى تبوأتها الأسكندرية ، نرى أن هذه المدينة كانت محظوظة ، فهناك عوامل أخرى ساعدت على خلق هذه المكانة والحفاظ عليها عدة قرون

ذلك أنه كان من عادة سلاطين الدولة الأيوبية وملوكها أن يرسلوا الصدقات إلى الأسكندرية ، وكان يخصص منها قدر كبير للمدرسين والأئمة فى المدارس والجوامع ، فضلا عن الرواتب المقررة للطلاب المنقطعين للعلم ولاسيما الوافدين ، المقيمين بدار المغاربة ، أى أن الأسكندرية عرفت النظام الجامعى والمدينة الجامعية وبدل التفرغ قبل غيرها من المدن الإسلامية .

وأكثر من ذلك ، فإن الأسكندرية قد عرفت نظام (المعاشات) و (الضمان الاجتماعى) بالنسبة للعلماء وذرياتهم من بعدهم ، وكان ذلك بناء على رأى تقدم به فقيه الأسكندرية أبو الطاهر بن عوف ، ويقضى بتحديد رسم على صادرات ديوان الأسكندرية (وهو الجمرك) من بلاد الإفرنج ، ويخصص لمرتبات فقهاء الإسكندرية وأهليهم من بعدهم ، وقد تبنى صلاح الدين هذا الرأى وعمل به ، وجعل للصادر مديراً يتولاه ، ويعاونه موظفون آخرون .

ومن أهم العوامل التى ساعدت على تنمية المدارك العلمية عند علماء الإسكندرية وطلاب العلم معهم ، وجود الكتب الإسلامية فيها بكثرة ، فكان يمليها ويكتبها أناس متفرغون لنسخها وتجليدها وتقدير أثمانها ، فظهرت طوائف النساخين والوراقين والمجلدين وسماسرة الكتب ؛ وكان مع هذا منهم علماء وفقهاء ، لهم وزنهم واعتبارهم فى الحركة الفكرية .

وكانت الكتب بصفة عامة موضع اهتمام الفاطميين والأيوبيين على السواء ، ففي أيام المستنصر بالله الخليفة الفاطمي ، نهب المتمردون عليه «دار العلم الحاكمية» بالقاهرة، وأحرقوا الكثير من كتبها، واتخذوا من جلودها نعالا ، وماتبقى منها نقل عبر النيل إلى الإسكندرية سنة ٤٦١ ومابعدها ، حملها الأتراك إليها فباعوها بثمن بخس ، وأحرقوا العديد من أوراقها ، لأنها كانت تنطوى على أسرار الفاطمية، وماأشد كراهيتهم لهم .

« وكان السلفي نفسه مغرماً بجمع الكتب،حصل منها الكثير ، وكتب بخطه — ولاسيما من الأجزاء — مالا يعد كثرة » هكذا قال السبكي[١] ، ولما انتقل السلفي إلى رحمة الله ، سار الوجيه بن صورة المصري دلال الكتب وسمسارها من مصر إلى الإسكندرية ، لبيع كتبه التي كانت وحدها عماد المدرسة السلفية ، إن لم تكن عماد الإسكندرية كلها بل الشرق كله ، سواء منها مقتنياته أو مخطوطاته أو مذكراته أو أماليه .

وكان السلفي معنياً كل العناية بعلم الحديث، ولذا نراه يروى ويحدث بكتاب لابن الصباغ المتوفى على الأرجح بعد سنة ٤٦٠ هجرية عن «فضائل الأسكندرية» كله أحاديث لها أسانيدها عن ثواب المرابطين بالأسكندرية ، وسمعه السلفي من إبراهيم بن الحسن الموسوى نقيب النقباء بمصر ، وسمعه من السلفي بالأسكندرية سنة ٥٧٣ الإمام عز الدين بن رواحة الأنصاري الحموى ، وهذا بدوره رواه بحلب سنة ٦٣٥ .

وفيما بعد سنرى الإمام السيوطي يكمل هذا الكتاب ويزيد عليه معالم جديدة عن

---

(١) الطبقات الكبرى : السبكي .

الأسكندرية ، تحدث بها ابن خزيمة الذى دخل الاسكندرية سنة ٥٦٠ وعاش بها أربعين سنة ، كأنها كانت أربعين يوما فيا لها من مدينة بها حدائق وماء رائق ، وأهلها للخير فاعلون ، لاتبطل القراءة منها ولا طلب العلم لا ليلا ولا نهاراً ، على حد قول ابن خزيمة(١) .

وفى عصر السلفى عرفت الإسكندرية (دور الكتب) الموقوف عليها من الحكومتين المركزية والمحلية ، وكان يتولى الإشراف على هذه الكتب القيمة رجال أمناء على العلم ، ومن أهل البصر بأبعاد الثقافة ، فقد ذكر السلفى أن أبا عبد الله الطائى محمد ابن الحسن بن زرارة الشاعر الأديب النحوى اللغوى ، كان يشرف على بيمارستان الإسكندرية (المستشفى) ، ويتولى الكتب المحبسة (أى الموقوف عليها من الدولة) فى الجامع ، ولعله جامع عمرو بن العاص أقدم جوامع الإسكندرية أو جامع المالكية الذى أنشأه صلاح الدين ، وحدثنا عنه ابن جبير ، أو غيرهما . المهم أنه كانت للطائى هذا حلقة لإقراء الأدب(٢) ، إلى جانب وظيفته ، كأمين للمكتبة العامة ومدير للمستشفى العام بالإسكندرية .

واكتظت المعاهد العلمية بخزائن المخطوطات فى دار الحديث ومدرسة الطرطوشى ومدرسة السلفى (٣) ، ولقد ذكر أصحاب التراجم فيما ذكروا أن أبا عبدالله محمد بن يوسف بن سعادة المرسى الأندلسى ، المحدث ، والمتوفى بشاطبة سنة ٥٦٦ ، رحل إلى الإسكندرية ، فلتى أبا الحجاج يوسف بن نادر الميورقى ، ولتى السلفى ، وقالوا إن ابن سعادة هذا كان عنده أصول بخط السلفى ، لصحيحى

---

(١) رسالة فى فضل ثغر الاسكندرية : السيوطى

(٢) راجع أيضا المقفى للمقريزى وبغية الوعاة : للسيوطى .

(٣) خزائن الكتب العربية فى الخافقين : فيليب طرازي .

البخارى ومسلم فى سفرين ، لم يكن عند الشيوخ مثل كتبه فى صحتها وجودتها وإتقانها .

كما أن أبا الحسن بن مشرف الأنماطى — على ماذكره السلفى — كان كثير السماعات ، محباً لطلب العلم ، وسمع السلفى منه كتباً لابن قتيبة — وهى فى القراءات كما نعلم — ولغير ابن قتيبة ، وانتقى من أصوله التى لا يرتاب فيها أكثر من مائة جزء ، وكان معنياً باقتناء الكتب ، وخلف منها ما لم يخلف غيره بالإسكندرية ، واشترى السلفى كثيراً منها . . .

تلك هى الإسكندرية السلفية ، فأين منها السلفى الأسكندرانى .

السلفى الأسكندرانى

قلنا إن السلفى قدم الإسكندرية فى عام ٥١١ هـ ، وهى تموج بالاضطرابات السياسية ، ويعانى علماؤها وفقهاؤها من الوزراء الفاطميين أبشع ألوان التنكيل والتقتيل والتشريد ، فى فترة يطلق عليها السلفى « أيام الفتنة » ، لهذا عاش السلفى عندما دخل الإسكندرية فى رباطها وكان رفيقه الزاهد الأبهرى كاسول بن أبى بكر ، وكان قد لقيه قبلا بقزوين وصاحبه بها فترة ، فما لبث غير قليل حتى عمد إلى مصر ، وهى تطلق يومئذ على الفسطاط ، هجرة منه إلى الله ورسوله ، وفراراً بدينه وعلمه من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، ورغبة منه فى التعرف على معالم الثقافة القاهرية الفاطمية ، والالتقاء بعلمائها الذين عمرت بهم حلقات الدرس فى (الجامع الأزهر) الفاطمى القاهرى و (جامع عمرو بن العاص) السنى الفسطاطى بمصر القديمة ،

وبها ثوى (الإمام الشافعى) مفخرة مصر والمصريين ، وصاحب المذهب الفقهى الذى عليه السلفى .

ولقد آثر السلفى بهذه الرحلة أن يكون على سجيته ، فلم يشترك فى معمعة الخلافات ، بل تخير المسلك الهادىء ، والنفس الطويل ، سواء فى دراسته العلمية بالفسطاط على أيدى علمائها ، أو فى تدريسه هو لطلاب العلم بها حيث كان له حلقة لتدريس الحديث بجامع عمرو كما لسائر العلماء به من حلقات ، وبهذا نجا من كل سوء ، وساعدته فى ذلك سنه الناضجة ، وخبرته بالطبائع البشرية ، وتمسكه بأصول الدعوة إلى الدين فى صبر وأناة ، مع مراعاة مقتضى الحال .

ولهذا نرى السلفى فى الفترة التى قضاها بمصر فى السنوات الثلاث وهى ٥١٥ و ٥١٦ و ٥١٧ يقطن مع بعض الزهاد والمتصوفة فى ظرف يقتضى منه أن يلتزم ببعض المسالك الصوفية ، مع الاعتدال فى الأخذ على أيدى المصريين ، بعيدا كل البعد عن السلطان والوزير ، فما أزهده فى التقرب إلى أحدهما أو كليهما للوصول إلى المكانة التى كثيرا ماكان يطمح إليها غيره .

ولم ينس أثناء إقامته بمصر أن يزور قبور الصالحين والصالحات كالسيدة نفيسة [1] كما يقول ابن ميهوب .

وبمصر فى هذه السنوات الثلاث ، تعرف السلفى بمجموعة طيبة ، وصفوة مختارة من العلماء ، نستطيع استخلاصهم من ثنايا السيرة السلفية ، ونجمع شتاتهم فى الثبت الآتى :

---

(١) الكواكب السيارة : ابن الزيات .

ـــ أبو عبد الله محمد بن خذاداذ بن إسماعيل الأهوازى ، العالم الصالح والتاجر الثرى ، اليمنى الأصل ، تحدث عنه السلفى وعن إقامته بداره بمصر ، أيام إقامته بها ، وكان ظاهر المروءة على حد قوله ، ومن رؤساء مصر الممولين بها ، وكانت له دار وكالة ، وكان شافعى المذهب محباً للعلم وأهله .

ـــ عبد الكريم بن الحسن بن المحسن بن سوار المصرى المقرىء النحوى ، سمع منه السلفى ، وبرع فى القراءات وعللها والتفسير واللغة وغوامضها ، وكانت له حلقة إقراء بمصر وتوفى سنة ٥٢٥ عن ٦٨ سنة .

ـ أبو عبد الله الحسين بن محمد بن عبد الله بن الحسين بن بشر الجوهرى الواعظ ، وقد سمع منه السلفى بمصر والإسكندرية وبها توفى سنة ٥٢٨ ، وربما يكون هو (سيدى بشر) صاحب الضريح والمسجد برمل الإسكندرية والذى لشهرته بها سميت منطقة كبيرة من الإسكندرية باسمه ، وقد سمع منه بمصر سكندرى آخر هو أبو القاسم نجا بن على بن الحسن الرملى المؤذن بدار الطرطوشى ثم عند السلفى ، وقد لقى هذا الأخير بالإسكندرية .

ـــ ظافر الحداد الشاعر الأسكندرانى المتوفى سنة ٥٢٨ ، وقد التقى به السلفى وسمع شعره ، وتوطدت الصداقة بينهما ، وله ديوان شعر كبير طبع فى القاهرة مؤخراً .

ـــ أبو القاسم عبد الغنى بن الزعفران المعدل ، سمع منه السلفى أخبارا عن أبى العباس أحمد بن نفيس المقرىء .

ـــ أبو الأسوار عمر بن المنخل البابى التاجر ، دخل أصبهان وبغداد والموصل ودمشق واليمن ، ولقيه السلفى بمصر سنة ٥١٦ ، وقرأ عليه أحاديث ،

وسمع منه ومعه أبو صادق المديني وغيره ، مات بالحجاز ، وكان يلازم السلفي مدة إقامته بمصر .

— أبو الحسن بن روزبه الخزاعي المحدث ، سمع عليه السلفي بمصر ، وتوفي بها . أما ابنه عبد الرحمن فكان أحد جيران السلفي بالإسكندرية .

— أبو عمرو عثمان بن علي بن عمر السرقوسي النحوي الشاعر اللغوي العالم بالقراءات والنحو والعروض ، وصاحب المؤلفات فيها ، وكانت له حلقة للإقراء بجامع مصر (أي جامع عمرو بالفسطاط) ، وكان يلازم السلفي مدة إقامته بها ، وسمع عليه وعلى من كان يقرأ عليه كأبي صادق المديني وابن بركات والفرا الموصلي .

— أبو عمرو عثمان بن محمد المشكاني[1] الصوفي الجوال ، وكان إلى جانب تصوفه ميالا إلى سماع الحديث ، وكان تلاء للقرآن ، وسمع من السلفي بمصر .

— أبو الحسن علي بن الحسين بن عمر الفرا الموصلي ، وهو من ثقات الرواة بمصر ، ومن شيوخها الذين كتب عنه السلفي ، وسمع بالإسكندرية أبا العباس الرازي ، كما سمع بمكة والقدس وكانت وفاته سنة ٥١٩ عن ٨٦ سنة .

— أبو عثمان عبد المنعم بن المسلم بن موسى بن حديد الأبنودي الصعيدي الذي انقطع في آخر عمره إلى قرافة مصر للعبادة والزهادة .

— أبو الطاهر عبد المنعم بن موهوب المحدث المجتهد الذي لازم السلفي مدة إقامته بمصر ، وسمع عليه وعلى غيره الكثير من الأحاديث وتوفي سنة ٥٦٠ هـ .

---

(١) مشكان : بضم الميم ، من مدن قهستان بفارس .

ــ أبو محمد عبد السلام بن على بن أحمد بن الطوير القيسرانى المعدل ، كان أبوه من فقهاء الإسكندرية ، وكان بها مسموع الكلمة ، فضربوا عنقه فمات شهيد الحق ، وسمع بمكة ومصر ، وكان يحضر عند السلفى،وسمع منه أبو عبد الله الرازى ابن الخطاب .

ــ عبد الرشيد بن المظفر بن عبدالحميد الجخنـــدى التاجر الذى سافر إلى بلاد الترك والصين والهند ، وكان يحب الحديث وقد تفقه من صغره ، وحضر على السلفى بمصر وسمع منه ٥١٥ .

ــ أبو الحسن على بن يوسف بن فضالة المصلى اللواتى ، وقد سمع السلفى منه قصيدة لابن مكنسة الشاعر القرشى السكندرى المعروف المتوفى بالاسكندرية سنة ٥١٠ هـ

ــ ابن سلامه الروحانى الرحبى (١) المقرىء ، سمع ببغداد ودمشق والقدس وتنيس ومصر ، وحضر عليه السلفى بجامع عمرو فى مجلس أبى صادق المدينى .

ــ أبو القاسم مُجير بن محمد بن عبد العزيز بن أبى الحباب الصقلى المدينى،ولد بصقلية ، وانتقل إلى مصر سنة ٤٨١ ، وحضر على السلفى سنة ٥١٥ بمصر،وكان يأنس به ، ونقل عنه السلفى شعراً له ولشعراء صقلية ، وشهد بمصر .

ــ أبو الفتح نصر بن عبد المحسن بن سلامة الرشيدى (٢) ، وقد صامت أمه ضياء بنت الزيـــنى خمساً وثلاثين سنة ، لم تفطر فيها إلا الأيام المحـــرم فيها الصيام .

---

(١) من رحبة مالك بالشام .

(٢) من مدينة رشيد شرق الاسكندرية .

ـــ أبو الفوارس نجا بن عامر بن نجـا الأزدى الأنصارى ، وكانت عمته سيدة بنت نجا امرأة صالحة تبيت عند السلفى ، ويأنس بها لعلها وتقواها.

ـــ أبو كثير نامى بن محمد بن موسى الحسينى ، وهو من ذرية سيدنا الحسن ابن على سبط رسول الله ﷺ وابن ريحانة قلبه فاطمة الزهراء ، سكن مكة ، ومصر ثم قدم الأسكندرية ، ولقيه السلفى بها .

ـــ أبو الحسن هبة الله الكاتب ، روى للسلفى أشعارا لابن مكنسة .

ـــ أبو القاسم هبة الله بن عبد المحسن بن عيسى الطـائى مؤلف المقـامات على طريقة بديع الزمان الهمذانى والحريرى الطوسى ، وسمعها السلفى منه فى الأسكندرية ، وقد تولى مناصب كبرى بها ثم عزل ، وعاد إلى مصر ، وكان من أهل السنة ، ولقيه السلفى كثيراً .

ـــ أبو العبـاس أحمد بن عبد الله بن الحطيئة اللخمى الفاسى رئيس القراء بالسبع ، جاء من بلده فاس وسكن مصر وتصدر للإقراء بها ، روى عنه السلفى ، عرضوا عليه قضاء مصر فى العهد الفاطمى فاشترط ألا يقضى بالمذهب الشيعى -وهو مذهب الدولة- فرفضوا فرفض ، ومات بالقاهرة سنة ٥٦٠هـ ودفن بالقرافة .

هذه النخبـة من المثقفين الذين اجتمع بهم السلفى بمصر دارساً على أيدى بعضهم أو مدرساً للبعض الآخر ، كانت لثقافاتهم المختلفة تأثير كبير فى شحذ همة السلفى ، وزيادة معلوماته ، فهم كما رأينا بين محدث وفقيه وشاعر وراوية ومتصوف وأديب ومقرىء ونحوى وتاجر جوال وواعظ ، منهم المصرى ، ومنهم الوافد على مصر والقاهرة من مختلف الامصار ، منهم من ينتسب إلى رسول الله ﷺ عن طريق سبطه الحسن ، ومنهم أرباب المناصب الكبرى الذين شبوا على التربية الدينية

منذ نعومة أظفارهم ، وأخيرا منهم النساء الصالحات اللائى نشأن فى بيئة علمية ، وعاش فيها جيل صالح من أبناء مصر فأصبحوا علماء ، ومن هذا المعين ، وفى هذه البيئة عاش السلفى ثلاث سنوات من عمره عاد بعدها إلى الإسكندرية، وقد خمدت أنفاس الفتنة بها بعض الشىء، واستأنف حياة جديدة زاخرة بالعلم والعمل من أجل إعلاء كلمة الإسلام .

ولنا أن نسمى هذه المرحلة الأخيرة من مراحل حياة السلفى بمرحلة الاستقرار النهائى ، ويبلغ طولها خمسين سنة إلا قليلا ، لم يغادر الأسكندرية خلالها ، بل لم يخرج إلى فرجة ليرفه عن نفسه ، لقد أحب « الأسكندرية الثغر المأنوس » - على حد تعبيره - وأكرمه أهلها ، فظل عاكفاً فيها على التحصيل وجمع المعلومات ولقاء الوافدين ، والسماع منهم ، والتدريس بداره وبمدرسته ، ولاسيما بعد أن تزوج واستقر نفسانياً ومعيشياً ، ولم يعد يسكن رباط الأسكندرية مع الزهاد الأغراب الذين جاءوها بهدف أو بغير هدف .

وإذا رجعنا إلى الأسكندرية مع السلفى، وتلمسنا الطريق إلى رجال العلم بها، طوال هذه الفترة ، وجدناها حافلة بالأعلام الشوامخ ، فهذا ابن عبد الملك الأندلسى المتوفى سنة ٧٠٣ [١] يحدثنا عن (أهل المشرق) ويعنى بهم أعلام مصر والإسكندرية وعلى رأسهم السلفى ومعاصريه فى الإسكندرية بالذات، فيجمع بينه وبينهم ، فى بحر خضم من التراجم ، نستطيع نحن بدورنا أن نوجزهم فى هذه الباقة من الأعلام الذين عاشوا وعاصروا السلفى ، وكان هو كالبدر ، وهم كالهالة التى تحيط به ، وأشهرهم :

أبو طاهر بن عوف ، وابن الفحام ، وأبو عبد الله الحضرمى وأخوه أبو الفضل أحمد الحضرمى ، وابن جارة ، والطرطوشى ، وابن المشرف بن مسلم

(١) الذيل والتكملة لكتاب الموصول والصلة .

الأنماطى وأبو الحسن المقـــدمى ، وأبو عبد الله بن عبد الرحمن التنيسى ، وأبو الحسن مقاتل بن عبد العزيز البرقى ، وأبو عبد الله محمد بن حامد القرشى ، وأبو طاهر محمد الديباجى ، وأبو العباس السرقسطى بن الفقيه ، وأبو عبد الله الكركنتى ، والقزوينى ، وأبو عبد الله الطوسى ، وأبو يعقوب بن الطفيل الدمشقى ، وفاطمة بنت سعد الخير ، وأبو عبد الله بن حباسه ، وأبو على حسن بن محمد بن الحسن ابن الرسل ، وأبو محمد عبدالمجيد بن أبى الحسن شداد بن المقدم التميمى ، والمقرىء الزاهد أبو المنصور مظفر بن سوار بن هبة بن على اللخمى ، وأبو الفوارس نجا ابن تغلب اليكى المقرىء ، وعبد الرحمن بن سلامة بن يوسف بن على ، وأبو الحجاج ابن عبد العزيز وأبو محمد عبد المعطى اللخمى الأسكندرانى ، وعبد الوهاب بن ظافر ابن على بن فتوح القرشى بن رواج ، وابن النفيس الحميرى الغرناطى المحدث المتوفى سنة ٥٨٦ .

هؤلاء هم بعض العلماء الذين غالباً ما يجمع ابن عبد الملك بينهم وبين السلفى على صعيد الإسكندرية فى عصره ، وعلى أيديهم تلقى علماء الأندلس فى الإسكندرية ، ما رجعوا به إلى بلادهم من ثقافة هائلة اشتهرت بها الإسكندرية فى هذا العصر الذهبى من تاريخها ، فقصدها من أجل ذلك طلاب المعرفة من أقصى الأرض وأدناها ، حتى تألق نجم الإسكندرية ، وأصبحت مدارسها العلمية ـ من غير مبالغة ولا إسراف ـ أعلى منابر الثقافة الإسلامية فى الشرق والغرب على الإطلاق ، حتى غطت شهرتها على بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة .

ولقد كان السلفى إسكندرانيا حقا ، عرف لوطنه الثانى الإسكندرية حقها كاملا فأعطاها من خلود الذكر ما جعلهما يتقاسمان شرف الانتماء ، ففى خلال الفترة التى قضاها بها ، وهى أكثر من ستين سنة كما عرفنا ، أعطانا من المعلومات التاريخية

عنها ما لم يعطنا غيره ، بل لولاه ما كان لنا أن نعرف عنها شيئا على الإطلاق ، وفى المقدمة أولئك الذين عرفهم وعرفوه ، كما أعطانا معلومات دقيقة عن بعض معالم الإسكندرية كالباب الأخضر ،ومقبرة وعلة ، ومقبرة الديماس ، ومقبرة باب البحر ، ومقبرة السوارى .

وحدد لنا مقابر كل من دفنوا بها ممن أدركهم وتواريخ وفياتهم ، بل تواريخ مواليدهم بها أو بغيرها ، وأعطانا كذلك أسماء مساجد ورباطات ومدارس بها ، وكذلك أشهر شوارعها ، وبالجملة مظاهر الحضارة والثقافة بها ، فكان الذين جاءوا من بعده عالة عليه سواء من المؤرخين أو المترجمين . بهذا كله استحق السلفى الأصبهانى أن نسلكه فى سلك « الإسكندرانيين » .

والآن نتساءل : أين مكانة السلفى من الأسكندرانيين ؟ والجواب فى البيان التالى :

طلع القرن السادس الهجرى على الإسكندرية ، ليشهد أزهى عصورها فى الثقافة الإسلامية . وليسجل أعلامها الذين لانكاد نصدق كثرة عددهم ، هم وقصادهم من أنحاء المعمورة ، سواء منهم من جاء حاجا فعاد إلى بلده ، أو من استطاب المقام فى الإسكندرية فتديرها واستوطنها حينا من الزمن ثم توفى بها .

تذكر منهم فى المقدمة ثلاثة ، يعتبرون القادة الأوائل للحركة الفكرية فى الإسكندرية ،وقد سبق أن رأينا مافعله الوزراء الفاطميون الأرمن بعلماء هذا البلد الأمين ، حتى لم يعد به أحد منهم يفقه الناس ، ويبصرهم بأمور دينهم ودنياهم ، فلما أحس أعيان الإسكندرية وقاضيها ابن حديد بهذا النقص ، وسمعوا بالطرطوشى ، ذهبوا إليه يستدعونه من رشيد ، فقدم معهم سنة ٥١١ ، فكان كما يقول شكيب

أرسلان (١) إنه هو « الذى نشر العلم بالأسكندرية ، وعليه تفقه أهلها » إلى أن توفاه الله سنة ٥٢٠ هـ وقد لقيه السلفى .

هذا هو أبو بكر الطرطوشى الأندلسى الذى مات سكندريا ، تذكر معه

أندلسيا آخر هو ابن نادر الميورقى الذى قال عنه ابن بشكوال « وهو الذى أحيى علم الحديث بالإسكندرية » (٢) وتوفى بها سنه ٥٢٣ أو سنه ٥٢٤ فى إحدى الروايات ، وروى عن السلفى ، فصار يعد من الإسكندرانيين أيضا .

وثالث هؤلاء الأعلام الشوامخ هو السلفى الأصفهانى الذى أصبح إسكندرانيا كذلك ، وقد قال عنه السخاوى « مازال الحديث بالإسكندرية قليلا حتى سكنها السلفى ، فصارت مرحولا إليها فى الحديث والقراءات ، ثم نقص بعد ذلك والآن - يقصد عصر السخاوى نفسه أى القرن التاسع الهجرى ، أى بعد مضى أربعة قرون ، - عدم إلا من بعض الغرباء ، وغالبهم مالكيون ، على أنه قد ولى قضاءها عدة من الشافعية (٣) » وقد رأينا أن السلفى قدم الإسكندرية سنة ٥١١ هـ ، وأقام بها خمسا وستين سنة ، يشار إليه فيها بالبنان ، حتى توفاه الله بها سنه ٥٧٦ ، فكان إسكندرانيا بحكم طول الإقامة ، وحجم الجهود المبذولة فى نشر العلم ، وقال السيوطى عن السلفى أيضا بمناسبة الكلام عن حفاظ الحديث بالإسكندرية :

« . . انتهى إليه علو الإسناد ، روى عنه الحفاظ فى حياته ، وله تصانيف ، وكان أوحد زمانه فى علم الحديث وأعلمهم بقوانين الرواية » (٤)

---

(١) الحلل السندسية .

(٢) الصلة .

(٣) الاعلان بالتوبيخ .

(٤) حسن المحاضرة .

قلنا إنهم الثلاثة إسكندرانيون على ذلك الاعتبار ، مع أنهم «من بعض الغرباء» كما حرص السخاوى المؤرخ المصرى لما ودما أن يلفت أنظارنا إلى ذلك ، غير أن العلم لا وطن له ، والإسلام لا يعرف الحدود . وما كان أهل الإسكندرية ولا غيرهم يعرفون تلك التفرقة ، فى الأصل أو البلد إلا لمجرد ذكر الحقائق، ولهذا لم نسمع إطلاقا فى أى عصر من عصور التاريخ أنه كان هناك سخط أو غضب على الغرباء ، بل كان الترحيب المطلق .

وكل بلد إسلامى لكل مسلم وطن وسكن، يحل به ويرتحل عنه، كيف يشاء ومتى شاء ، والإسكندرية خير شاهد على ذلك .

على كل حال أمكننا أن نعرف مكانة هذا (السلفى) من الإسكندرانيين، بشهادة السخاوى والسيوطى له بالعبارة الجامعة المانعة ، قياسا إلى أبى بكر الطرطوشى وابن نادر الميورقى ، وقد جمعت الإسكندرية بين ثلاثتهم فى مكان واحد وزمان واحد ، فإذا بمكانة السلفى أعلى، وميدانه أوسع، والرحلة إليه أكثر من غيره . فى طلب علم الحديث، وهو أكثر علوم الأسلام أهمية واهتماما .

وإذا كنا قد تتبعنا السلفى مع معاصريه بالفسطاط فى مدى ثلاث سنوات فلنعد منها معه إلى الإسكندرية ، لنتابع مسيرته العلمية عبر الزمن بها ، ومن خلال اتصالاته بمعاصريه الإسكندرانيين ، نستطيع أن نوضح للقارىء صورة الحياة العلمية فى هذه المدينة العظيمة ، وقطبها يومئذ هو الإمام الحافظ أبو طاهر السلفى مسند الدنيا ، والمعمر الذى ألحق الكبار بالصغار، كما يقولون، تاركين إلى فرصة أخرى من الكتاب حديثا آخر عن تلاميذه المقيمين والراحلين والمستجيزين أيضا من مشارق الأرض ومغاربها ، ممن لا يمكن إحصاؤهم حقا

ويكفى أن نجمع أشهرهم من أمهات كتب التراجم والمعاجم ، وما أكثرها ، لكثرة الآخذين عنه ، ويكفى أيضا أن نوجز سيرهم فى كلمات ، ونرتبهم على قدر الإمكان حسب سنوات وفياتهم ، ومدى صلة كل منهم بالسلفى فى حياته ، ومع ما فى هذا العمل من مشقة لا تخفى ، إلا أنها فى نظرى ، السبيل الوحيد للتعرف على الحيوية النابضة للثقافة الإسلامية بالإسكندرية ، على مـــدى القرن السادس الهجرى ، الذى كان السلفى منه بمثابة قطب الرحى ، ومحور الارتكاز ، ولقد خصصنا لهم فصل الختام من هذا الكتاب .

السلفى والإسكندرانيون

تحت هـذا العنوان نجمـع أشهر العلماء بالإسكندرية الذين عاصرهم السلفى ، وأخذ عنهم أو سمع منهم ، وكانت له بهم صلة من قريب أو بعيد ، سواء من ورد ذكرهم عنه فى «معجم السفر» أو عن غيره من أصحاب المعاجم وأرباب التراجم ، ولقد حرصنا نحن هنا أن نضعهم فى ترتيب زمنى حسب تواريخ وفاتهم لكى نتبين طول مدة الإقامة فى زمن السلفى أو قصرها . ومن كانت وفاته منهم بعد السلفى ، أو قبل دخوله هو الإسكندرية بقليل ، مما يشير إلى اهتمامه الخاص ، حتى بمن كانوا فيها ، ورحلوا إلى عالم الخلود ، ومنهم :

— عمر بن عيسى السوسى النحوى ، قرأ عليه النحو أكثر أهل الإسكندرية ، وقال عنه السلفى «ومات بالإسكندرية قبل دخولى إليها بقليل» .

— ابن قلُنسا : وفى مخطوطات أخرى (ابن قلنبا) وهو محدث مشهور ، استملاه السلفى جزءا له بالإسكندرية وتوفى بها سنة ٥١١ هـ .

— أبو محمد عبد الكريم بن أبى عجينة القبارى الخلقانى المؤذن المعمر الإسكندرانى المالكى ، كان ابن مائة وعشرين سنة، فكان شيخ الإسكندرية بالكبر، وهو الجد الوحيد المعروف للقبارى الإسكندرانى المتوفى سنة ٦٦٢، والذى وضعنا عنه كتابا مستقلا(١)، ولولا السلفى ما عرفنا مطلقا للقبارى أصلا سكندريا ، قضى اثنتين وستين سنة لا يأكل إلا لحم الصيد ويتورع من شرب اللبن وأكل الجبن ، ويصطاد بنفسه ، ولا يأكل إلا من القبار المباح ، وكان عارفا بالأحلام وقلما يخطىء فى تفسيرها مع أنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وكان مؤذنا ، وسمع بالإسكندرية أبا العباس الرازى والقاضى أبا مطر المعافرى وأبا عمران الفارسى ، لما قدم الإسكندرية حاجا، قال السلفى : «توفى سنة ٥١٢ وأنا بالإسكندرية ، وحضرت جنازته ، وصليت عليه ، وكان مالكى المذهب ، وقد كان مع كبر سنه يقصدنى إلى أن مات كأنه قفة وفى منزلى قرأت عليه ما قرأت ، وكنت أداعبه وأقول له: أنت مكبر معبر مجبر ، فيبتسم»(٢).

— أبو منصور يلتكين التاجر ، الشهير بابن البوق ، وكان أبوه من أتراك مصر ، ترك الجندية وانقطع للعبادة ، سمع منه السلفى بالإسكندرية ، ومصر ، وكان معه ببغداد . وتوفى بالإسكندرية سنة ٥١٢ .

— محمد بن محمد بن على بن حكم الباهلى من المرية ويعرف بالقرقوبى أو ابن قرقوب ، وقد سمع من السلفى فى الإسكندرية ، وحدث عنه بكتاب «تقييد المهمل وتمييز المشكل» وتوفى بالمشرق سنة ٥١٢هـ (٣).

(١) القبارى زاهد الاسكندرية : زيتون .
(٢) معجم السفر : السلفى .
(٣) التكملة : ابن الأبار

ـــ الإمام أبو الوفا على بن عقيل البغدادى الظفرى الحنبلى صاحب «الفنون» من ٤٧٠ مجلدا ولد سنة ٤٣١ وتوفى سنة ٥١٣ قال عنه السلفى ، « ما رأت عيناى مثله ، وما كان أحد يقدر يتكلم معه لغزارة علمه وبلاغته وحسن إيراده وقوة حجته ، وكان أنظر أهل زمانه .

ـــ الحسن بن خلف بن عبد الله بن بليمة الأستاذ أبو الحسن القيروانى نزيل الإسكندرية المقرىء المتصدر للإقراء ، مؤلف « تلخيص العبارات فى القراءات » توفى بالإسكندرية سنة ٥١٤ عن ٨٧ سنة .

ـــ أبو القاسم هبة الله بن رزق الله المقدسى الشافعى ، سمع بالقدس وشهد بها ، وناب فى قضاء الإسكندرية ، وكان يؤم بجامعها ، ومات بها سنة ٥١٤ ودفن بمقبرة الديماس (كوم الدكة) .

ـــ أبو بكر يحيى بن إبراهيم بن عثمان بن شبل الأسكندرانى ، أخبر السلفى بمسموعاته فى (صور) عما سمع غيره فى بغداد والإسكندرية ، وقد مات بها سنة ٥١٤ ودفن بمقبرة باب البحر .

ـــ أبو المكارم هدية بن عامر بن فتوح الحضرى المهندس . كان يحضر عند السلفى لسماع الحديث وعلق عنه السلفى حكايات عن كثيرين ، وقال عنه « كان من أذكى خلق الله فى الهندسة ، وبما يقرب منها ، وكان متدينا لا ينقطع عن مجالس أهل العلم » .

ـــ أبو الحسن على بن المؤمل بن غسان الكاتب المصرى ، توفى سنة ٥١٥ بالإسكندرية وأنا بمصر ، كما يقول السلفى .

— ابن الفحام : وهو أبو القاسم عبد الرحمن بن أبى بكر بن عتيق بن خلف ابن الفحام الصقلى المقرىء ، انتهت إليه رياسة الإقراء بالإسكندرية ، كان من كبار شيوخ السلفى . (١) أخذ عليه علم قراءة القرآن ، وكان ثقة ، قال عنه ابن عزم « شيخ الإقراء علوا ودراية ، وله « التجريد » فى القراءات » (٢) ولهذا « قصدوه لعلو إسناده وإتقانه » (٣) « وتوفى بالإسكندرية سنة ٥١٦ هـ ، ومما ذكره عنه تلميذه السلفى (٤) نعلم أنه رحل من المغرب إلى المشرق فى طلب « القراءة » فأدرك بمصر ابن هاشم وابن نفيس وعبد الباقى بن فارس ، وأبا الحسين الشيرازى وآخرين سنة ٤٣٨ ، وتتلمذ على طاهر بن بابشاذ فى النحو ، ومن أشهر مؤلفاته « التجريد فى بغية المريد » ، وكتب عنه السلفى أسانيد كل قراءة من قراءات القرآن المعروفة .

— أبو البهاء عبد الكريم بن عبد الله بن محمد المقرىء الصقلى ، توفى سنة ٥١٧ بالإسكندرية ، والسلفى بمصر .

— أبو الفضل عوض بن سعادة بن عبد الله الطرابلسى المغربى ، توفى فى ذى القعدة سنة ٥١٧ ، بعد خروج السلفى من مصر .

— أحمد بن سرور السمسطارى (سمسطار قرية بالصعيد) لقيه السلفى بمكة سنة ٤٩٧ ثم مصر سنة ٥١٥ ، سمع بالاسكندرية أبا العباس الرازى ، وكان عارفاً

---

(١) الذهبى : تفرقة القراء الكبار على الطبقات والأعصار .

(٢) دستور الإعلام بمعارف الأعلام .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة .

(٤) معجم السفر .

بالكتب وأثمانها وتوفى بالصعيد سنة ٥١٧ . ذكره الصفدى فى « نكت الهميان» لأنه كف بصره آخر عمره .

ـ أبو الأسوار عمر بن المنخل بن عبد الله البابى التاجر ، دخل أصبهان وبغداد والموصل ودمشق واليمن وغيرها ، رآه السلفى بمصر سنة ٥١٦ وقال له « لى الآن ٧٥ سنة » وسمع منه أحاديث وحضر على أبى صادق المدينى وغيره وكان يلازم السلفى مدة مقامه بمصر ، وتوفى بالحجاز سنة ٥١٨ .

ـ أبو إبراهيم أحمد بن الميمون بن حمزة العلوى الشافعى المالكى توفى سنة ٥١٨

ـ أبو الحسن على بن عبد الجبار بن سلامة الهذلى التونسى أصلا ، فقد ولد بتونس سنة ٤٢٨ ، هو الشاعر اللغوى الذى لم يكن فى زمانه ألغى منه ، له أحد عشر ألف بيت من الشعر ، على قافية واحدة ، وتوفى بالإسكندرية سنة ٥١٩ هـ .

ـ أبو بكر محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشى ابن رندقة أحد الأئمة الكبار ، أخذ عن أبى الوليد الباجى ، وكان عالما زاهدا ورعا متقشفا : ولد بطرطوشة من الأندلس سنة ٤٥١ ، وشرق ، فلقى العلماء ببغداد ومكة والبصرة والشام ، ورشيد ، ودخل الإسكندرية سنة ٥١١ ، دعاه أهلها ليفقههم فى الدين بعد أن انعدم العلم بها وأعدم علماؤها على أيدى العبيديين ، « وهو الذى نشر العلم بالإسكندرية وعليه تفقة أهلها » على المذهب المالكى ، كما قال عنه أبو الحسن المقدسى ، أخذ عنه أكثر من مائتى فقيه ومفت .وذهب إلى بيت المقدس ، ليلقى الغزالى فانحرف عنه الغزالى ولم يلقه ، واستقر بالإسكندرية وتزوج خالة الفقيه أبى طاهر بن عوف ، وكانت امرأة ثرية أقامت له مدرسة ، وجعلت مسكنها فى

أعلاها ، كان يخرج مع تلاميذه فى جماعة إلى الخلوات،فيلقى عليهم دروسه ويؤمهم للصلاة ويحرضهم على محاربة البدع ومكافحة الظلم والظالمين ، فنكل به الوزير الفاطمى الأفضل وسجنه بالفسطاط ومنع الناس من الأخذ عليه فدعا عليه فمات ، ولكن الوزير المأمون البطائحى أكرمه واستجاب لمقترحاته ، وأمر بإنشاء مسجد باسمه بالإسكندرية . فأهداه كتابه المشهور (سراج الملوك) . وله كتاب فى « تحريم جبن الروم و« البدع » و« الخلاف » وغيرها

وله كتاب يعارض فيه آراء الغزالى ويرد عليه . وله مختصر تفسير الثعالبى ، وكان من أقرب تلاميذه إليه ربيبه ابن عوف : الذى تولى التدريس بعده ، والفقيه سندبن عنان ، كما أجاز للقاضى عياض .

وعندما دخل الإسكندرية كان عمره ٦١سنة، بينما كان السلفى إذ ذاك ابن ٤١سنة، وكانت وفاة الطرطوشى بالإسكندرية سنة ٥٢٠ هـ عن ٦٩ سنة ، بينما كان السلفى لا يزال فى الخمسين من عمره ، ودفن بالباب الأخضر فى «مقبرة وعلة» . وعلى ذلك لم تزد مدة إقامته بالإسكندرية على عشر سنوات ، بينما قضى بها السلفى نحو ٦٥ سنة ، ومع ذلك كان تأثيره عميقاً ، وشهرته واسعة ، وأبعاد ثقافته ذائعة فى الآفاق كان ابن الحاجب يلقبه بالأستاذ ، والسلفى ينعته بالفقيه . وقد التقى السلفى والطرطوشى ، عدة مرات :

مرة عندما كان الحديث بينهما عن أبى الروح المقرىء الأذربيجانى الذى تفقه ببغداد وقرأ عليه السلفى ، فقال له الطرطوشى « كان معيدى عند أبى سعد المتولى » ، وعقب السلفى بأن الطرطوشى قد أثنى على أبى التمام غالب الأنصارى الأندلسى وروى عنه بالإسكندرية ، وقد لقيه السلفى بمكة ووجد له بالإسكندرية أجزاء كثيرة ، وذكر السلفى أيضا أبا القاسم نجا الرملى المؤذن الذى كان يؤذن

غنده وعند الطرطوشى ، وثمت إشارة عابرة من السلفى فى «معجم السفر» أنه التقى بالطرطوشى سنة ٥١٤ فى جنازة أحد الصالحين بالإسكندرية، وصلى كل منهما عليه، ومع هذا كله فإنه يبدو أن كلا منهما كان يحظى عند الآخر بالتقدير والإجلال، شأن الأعلام الشوامخ أصحاب الخلق المتين والنفسية العالية ، ومع أن السلفى كان شابا شافعيا والطرطوشى كان شيخا مالكيا ، فإنه لم يكن هناك مجال للخلاف بين المذهبين وعلمائها فى الإسكندرية ولا غيرها ، بل كان الواقع أنهم ـ كأهل السنة ـ عليهم أن تتوحد جهودهم للقضاء على المذهب الشيعى الطارىء .

ـ أبو حفص عمر بن محمود بن غلاب المقرىء الباجى (١) ، سمع منه السلفى بالإسكندرية ، ومات بها سنة ٥٢٠ هـ وصلى عليه ودفن فى مقبرة وعلة بالباب الأخضر .

ـ أبو على أحمد بن محمد بن جرير بن ميمون الهمذانى ويلقب بالعداس والجلبانى ، وقد توفى بالإسكندرية سنة ٥٢١ ودفن بمقبرة الديماس .

ـ أبو محمد عبد الله بن يعلى بن الرماح الشيبانى المالكى، توفى بالإسكندرية سنة ٥٢١ وصلى عليه السلفى ودفن بمقبرة وعلة بالباب الأخضر .

ـ أبو الحسين يحى بن محمد الشيبانى ،واشتهر بابن النبقة، إسكندرانى المولد، عراقى الأصل ، شافعى المذهب ، وتوفى بالإسكندرية سنة ٥٢٢ .

ـ أبو محمد عبد العزيز بن بريك بن توهيب الكاتب الشاعر ، سمع منه السلفى شعره وأشعار الكثير من المصريين ، كابن حبيش وابن الدر وابن القلفاط وأخوه عبد الوهاب كان مالكيا أيضا وشاعراً مثله وتوفى سنة ٥٢٢ .

(١) نسبة إلى (باجة القمح) الأفريقية وليست الاندلسية

ـ أبو الحسن على بن المسلم الأنماطى ، أدرك ابن حمزة العلوى ، وسمع منه السلفى كتب ابن قتيبة فى القراءات وغيرها ، وانتقى من اصوله أكثر من مائة جزء ، وكان يهتم بشراء الكتب واقتنائها ، وخلف منها ما لم يخلف غيره بالإسكندرية ،واشترى منه السلفى الكثير منها ،وكان كثير السماعات محبا لطلب العلم ، وقد ولد سنة ٤٣٧، وأدرك الكثير من شيوخ مصر والواردين عليها، وقد أخبر السلفى عن ابن حمزة العلوى الشافعى الذى ذكرناه والمتوفى سنة ٥١٨ .

ـ أبو الحسن على بن عبد الجبار بن سلامة بن عبدون الهذلى اللغوى : كان إماماً فى الفقه حافظا لها ، حتى إنه لو قيل لم يكن فى زمانه ألغى منه لما استبعد ، وكان شاعرا ، أخذ عن أبى القاسم بن القطاع ، وتوفى بالإسكندرية عن ٩٦سنة، ذكره السلفى (١) والسيوطى (٢) .

ـ أبو محمد عبد الله بن مرزوق اليحصبى الأندلسى ، سمع منه السلفى فى الاسكندرية كتاب « طبقات الأمم » لصاعد الأندلسى (ـ ٤٦٢ هـ) .

ـ أبو الحجاج يوسف بن عبد العزيز بن على اللخمى ،ابن نادر الميورقى (من ميورقة جزيرة شرقى الأندلس) ، حج وسمع بمكة وبغداد ، ودخلها بعد خروج السلفى منها ، وتفقه على شيخه الكبير أبى الحسن الطبرى ، وسمع الحديث من مبارك العسال وابن وابن بدران والقاصمى رئيس هراة ، وسكن الإسكندرية ودرس الفقه ، وكان عالما بالأصول متفننا فى العلوم جامعا بين الدراية والرواية ، وهو الذى أحيى علم الحديث بالإسكندرية ، سمع منه أجلة العلماء ،وحدث بدمشق ، وروى عنه أبو طالب أحمد بن مسلم بن رجا التنوخى

---

(١) معجم السفر (٢) بغية الوعاة .

وأبو محمد العثمانى ، وأبو بكر بن أسود القاضى ، وأبو القاسم بن غساكر ، وأبو عبد الله بن الحضرمى ، والسلفى ، وله تصانيف وتعليقة معروفة فى الخلافيات،قال عنه أبو عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة : « كان أفضل من لقيته فى رحلتى علما وعملا وزهدا وورعا » وكانت وفاته بالإسكندرية فى أواخر سنة ٥٢٣ أو سنة ٥٢٤ ، ذكره ابن الأباء فى (التكملة) .

ــ أبو الحسين عبد الوهاب (ابن المفرض) مقدم الشهود بالإسكندرية وهو من بنى الصفراوى ، مالكى سمع منه السلفى،ولم يكن يتأخر عن المواعيد التى كان يعقدها السلفى ، وأبوه كان فارضا بالثغر ، وتوفى بالإسكندرية سنة ٥٢٤ .

ــ أبو المعالى محمد بن ناصر بن القاسم الكاتب المكينى الشاعر الفيلسوف ، كان حسن الخط ، وكان كاتبا بليغا ومنطيقا وشاعرا وحيسوبا ومنجما ومهندسا، تــوفى سنة ٥٢٥ هـ .

ــ محمد بن أحمد بن إبراهيم بن أحمد أبو عبد الله الرازى (ابن الحطاب) المصرى المعدل الشاهد مسند الديار المصرية وشيخ الأسكندرية وأحد عدولها ، صاحب«السداسيات»و«المشيخة»ومع ذلك وضعه السيوطى فى محدثى الأسكندرية الذين لم يبلغوا درجة الحفظ ، وانفردوا بعلو الإسناد ، ويسميه السلفى « شيخنا » وتوفى بالأسكندرية سنة ٥٢٥ عن ٩١ سنة .

ــ عبد الكريم بن سوار المصرى ، كان من أهل النحو والإقراء ، سمع منه السلفى وأخذ عنه ، وكانت وفاته سنة٥٢٥ وذكره السيوطى فى «حسن المحاضرة»

ــ خديجة بنت أحمد الرازى ، وهى خالة زوجة السلفى ، وهى محدثة ،هى وأختها وأخوها وأبوها ، وتوفيت بالأسكندرية سنة ٥٢٦ .

ــ أبو حفص عمر بن يوسف بن محمد بن الجذامى الصقلى الزاهد المحدث ، ولد بصقلية سنة ٤٣٠ وسكن الإسكندرية واجتمع به السلفى سنة ٥٢٢ ، وحج وعاد إلى صقلية وسفاقس ، وعاد إلى الأسكندرية سنة ٤٧٢ ، وأقام بها حتى مات سنة ٥٢٦، قال السلفى « لم يقرأ عليه أحد قط من الحديث غيرى عن أبى بكر السمنطارى»، وقرأ عليه فوائد كثيرة عنه ، وكان يتحرز من الوقوع فى الكذب على رسول الله ، دفن بمقبرة وعلة بالقرب من قبر أبى بكر الحنيفى وأبى العباس ابن الحطاب الشافعى ، وأبى على الحضرمى المالكى.

ــ بشر بن الحسين بن محمد بن عبد الله بن الحسين بن بشر الجوهرى من أسرة بشر المعروفة بالعلم والوعظ والأرشاد ، هاجر من مصر إلى الأسكندرية واستوطنها وأخذ يعلم ويعظ بها واجتمع به علماؤها،ومنهم السلفى الذى أثنى عليه فقال « كان حلو الوعظ ، لم يكن فى بيته أحلى كلاما منه ، وعلقت عنه حكايات كثيرة بمصر والأسكندرية »،وتوفى سنة ٥٢٨ ، كما توسع القضاعى فى كتابه « الخطط » وترجم لأسلافه فى كلامه عن تربتهم بقرافة مصر بشارع الليث بن سعد فى مواجهة مقبرة الطحاوى.

ــ أبو طالب أحمد بن حديد بن حمدون الكنانى قاضى الإسكندرية من أسرة بها كلهم قضاة ولهم شهرتهم ، السنى المالكى ، كان عريق الرياسة ، مات قرب رشيد وحملوا جثته فدفن بمقبرة الديماس فى بستان بجوار داره المعروفة.

وقد سمع منه السلفى حكايات كثيرة، وكان إذا رأى السلفى فى الطريق انحرف عنه ، ومع ذلك أوصى بألا يغسله ويصلى عليه غيره ، وقد كان ، وحضر جنازته وشهدها خلق لا يحصون من الكثرة ، ورثاه الشعراء ، وأخوه أبو على كان قاضيا أيضا وبينهما عشر سنوات ، وتحدث عنه مؤرخ الأسكندرية ومحتسبها

منصور بن مُسلم ، وكانت وفاته بالأسكندرية سنة ٥٢٩ عن ٦٧ سنة .

ـ أبو الرجاء بشير بن المبشر بن فاتك ، سمع منه السلفى بمصر والأسكندرية ومن أخته الخفرة ومات بمصر سنة ٥٢٩ .

ـ أبو الحسن على بن هلال الكنانى الفوى (١) ثم الأسكندرانى القرافى ـ لأنه كان يسكن القرافة بالإسكندرية ـ فقيه سكندرى مالكى ، كان يحب الانزواء فى بيته ، وأخبر السلفى بالكثير وكانت وفاته بالأسكندرية سنة ٥٣٠

ـ أبو الحسن على بن أبى الأشيم ، وهو من بيت مشهور ، وأمه من أسرة بنى حديد قضاة الأسكندرية ، أديب مالكى ، علق عنه السلفى كثيرا من الملح الأدبية ، وكان يحضر عنده ، وتوفى بالأسكندرية سنة ٥٣٠ .

ـ محمد بن مسلم بن محمد بن أبى بكر القرشى المازرى الإمام المتكلم الصوفى الأصولى، نزح إلى القيروان فأخذ بها ثم الحجاز ومصر واستقر بالأسكندرية وتوفى بها سنة ٥٣٠ . له « البيان فى شرح البرهان » لأبى المعالى الجوينى ، و« المهاد فى شرح الأرشاد إلى تبيين قواعد الاعتقاد » للجوينى أيضا .

ـ أبو محمد عبد الله بن أبى الطيب اليونشى السايح ، لأنه لقى كثيرا من المشايخ فى سياحته بالمغرب ومصر والشام وديار بكر وديار مضر والعراق والحجاز وصحبهم ، ـ ثم استوطن الإسكندرية ، وسعى فى بناء عدة آثار بها كمسجد وصهريج سبيل ، سمع السلفى وكان يحضر عنده ، فلما عجز لازم محرسا بوعلة إلى أن مات سنة ٥٣٣ ودفن بمقبرتها الواقعة بالباب الأخضر .

---

(١) من فوة على النيل فرع رشيد .

ــ أبو الحسن على بن حريقة القيروانى الإسكندرانى وكان متشيعا ، وقيل مات حسن العقيدة ، وسمع منه السلفى بالإسكندرية ، ومات بها سنة ٥٣٣ ودفن بمقبرة الديماس (كوم الدكة الحالى) .

ــ الإمام أبو القاسم بن مخلوف المغربى السكندرى المالكى ، تفقه به أهل الإسكندرية طويلا وتوفى سنة ٥٣٣ هـ .

ــ أبو محمد عبد الله بن العريشى ، وكان يسكن محرس القشميرى المشهور أحد محارس الإسكندرية ، وكان من أهل القرآن ، علق عنه السلفى فوائد جمة ، كما كان من أهل النحو ، وتوفى بالإسكندرية سنة ٥٣٣ .

ــ ياقوت مولى أبى طالب الهيتى التاجر ، حدث السلفى بعد عودته من بغداد سنة ٥٣٠ ، كما ذكر ذلك الإدفوى (١) ، وتوفى شهيداً بالإسكندرية سنة ٥٣٩ ودفن بمقبرة الديماس .

ــ ترفة أو عائشة بنت أحمد الرازى ، من رواة الحديث ، ومن بيت علم ودين ، قرأ عليها السلفى بالإسكندرية سنة ٥٣٤ وهى زوجة الشيخ الخولانى ، الذى تزوج السلفى ابنتها منه « ست الأهل » ، وكانت صالحة متدينة .

ــ الجديدة بنت المبشر بن فاتك الدمشقى ، وتسمى أيضا الخفرة ، وهى محدثة ، أخذ عنها السلفى .

ــ تقية بنت غيث الأرمنازى الصورى وتسمى أيضا ست النعم ، وقد أنشدت السلفى شعرا من نظمها،وقال عنها « لم تر عينى شاعرة قط سواها » ، وتوفيت سنة ٥٧٩ بالإسكندرية عن ٧٩ سنة ، ولها ديوان شعر صغير .

---

(١) الطالع السعيد

ـ مكية بنت عمرو بن هانىء التجيبي الأندلسى ، سمع منها السلفى بالإسكندرية عندما دخلها ، وكانت امرأة صالحة كبيرة فى السن ، وكانت تأوى إليه وتنزل عنده فى طريقها إلى الحج ، فلما عادت منه ماتت بقوص .

ـ ابن العريف ، سمع من السلفى وشيوخ الإسكندرية ، وهو شيخ من أهل البيوتات المشهورة بها ، وبها توفى سنة ٥٣٧ ودفن بمقبرة الديماس .

ـ أبو القاسم عبد الرحمن بن يمن بن عطية التاهرتى ، سمع السلفى منه بالإسكندرية ، وكانت أمه تحفظ القرآن ، وكتبت «المدونة» فى الفقه بخطها ، وكان يعد من قبل أحد شيوخ بغداد .

ـ أبو الرضا عبدالله بن الفضل بن دليل الحضرمى المالكى ، نائب الحكم بالإسكندرية ، سمع الحديث على أبى عبد الله الحضرمى ، وكان يلازم السلفى ويراجعه فى المسائل ويقرأ عليه شرح البخارى لابن بطال ، وسمع السلفى منه بالاسكندرية .

ـ أبو محمد عبد الله بن عثمان بن وار الكزولى المالكى ، سمع منه السلفى أيضا بالثغر السكندرى .

ـ أبو محمد عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن حران القلعى ، سمع منه بالثغر أيضا .

ـ أبو محمد عبد الله بن توريث بن الوزان اللمتونى الملثم سمع منه به أيضا .

ـ أبو محمد عبد الله بن الحسن بن عشير العبدرى اليابسى النحوى ، وكان مصدرا فى جامع الإسكندرية لإقراء القرآن والنحو ، وأنشد السلفى كثيرا من شعره ، ومات بالاسكندرية ودفن بمقبرة باب البحر .

ـ سند بن عنان بن إبراهيم بن حريز بن الحسين بن خلف الأزدى أبو على

وقد اشتهر فى الإسكندرية بالفقيه والإمام سند ، لازم الطرطوشى وتتلمذ عليه وتخلق بأخلاقه وسار على نهجه ، وكان من أئمة المالكية وجلس فى حلقته بعده ولما مات سنة ٥٤١ دفن إلى جواره بالباب الأخضر ، وقد روى عن السلفى وأبى الحسن على بن المشرف الأنماطى ، وله « الطراز » فى الفقه ، شرح فيه « المدونة » فى ٣٠ سفرا ولم يتمه ، وظل ٢١ سنة يدرس الفقه بعد الطرطوشى فى الاسكندرية وانتفع الناس به ، وكان من زهادها وكبار الصالحين بها ، وأحد شعرائها ، وقد رآه فى المنام ابن جارة ، وتميم بن معن البادسى ، وتحدث عنه السلفى فى « معجم السفر » وابن فرحون[1] وقال عنه ابن دقيق العيد « كان فاضلا من أهل النظر » . وكان بنو عوف يجلونه ، وقد اجتمع منهم سبعة فقهاء فقال : أهلا بالفقهاء السبعة ، إشارة منه إلى فقهاء المدينة المنورة وأئمتها .

ـ أبو الحسن رضوان بن إبراهيم بن علان الدبيلى الكردى المالكى ، كان إماما بأحد مساجد الاسكندرية بناحية مقبرة وعلة ، وتوفى بها ودفن سنة ٥٤٣ وعلق عنه السلفى حكايات .

ـ أبو عمرو عثمان بن الحجاج الشاقى[2] الصقلى ، وكان من أهل الاسكندرية ، وبها توفى سنة ٥٤٤ وصلى عليه السلفى عند الباب الأخضر ، ودفن بمقبرة وعلة ، وكان السلفى قد اطلع على رسائله .

ـ أبو محمد هارون البروجى[3] الهندى ، وهو شيخ صالح ، كان لا يستطيع

---

(١) الديباج المذهب

(٢) شاقة مدينة بصقلية

(٣) بروج من بلاد الهند

التعبير لا بالعربية ولا بالفارسية إلا بصعوبة ، ومع ذلك كان يؤذن فى أحد مساجد الإسكندرية ، وسمع منه السلفى بها .

— أبو محمد عبد الوهاب بن إسماعيل بن توهيب الشاعر الوراق السكندرى ، له فى السلفى أكثر من خمسين قصيدة غير المقطعات التى سمعها منه ، قال عنه السلفى «ولم يكن فى وراقى الإسكندرية ولا شعرائها أكبر منه سنا فى وقته » فقد نيف على التسعين ومات بها سنة ٥٤٧ ، ومن شعره عندما أنشئت «المدرسة السلفية» على يد العادل السلار :

لله در (العادل) المرتجى	ذى العز والتأييد والنصر
بنى لنا (مدرسة) .. مثلها	لم يبن فى دهر ولا عصر
فأرضها ،كالمسك جلت على	البسط التى تفرش والحصر
(بغداد) دار العلم لم تفتخر	بمثلها قط على (مصر)
وماتولاها سوى (الحافظ) المعصوم	من عى ومن حصر
خبير فقيه فى الورى عالم	تبصره (كالحسن البصرى)

— أبو إسحق إبراهيم بن محمد بن سليمان اليحصبى الأندروشرى ، قال السلفى فيما نقل عن خطه « كان من أهل الأدب والنحو ، أقام بمكة مدة ، وقدم الإسكندرية سنة ٥٤٨ » وذكر أنه قرأ النحو على أبى الركب النحوى المشهور وغيره ، وكان طاهر الصلاح ويبغض الرفض والرافضة (١) .

— عبد المعطى بن مسافر بن يوسف بن الحجاج الرشيدى نزيل الإسكندرية وإمام الأحناف ، سمع منه السلفى ، وقد سأله عن مولده فقال سنة ٤٦٠ .

— أبو المعالى رافع بن يوسف بن زيدون القيسى ، كان أحد المعيدين للسلفى

---

(١) بغية الوعاة : السيوطى

بالمدرسة من أول إنشائها سنة ٥٤٤ ، وكان يعيد على أربعين صبيا بها ، كما كان يؤم الناس فى المدرسة ، وتوفى سنة ٥٥١ ، وكان فقيها مفسرا محدثا مؤرخا ، سمع من السلفى وعلق عنه « الأمالى الحديثية » .

ـ اليسع بن حزم أبو يحيى الغافقى الأندلسى الجيانى رحل إلى المشرق وسكن الإسكندرية وأقرأ بها ثم رحل إلى مصر فأكرمه صلاح الدين ، كان فقيها مشاورا مقرئا حافظا نسابة ومؤرخا ،وضع كتاب«المغرب»فى تاريخ المغرب وتوفى سنة ٥٥٧

ـ أبو على الحسين بن كرام بن اسكندر الكاتب الشاعر المحدث سمع منه السلفى بالإسكندرية وبها مات سنة ٥٥٨ ودفن فى مقبرة باب البحر .

ـ أبو محمد عبد الله بن يوسف بن النطاع القروى الملقب بالمهذب ، وكان يحضر عند السلفى فى مدرسته لتعليق دروس الفقه ، ويكتب الأمالى الحديثية . وكان نظم الشعر أسهل عليه من شرب الماء ، كما يقول السلفى ، وعمل شاهدا بالمحلة ولكنه دخل فيما لا يعنيه ، فأساء إلى نفسه ، فصدر عليه الحكم بالإعدام فأعدم سنة ٥٦٠ هـ « ولم يظهر لأحد كيفية أمره » .

ـ أبو عبيد نعمة بن زيادة بن خلف الغفارى،سمع من السلفى بالإسكندرية، وحج مع السلفى وأبيه سنة ٤٩٩ وتوفى سنة ٥٦٣ عن ٩٧ سنة .

ـ أبو الحسين يحيى بن عساكر بن يعقوب الكاتب الشاعر خطيب جامع الثغر، المتوفى سنة ٥٦٣ أيضا .

ـ القاضى الرشيد أبو الحسن الأسوانى ، ولد بأسوان واتصل بملوك مصر ، ومدح وزراءها ، ونال الحظوة عندهم ، كان عالما فى الهندسة والمنطق والفلسفة والكلام وبرع فى الفقه والنحو والصرف واللغة والأنساب والموسيقى والطب

والشعر وأحكام النجوم ، وكان ، خال الموفق ابن الخلال رئيس ديوان الإنشاء الفاطمى، سمع باليمن وبغداد ودمشق ، وحضر على السلفى بالإسكندرية ، وحضر دروسه وقال عنه السلفى « كان يقول لى : قد هان على ما أنا فيه من المكوس بما آخذه عنك من الحديث » .

روى السلفى كثيرا من شعره ، وذكره العماد الكاتب فى « الخريدة » وابن خلكان فى « الوفيات » ومن مؤلفاته « الجنان ورياض الأذهان » ذيل به على « اليتيمة » وقال السلفى « كان من أفراد الدهر فضلا فى فنون كثيرة » ولى نظر الإسكندرية فى الدواوين السلطانية بغير اختياره ، فأرضى الناس ، وخصوصا الفقهاء ، ثم قتل ظلما فى المحرم سنة ٥٦٣ هـ» وروى منصور بن سليم مؤرخ الإسكندرية وحتسبها بعض أشعاره نقلا عن السلفى .

وكان قدتآمر مع شيركوه ، فقبض عليه شاور وعذبه ، وأمر بضرب عنقه . وكان قد دخل الإسكندرية مع الناصر صلاح الدين الأيوبى ، وفى أواخر العصر الفاطمى بعثه الخليفة الحافظ رسولا داعيا له بالمذهب الشيعى إلى اليمن سنة ٥٣٩ فقبض عليه وأرسل إلى مصر ، فعفى عنه وكان يسمى « علم المهتدين » ولما كان علم الشيعة أسود اللون ، وكان القاضى الرشيد أسود البشرة ، كتب شاعر يمنى إلى الخليفة صاحب مصر يقول :

بعثت لنا علم المهتدين ∴ ولكنه علم أسود

وقال عنه ابن عزم : « صاحب الديوان ونظر الإسكندرية » ، وابنه على، رآه العماد بالقاهرة سنة ٥٧٣ ،أما أخوه الرشيد الأسوانى المهذب فهو صاحب « الأنساب » فى عشرين مجلدا، وله تفسير فى ٥٠ مجلدا ، ودخل اليمن كأخيه، ومات سنة ٥٦١، ولم يكن فى زمانه أشعر منه .

ـ محمد بن محمد بن محمد بن ظفر الصقلى الفقيه حجة الإسلام المكى الأصل المغربى النشأة ، ولد بصقلية ، ونشأ بمكة ، ودخل المغرب والإسكندرية ولقى الطرطوشى وروى عن السلفى ، وكان ضليعا فى مذهبى مالك والشافعى ، وكان واعظا متكلما وشاعرا وناثرا ، عاش ومات فقيرا من المال سنة ٥٦٥ أو سنة ٥٦٧ ولكنه ترك مؤلفات عـــدة أشهرها مما اطلعنا عليه كتاب « أنباء نجباء الأبناء » .

ـ ابن قلاقس الشاعر السكندرى اللخمى الأصل ، نصير الدين عبد الله ابن مخلوف بن على بن على بن عبد القوى ويلقب بالقاضى الأعز ، ولد بالإسكندرية سنة ٥٣٢ ، ورحل إلى صقلية وبقى بها نحو عامين ، وغادرها إلى اليمن ، وبعد عودته منها مات بعيذاب سنة ٥٦٧ ، وصحب السلفى بمدوسته وانتفع به ومدحه بشعره ، وله ديوان شعر مشهور يفيض بالوصف والمدح ولا سيما السكندريات .

ـ صالح بن إسماعيل أبو طالب ابن بنت معافى ، مفتى الإسكندرية ، وقد توفى سنة ٥٦٨ هـ(١) .

ـ القاضى الشريف أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الأموى الديباجى الإصبهانى العثمانى الإسكندرانى ، وهو من ذرية سيدنا عثمان بن عفان ، ويعرف بأبى إلياس ، وهو من بيت قضاء ، وله علم واسع ولاسيما فى الحديث ، وكان كثير الرواية قديما بالأدب ، وكان شاعرا وناثرا ، وكان أوحد عصره فى علم الشروط ، وكان قوله المقبول على كل العدول ، روى عن أبى القاسم بن الفحام وأبى بكر الطرطوشى وذكره السيوطى (٢) فى قائمة محدثى الإسكندرية الذين لم يبلغوا درجة الحفظ وانفردوا بعلو الإسناد ، وقالوا عنه إنه محدث الإسكندرية

(١) النجوم الزاهرة : ابن تغرى بردى .

(٢) حسن المحاضرة

بعد السلفى فى المرتبة . وذكره أيضا صاحب «الخريدة» ، وصاحب «الروضتين» وصاحب «النجوم الزاهرة» ، وتوفى بالإسكندرية سنة ٥٧٢ عن ٩٨ سنة ، وكان آخر من تحدث عنه رمضان حلاوة ، السكندرى ، فى تعقيباته على تراجم ابن عزم فى « دستور الإعلام » .

ـــ ابن رجاء اللخمى التنوخى ، ومات بالإسكندرية أيضا سنة ٥٧٢ .

ـــ عبد الرحمن بن خلف الله أبو القاسم الإسكندرانى المالكى المقرىء المؤدب قرأ على ابن الفحام وابن بليمة وحدث عن الرازى ،وقرأ عليه الصفراوى والفضل الهمذانى ، وروى عنه على بن المفضل الحافظ ، ومات سنة ٥٧٢ تقريبا .

ـــ أبو عمران موسى بن على السخاوى ، سكن الإسكندرية ، أثنى على فضائله الأمير عز الدين بن مصال للعماد الأصفهانى ، وأنشده من شعره الرقيق ، وقال إنه شاعر الإسكندرية ، ولما أوقع ابن مصال بعرب جهينة فى صعيد مصر ، وجىء بهم إلى القاهرة سنة ٥٧٢ إلى القاضى الفاضل، مدحه السخاوى بقصيدة طويلة وأثنى صلاح الدين الأيوبى على بلاغته وبديهته وبراعته فى النظم ، ولهذا كان يسمى « البليغ » لنثره الذى كان أحسن من شعره ، وتوفى سنة ٥٧٢ هـ .

ـــ أبو الحسن على بن محمد بن عيسى الأزدى الشاعر السكندرى المعروف بابن قيصر ، ذكره السلفى فى المعجم ، وكان من أهل الأدب والفقه ، وكان يحضر عنده ويعلق عنه ، وقال عنه العماد الكاتب « كان كثير المنظوم ، قليل الجيد منه وقيل عنه : الفقيه الرشيد » .

ـــ أبو القاسم عبد الرحمن بن مكى بن حمزة بن موقا الأنصارى التاجر مسند الإسكندرية ، كان آخر من حدث عن أبى عبد الله الرازى ، وتوفى

بالإسكندرية سنة ٥٧٩ عن ٩٤ سنة .

ـــ عبد الرازق الوفائى الأموى المصمودى الجزولى ، دخل مصر سنة ٥٧٥ ونزل بالمدرسة العوفية بالإسكندرية ، وتوفى بها سنة ٥٩٢ ، وعرف بالتصوف وأخذ بها عن ابن عوف .

ـــ موفق الدين عيسى بن عبد العزيز التميمى الإسكندرى اللخمى الشريشى الأصل النحوى المالكى المحدث الشاعر اللغوى والفقيه العالم بالقراءات ، توفى سنة ٦٢٩ عن ٧٩ سنة ، ومن مؤلفاته « حجة المقتدى ومحجة المبتدى » فى القراءات ، و «التنبيه فيمن يكنى بأبى القاسم من المقرئين » و «الاهتداء فى الوقف والابتداء » و « أنوار الأنوار فى قراءة أئمة الأمصار » و « الإفادات فى الإجازات » و «الإحالة فى شروح الإمالة » و « الإبالة فى شرح الرسالة » أى رسالة أبى زيد القيروانى فى الفقه ، و «الرسالة البارعة فى الأفعال المضارعة» و «الدقائق والحقائق» و « الدال على الفرق بين التاء والدال » و « الإخبار لصحيح الأخبار » و« الثريا المضية من كلام خير البرية » و « التعزية لأهل المصيبة » و « التحرير فى إذهاب ما فى الراءات من التكرير » و « بيان سنة القرآن » وله ديوان شعر أيضا ، و « المنزلة العليا فى تعبير الرؤيا » و « غاية الأمنية فى علم العربية » و « المراد فى كيفية النطق » و «المختصر فى القراءات العشر» و «الجامع الأكبر والبحر الأزخر » فى القراءات .

ـــ أبو طاهر إسماعيل بن مكى بن إسماعيل بن عوف الزهرى الإسكندرى ، من أسرة عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المبشرين بالجنة ، كان من أعيان الإسكندرية وأعلامها الشوامخ ، تتلمذ على الإمام أبى بكر الطرطوشى ، وبه انتفع وتفقه ، وكان ربيبه وتزوج الطرطوشى خالته ، وتوفى بعد السلفى بست سنوات

أى سنة ٥٨١ عن ٩٦ سنة ، وبيته بالإسكندرية معروف مشهور بالعلم والزهد ؛ كان منهم الفقهاء الإخوة السبعة ، الذين دخلوا على الفقيه سند بن عنان فقال : «أهلا بالفقهاء السبعة » ، سمع من الطرطوشى وأبى عبد الله الرازى ، وبرع فى المذهب المالكى، وروى عنه شرف الدين بن المقدسى ، وعندما دخل السلفى الإسكندرية كان فى زهرة شبابه وعمره ٢٦ سنة . فجمع بين الطرطوشى والسلفى ، وقد سماه السيوطى «صدر الإسلام» وقد ذكر السلفى أن ابن عوف قال له عن ظافر الحداد « ما عرفنا له قط حرمة كمثل الشعراء » (١) .

وعندما دخل شاور مدينة الإسكندرية سنة ٥٦٢ امتنع ابن عوف ، ومعه بعض أنصار صلاح الدين الأيوبى بالمنار ، ممن بذلوا كل مافى وسعهم فى تأييد الرأى العام السكندرى لصلاح الدين ، فضلا عن إمداده بالأموال والرجال والعتاد والميرة ، حتى انتصر وفك الحصار عن الإسكندرية .

أما شهرته العلمية فلا يخفى أنه خلف أستاذه الطرطوشى فى تدريس مذهب مالك ، ثم أنشأ له الخليفة الحافظ أول مدرسة لأهل السنة فى الشرق كله على مذهب مالك سنة ٥٣٢ ، وسميت الرضوانية أو الحافظية أو العوفية ، أنشأها الوزير رضوان بن ولخشى بشارع المحجة أى طريق الحرية الحالى ، وذلك قبل إنشاء المدرسة السلفية أو العادلية التى أنشئت سنة ٥٤٤ لنشر المذهب الشافعى .

وفى سنة ٥٧٧ قدم السلطان صلاح الدين الأيوبى إلى الإسكندرية وقال : «نغتنم حياة الشيخ أبى طاهر بن عوف» ، وتم له ولأولاده منه السماع للموطأ برواية الطرطوشى ، أى بعد سماع صلاح الدين دروس الحديث على السلفى سنة ٥٧٢ ، وكتب القاضى الفاضل رسالة يهنىء فيها صلاح الدين على هذا السماع

(١) معجم السفر

ويشبهه بهارون الرشيد وسماعه هو والأمين والمأمون على الإمام مالك ، والمترجمون للسلفى قلما ينسون ابن عوف كلما ذكرت الإسكندرية ، فيقولون دائما : « أبوا الطاهر السلفى وابن عوف » .

وعندما كان صلاح الدين بالشام ، واختلف فقهاؤها فى قضية جواز أن يكون الأعمى قاضيا ، بعث إلى القاضى الفاضل بمصر يأمره بالذهاب إلى ابن عوف بالإسكندرية ، ليستفتيه فى هذه القضية ، عرفانا من صلاح الدين بقدر ابن عوف ورسوخ قدمه فى الفتوى والورع والزهد والتواضع .

ولابن عوف ابن نجيب هو ابن نفيس أو الحرم مكى صاحب «العوفية» وهى فى ٣٦ مجلدا شرح بها « التهذيب » للبرادعى ، وكان يقوم بالتدريس فى أيام أبيه بالعوفية . وحفيده عالم أيضا هو الزاهد رشيد الدين عبد العزيز بن محمد بن أبى الطاهر بن عوف ، زار دمشق سنة ٦٢٦ ، ومنهم أبو الفتح عثمان بن هبة الله بن عبدالرحمن بن مكى بن إسماعيل بن عوف الزهرى الإسكندرانى آخر أصحاب ابن موقا وتوفى سنة ٦٧٤ ، ومنهم سيدى الزهرى المعروف بهذا الاسم عند الإسكندرانيين فى الوقت الحاضر ، وضريحه لا يزال قائما يزار عند « الشلالات » يفصله عن سور «ملعب الإسكندرية» طريق واسع .

ونرجح أنه هو النجيب أبو على الحسن بن أبى محمد عبد الوهاب بن أبى الطاهر إسماعيل بن مكى بن عوف القرشى الزهرى السكندرى المالكى، ولد بالإسكندرية ٥٥٣ وسمع من جده الإمام أبى الطاهر إسماعيل بن عوف ، وحدث ، بالإسكندرية والقاهرة ، وكان من أعيان الثغر ومن ذوى الآراء السديدة ، وعرف بحسن الأخلاق والظرف والعلم والصلاح وتوفى بالإسكندرية سنة ٦١٢ ، تحدث عنه المنذرى(١)

(١) التكلة لوفيات النقلة .

وعن أبيه وجده وأخويه أبي البركات عبد الله وأبي الفضل عبد العزيز ، أما النجيب المترجم له فقد أدرك في عز شبابه الإمام السلفي بالإسكندرية في أخريات حياته وسمع منه ، لأن السلفي توفى ، والنجيب في الثالثة والعشرين من عمره .

وبالاختصار فإن قصة ابن عوف وذريته من بعده سيرة عطرة ومشهورة في معظم تراجم المالكية والإسكندرانية والمعاجم الأندلسية ، وقد اعتمدنا عليها جميعا في تلخيص هذه النبذة .

وقد أخذ صلاح الدين برأي الإمام الفقيه صدر الإسلام ابن عوف في تحديد رسم على صادرات الإفرنج بديوان الإسكندرية (الجمرك) خصصه كمرتبات شهرية لفقهاء الثغر وذريتهم من بعدهم ، وجعل السلطان لهذا (الصادر) مديرا وأعوانا ، كما ذكرنا ذلك من قبل، في الحديث عن حسنات الدولة الأيوبية على العلم والعلماء في الإسكندرية .

ومن مؤلفاته « تذكرة التذكرة » في أصول الدين ، وله كتاب في الرد على صاحب « الفاضح » الذي تطاول على الإسلام بالطعن في أحكامه .

ـ عبد المنعم بن يحيى بن خلف بن النفيس المكتب الغرناطي الأندلسي ، أخذ القراءات عن أبيه ، ودخل مراكش وحفظ القرآن وأتقن العربية ورحل إلى المشرق وحج وتجول واستوطن الإسكندرية وحدث بها وروى عنه أبو الحسن المقدسي، وسمع منه بها أبو الحسن ابن خيرة موطأ مالك سنة ٥٨٤ ، وتوفى سنة ٥٨٦ ، ذكره المنذري (١) وابن الأبار (٢) .

ـ أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن الحضرمي المالكي قاضي الإسكندرية، روى عن

(١) التكملة لوفيات النقلة
(٢) التكملة لكتاب الصلة

محمد بن أحمد الرازى وتوفى سنة ٥٨٩ .

— أبو الحجاج يوسف البلوى المالقى عرف بابن الشيخ ، فقيه محدث أديب شاعر أندلسى الأصل ، وأقام بالإسكندرية ، وتتلمذ للحافظ السلفى سنة ٥٦٢ ﻫ وأكثر من النقل عنه وهو صاحب الموسوعتين الثقافيتين « ألف باء » و « تكميل الأبيات وتتميم الحكايات مما اختصر للألبا فى كتاب ألف با » . الأول مطبوع فى مصر والآخر مفقود ، وقد وصف منارة الإسكندرية وصفا دقيقا وقاس أبعادها بنفسه ، لأنه كان مهندسا ، ولقى بها السرقسطى والديباجى العثمانى وتقية بنت الخطيب ، وسائر المجموعة التى كانت تحضر على السلفى ، وبنى ببلده ٢٥ مسجداً من ماله وتوفى سنة ٦٠٤ ﻫ عن ٧٧ سنة ، وكان موفور الحظ فى العربية والأدب والفقه والأصول ، وكان يلبس الخشن من الثياب .

— أبو القاسم بن فيرة الشاطبى : دخل مصر سنة ٥٧٢ وحضر عند السلفى وسمع منه ، وهو العالم بالقراءات المشهور . ومات بالقاهرة سنة ٥٩٠ . وهو صاحب « حرز الأمانى » وقد ميزنا بينه وبين الشاطبى المتصوف نزيل الإسكندرية ودفينها والمتوفى سنة ٦٧٢ ﻫ .

— ابن البورى الدمياطى كان مدرسا للحديث بمدرسة السلفى وتوفى سنة ٥٩٩ ﻫ .

— الإمام أبو القاسم عبد الرحمن بن أبى الخير بن سلامة بن يوسف القضاعى الإسكندرى المالكى قاضى الإسكندرية وناظر الفقهاء ، وقد قرأ عليه القاضى السكندرى الخطيب جمال الدين الريغى ، وعرض عليه السلطان أن ينوب فى الحكم بالإسكندرية فامتنع ، وتوفى ابن سلامة سنة ٦٠٣ عن ٨٣

سنة ، وكانت له مكانة جليلة عند الملك السلطان العادل الأيوبى ووزيره وصاحبه الصفى عبد الله بن على ، وهو الذى رشحه ليتولى منصب حاكم الثغر فرفض ترفعاً ، فألح عليه أعيان الإسكندرية ، حتى نزل على رغبتهم وقبل المنصب مكرها ، وضم إليه النظر فى مساجد الإسكندرية وأحباسها (أوقافها) ، فكان ابن سلامة أول قاض يجمع بين الخطابة والقضاء .

وليس أدل على زهده من تركه الرسم الجارى على حكام الإسكندرية قبله ، وكان مقررا فى نظر العيار بدار الضرب ، فأمر بتوفيره وتخصيصه للعلماء الوافدين على الإسكندرية وغيرهم ، ولم يتناول ابن سلامة منه شيئا ، فأمر السلطان بحمله إلى بيت المـــال .

هذه النبذة استوعبناها من سيرة القاضى جمال الدين الريفى المخطوطة النادرة بعنوان «المفاخر السنية والمآثر المرضية» ، ولا نعلم أحدا أفاد منها قبلنا .

ـــ أبو الفضل عبد المنعم بن عبد العزيز الإسكندرانى الفقيه الشاعر المالكى ، رحل إلى بغداد ، وطلب الأدب ، ولقى الفضلاء ، وله شعر رقيق ، وهو الشاعر المصرى الوحيد الذى ذكره ابن سعيد الأندلسى فى « الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة » ، ولخص أخباره عند زيارته للإسكندرية عن شيخ علمائها الأسعد بن يعرب ، وأورد الكثير من شعره ، وتوفى سنة ٦٠٣ ، وقد أوجز ترجمته كل من ابن الأثير وابن الساعى ، بينما لم يتحدث عنه السلفى ـ وهو معاصره ـ فى قليل ولا كثير .

كان رسولا إلى يحى بن غانية الميورقى الثائر الذى أعلن الاستقلال بإفريقية فترة من الزمن ، فرجع بعشرة آلاف دينار ، فرقها فى أهل وده ومعارفه ،

ومات فقيرا بمارستان بغداد ، وكان أمـــير المؤمنين أبو عبد الله قد جهز جيشا ضخما إلى أفريقية ، وكان قد استولى عليها الميورقى ، عندما انتهز فرصة انفراد الموحدين بغزو الروم الأندلس .

ــ هبة الله بن محمد بن الحسين بن مفرح جمال الدين أبو البركات المقدسى ثم الإسكندرانى ، ويلقب بابن الواعظ ، أخـــذ عن السلفى ، وكان من عــدول الإسكندرية ، وبها توفى سنة ٦٠٥ عن ٨١ سنة .

ــ الحافظ أبو الحسن على بن المفضل بن على المـــالكى المقدسى ، كان من حفاظ الحديث وأئمة المذهب العارفين به ، وله تصانيف ، وتخرج بالسلفى ، وخلفه فى رياسة المدرسة السلفية ، وتوفى بالقاهرة سنة ٦١١ ؛ وقلما تخلو ترجمة للسلفى من ذكر اسمه والتنويه بفضله ، وله مؤلفات عديدة .

ــ عبد الكريم بن عطاء الله الإسكندرانى الإمام فى الفقه والأصول والعربية، رافق ابن الحاجب فى الأخـــذ على أبى الحسن الابيارى ، وتوفى ســـنة ٦١٢ .

ــ عبد الرحمن بن عبد الجبار العثمانى الإسكندرانى ، وكان ممن أكثروا الأخذ عن السلفى ، والسماع منه ، وكان من المحدثين السكندريين ، الذين انفردوا بعلو الإسناد ، وتوفى سنة ٦١٤ عن ٧٠ سنة .

ــ أبو طالب ابن حديد القاضى المالكى السكندرى ، وهو من بيت قضاء وحشمة مشهور بالاسكندرية ، روى عن السلفى ، وحدث وانفرد بعلو الإسناد وتوفى بالأسكندرية سنة ٦١٩ .

ــ أبو الحسن على العراقى الخلال ويعرف بابن البناء حدث بمصر والأسكندرية

وقوص ، وأنفرد بعلو الإسناد فى الحديث ، وتوفى بمكة سنة ٦٢٢ .

— عيسى بن عبد العزيز اللخمى الشريشى الإسكندرانى ، المقرىء ، سمع من السلفى سنة ٦٢٩ .

— على عفيف الدين المصرى الشافعى المقرىء ، سمع من السلفى وتصدر للإقراء بالمدرسة الفاضلية بالقاهرة وتوفى بها سنة ٦٣٣ .

— جمال الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الحميد بن إسماعيل الصفراوى الفقيه المالكى المقرىء الإسكندرانى ، ولد بالإسكندرية سنة ٥٤٠ ، وسمع من السلفى ، وتفقه بأبى طالب صالح بن بنت معافى ، وقرأ على أبى القاسم بن خلف الله ، وانتهت إليه رياسة الإفتاء والإقراء بالإسكندرية ، وبها توفى سنة ٦٣٦ عن ٩٢ سنة ، وكان محدثا انفرد بعلو الإسناد .

— جعفر بن على بن هبة الله أبو الفضل الهمذانى الإسكندرانى المالكى المقرىء المحدث الأستاذ، تصدر للإقراء وروى عن السلفى بكثرة، وتوفى بدمشق سنة ٦٣٦ ه

— شرف الدين أبو المكارم محمد بن عبد الله بن الحسن السكندرى ابن عين الدولة المتوفى سنة ٦٣٩ .

— عثمان بن عمرو أبو عمرو بن الحاجب ، ولد بإسنا سنة ٥٧٠ وتوفى بالإسكندرية سنة ٦٤٦ ، روى عنه المنذرى ومنصور بن سليم ، وتفقه على أبى منصور الإبيارى وتأدب على الشاطبى ، وله مصنفات فى الفقه والأصول والنحو وبه اشتهر ، وتصدر بالمدرسه الفاضلية بالقاهرة لإقرائه ، ولم يدرك السلفى الذى توفى وابن الحاجب ابن ست سنوات ، وكان فقيها مقرئا أصوليا نحويا صرفيا عروضيا ، ودرس بدمشق وهو صاحب « الكافية » فى النحو ، وقد اشتهر بها

وكثرت شروح المؤلفين عليها، وله أيضا « الشافية » فى الصرف ، و «فقه المالكية»

ــ منصور بن سندبن الدباغ أبو على الإسكندرانى النحاس ، أكثر من الأخذ عن السلفى ، وانفرد بعلو الإسناد فى الإسكندرية ، وتوفى بها سنة ٦٤٨ .

ــ أبو منصور بن عبد الملك بن عتيق مظفر بن السرى الفهرىالإسكندارنى المالكى الشاهد ، أخذ عن السلفى ، وانفرد بعلو الإسناد ، وتوفى سنة ٦٤٨ عن ٩٠ سنة .

ــ ابن الجميزى الفقيه المقرىء المحدث المصرى ، انتهت إليه مشيخة العلم فى الديار المصرية ، أخذ عن السلفى ، وتوفى سنة ٦٤٩ .

ــ سبط السلفى ، جمال الدين أبو القاسم عبد الرحمن مكى بن عبد الرحمن الطرابلسى الإسكندرانى المحدث ، سمع من جده وشهد وانتهى إليه علو الإسناد ، بالديار المصرية ، وتوفى بمصر سنة ٦٥١ عن ٨١ سنة .

ــ الحافظ أبو الفضل جعفر بن الوزير الفضل بن الفرات البغدادى (ابن خترابه) نزيل مصر أيام وزارة الكامل لكافور ، قال عنه السلفى « كان من الحفاظ المتقنين ، يملى ويروى فى حال الوزارة ، عندى من أماليه ومن كلامه على الحديث الدال على حدة فهمه وقوة علمه » .

ــ ابن وثيق شيخ القراء أبو إسحق إبراهيم بن محمد الأموى الإشبيلى، تنقل فى البلاد وأقرأ بمصر والشام والموصل، وكان عالى الإسناد وتوفى بالأسكندرية سنة ٦٥٤ هـ .

ــ ابن سناء الملك الشاعر المصرى ، سمع الحديث من السلفى وتوفى سنة ٦٥٨، كان نحويا ، وكتب بديوان الإنشاء ، وله « در الطراز » فى الموشحات .

ــ أحمد بن جعفر بن أحمد بن إدريس الإمام أبو القاسم الغافقي الخطيب المقرىء، أخذ عليه القراءات أبو القاسم الصفراوى، وتوفى بالإسكندرية سنة ٦٦٥ عن ١١٠ سنة .

من ذوى الثقافات المختلفة هؤلاء أو معظمهم استقى السلفي معلوماته الضخمة وهو بالاسكندرية سواء كانوا شيوخا له ، أو ضيوفا أو تلاميذ أو أصدقاء ، شيباً وشبابا ، رجالا ونساء ، حكاما وفقهاء ومحدثين ومفسرين ونحاة وشعراء وخطباء وقضاة ومهندسين وأطباء وفلاسفة ومتكلمين ومناطقة ومتصوفة شيعية وسنية .

ومما يمتاز به السلفي أنه كان لايستنكف من الاستماع إلى كل حامل علم ولو لم يكن عالما ، ومنهم الأميون الذين لايقرأون ولا يكتبون ، ولكن الظاهرة العجيبة أنهم كانوا حفاظا للأدب والتاريخ والنوادر والحديث ، ففي الاسكندرية كان أرباب الحرف يحفظون الكثير من المعارف ، وكان ينقلها عنهم السلفي ويسجلها في كتبه وأماليه من أشعار وأخبار ونوادر وغرائب ومشاهدات ، ويسميها تعليقات ، من هؤلاء : النجار العامى الحافظ أبو الحزم شداد بن شريف بن صدقة اللخمى ، والتاجر أبو الحسن شروة السلماسى والتاجر أبو الغنائم محمود بن المفضل بن حيدره بن مطر الفريبانى (١) وكان يسمع الحديث مع تجار حلب من السلفي ، والمطرز أبو الحسن الكندى الشاعر ، والفلاح أبو محمد عبد الله الأزدى المباحى الرشيدى ، والخطاط الأديب أبو البركات القاضى السوسى ، والمجلد الكتبي الأندلسى أبو عبد الله بن سعيد الخولانى ، والوراق الشاعر السكندرى عبد الوهاب بن توهيب ، والوراق أبو الكرم وجيه بن شبل بن فاضل التغلبي الكاتب ، ويعلق السلفي عند ذكره فيقول : « وعلقت عنه ما علقت لغرابة اسمه لا لعلو

(١) فريبان : قرية قريبة من عسقلان .

سنده ولا علمه » ، والمؤذن أبو القاسم نجا الرملى ، والحداد الشاعر ظافر الحداد.

ومما يلفت النظر حقا ذلك الحشد الهائل من المثقفين في الإسكندرية في عصر السلفى من أساتذة وتلامذة ، بخلاف الوافدين الطارئين سواء في موسم الحج أو المقيمين بها مؤقتا أو مؤبدا ، حبا فى العلم .

وهذا يشير من غير شك إلى أن أرجاء الإسكندرية كانت أشبه بخلايا النحل ، كما أن سكانها كانوا من الكثرة بحيث استطاعت أن تستوعبهم هذه المئات من المدارس والمساجد والمصليات والأربطة والحارس والمنازل والقصور .

(٥)

ثقافة السِّلفي

« بقيـــة المسنـدين المعمرين »

« وخاتمة المحدثين المكثرين »

— ابن الأبار —

الحافر على الحافر

كان السلفى حقا مجددا فى ثقافته ومقلدا للإمام الشافعى ، وتأثر به أيما تأثر ، على الرغم من تلك الفجوة الزمنية التى فصلت بينهما ، على مدى أكثر من أربعة قرون طوال.

كان الشافعى نابها منذ صباه الباكر ، وكانت له رحلة علمية انتهى به المطاف فيها إلى مصر ، وكان -عليه رضوان الله- دقيقا كل الدقة فى تفكيره ، واسع الحيلة فى فهم دقائق القرآن والسنة ، عن فهم وبصيرة نفاذة ، أما تعبيره فكان أشبه بالماء الزلال سهولة ويسرا ، لا تكلف فيه ولا تعنت ، ونشر العلم فى الآفاق مدرسا وكاتبا ، ويكفى أن نعلم أن كتابه (الأم) وحده كان يحتوى على مائة وأربعين كتابا فى الأحكام .

واشتهر الشافعى بإحاطته بشتى ضروب المعرفة من تفسير ولغة وحديث وفقه وفلك وطب ، وكان يعتبر الطب (فقه الأبدان) ، شهد له ابن حنبل بالنبوغ فى فقه القرآن واستنباط معانيه فقال « ما رأيت أحسن من هذا الفتى فى فقه القرآن ، واستنباط معانيه » .

وكان رضى الله عنه محققا مدققا أمينا ، وكان يقول : « من تعلم فليدقق، كيلا يضيع دقيق العلم » ، وقد سار على نهجه هذا الإمام المحدث السلفى ، سواء فى أسلوب التفكير أو الدراسة أو التدريس أو الإسناد ، يقول الشافعى مثلا : حدثنى مالك عن عروة بن هشام عن أبيه عن زينب بنت أبى سلمة عن سلمة زوج النبى

أن النبي قال ، ويأتى بالحديث ثم يشرحه فى أناة ، ويفتق ذهن السامع أو القارىء بمسائل غاية فى الدقة والوضوح معا ، لا يلحقه فيها أحد من بعده بغبار .

وانفرد السلفى بثقافة لا مثيل لها عند غيره عمقا واتساعا ، تحصل عليها بالأخذ عن العديد من الشيوخ ، فى العديد من البلاد ، على مدى قرن كامل من الزمان ، تفاعلت فى أحداثه الجسام عوامل متضاربة وأجواء متباينة ، خرج منها السلفى لامعا براقا ، كالذهب الأصيل ، فكان المحدث الضليع ، والفقيه البارع ، والمعلم النافع . والنسابة المترجم ، واللغوى المتمكن ، والمؤرخ المدقق ، والبلدانى المحقق ، والشاعر الرقيق ، والكاتب الحصيف ، والناقد النزيه ، والمقرىء الأمين ، والزاهد العفيف ، وعلى رأس هذه الثقافات الواسعة العميقة، كان السلفى « عالم الحديث » ، الذى لم يجد الزمان بمثله ، حتى لقد وضع تلميذه التجيبى الأندلسى معجما عن شيوخ السلفى بعنوان « مشيخة السلفى » وبدأ به لسنه وفضله وعظم قدره وعلو سنده .

السلفى . . . وعلم الحديث

فى هذا الميدان كان السلفى أشهر الفرسان ، بما اغترفه منه طلاب الحديث ، ونشروه فى الآفاق سنين طويلة ، وما تركه هو للتاريخ من مؤلفات ، لاندرى اليوم عنها شيئا ، منها كتاب « الأربعين البلدانية » وتسمى « الأربعين السلفية » أو « بلدانيات السلفى » و « سداسيات » ،و « سلفيات » من أجزاء الحديث .

وفيما يلي أقوال المشاهير عن السلفي المحدث :

قال ابن تغري بردى : « طاف الدنيا ، ولقي المشايخ ، وكان يمشي حافيا ، يطلب العلم والحديث » .

وقال ابن الجزري : « حافظ الإسلام ، وأعلى أهل الأرض إسنادا في الحديث والقراءات ، مع الدين والفقه والعلم » .

وقال الذهبي : « حدث بالكثير ، ورحل إليه من الآفاق » ، وقال أيضا : « لا أعلم أحدا في الدنيا حدث نيفا وثمانين سنة سوى السلفي » .

وقال السبكي : « انتهى إليه علو الإسناد مع الحفظ والإتقان ، وقد طلب الحديث وكتب الأجزاء » ، وقال أيضا : « حدث عن أمم .. وروى عنه المسلسل بالأولية حضورا » .

وقال ابن السمعاني : « كثير الحديث ، حسن الفهم والبصر في فنه » .

وقال ابن ناصر : « كان ببغداد كأنه شعلة نار في تحصيل الحديث » .

وقال الزهاوي : « ويجلس للحديث ، فلا يشرب ماء ، ولا يبصق ولا يتورك ، ولا يبدو له قدم » .

وقال ابن خلكان : « رحل في طلب الحديث ولقي أعيان المشايخ » .

وقال السبكي : « بلغني أن سلطان مصر حضر عنده للسماع ، فجعل يتحدث مع أخيه فزجرهما وقال : إيش هذا ؟ نحن نقرأ الحديث وأنتما تتحدثان ؟ » .

وقال ابن نقطة : « كان حافظا ثقة ، جوالا في الآفاق ، سآلا عن أحوال الرجال »

وقال أبو الربيع بن سالم : «تفرد فى الدنيا بالإمامة فى علم الحديث، وعلو الدرجة فى الإسناد ، وأخذ عنه أهل الأرض جيلا بعد جيل ، وسمع الناس على أصحابه ، وهو لم يبعد عهده بشبابه » .

ـــ وقال ابن الأثير : « كان حافظ الحديث ، عالما به ، سافر فى طلب الكثير »

ـــ وقال شكيب أرسلان : «مسند الدنيا، وقال : «محدث الدنيا فى وقته ، و«محدث الدهر ».

ـــ وقال السخاوى : « والأسكندرية .. ما زال بها الحديث قليلا حتى سكنها السلفى ، فصار مرحولا إليها فى الحديث والقراءات ... » .

ـــ وقال ابن عساكر : « كان قدومه الأسكندرية فى أول سنة ٥١١ للسماع من أبى عبد الله بن الخطاب الرازى المتوفى سنة ٥٢٥ ، وقد استوفى مائة سنة ، فخلفه فى الإسماع ، وطال عمره ليطول به الانتفاع » .

ـــ وقال السيوطى : « انتهى إليه علو الإسناد ، روى عنه الحفاظ ، فى حياته، وله تصانيف ، وكان أوحد زمانه فى علم الحديث، وأعلمهم بقوانين الرواية».

وقال ابن عساكر : « بقية المسندين المعمرين ، وخاتمة المحدثين المكثرين ، وقد تفرد فى وقتنا هذا بعلو الدرجة فى الإسناد والمعرفة والإتقان والضبط » .

وقال العماد الكاتب الأصبهانى يصف زيارة صلاح الدين الأيوبى الأسكندرية سنة٥٧٢ : «.. ثم وصلنا إلى ثغر الإسكندرية، وترددنا مع السلطان إلى الشيخ الحافظ أبى طاهر أحمد بن محمد السلفى ، وداومنا الحضور عنده ، واجتلينا من وجهه نور الإيمان وسعده ، وسمعنا عليه ثلاثة أيام الخميس والجمعة والسبت رابع شهر رمضان واغتنمنا فرصة الزمان ، فتلك الأيام الثلاثة ، هى التى حسبناها من العمر ، فهى آخر ما اجتمعنا به فى ذاك الثغر » ، وذكر ابن واصل أنه «إنما استصحب ولديه

فى هذه السفرة ، ليسمعها الحديث النبوى ، وتعمها البركة » [١] .

ويكمل المقريزى هذه الزيارة فيقول عن صلاح الدين : «... ومعه ابناه الأفضل (على) ، والعزيز (عثمان) ، فصام بها - أى بالإسكندرية - شهر رمضان ، وسمع الحديث على الحافظ أبى الطاهر أحمد السلفى » [٢] .

وقال المنذرى : « لما أرادوا قراءة سنن النسائى على السلفى ، أتوه بنسخة سعد الخير ، وهى مصححة ، قد سمعها من الدونى ، فقال : اسمى فيها ؟ فقالوا : لا .. فأخذ بها من يد القارىء بغيظ وقال :لا أحدث إلا بأصل-أى بأصل فيه اسمى- ولم يحدث بالكتاب » .

وذكره أبو الوليد بن الدباغ فى « طبقات المحدثين » وأسند عنه بالإجازة هو وجماعة وافرة ماتوا قبله .

وذكر السبكى أن والده- أى والد السبكى - قد اعترض على فتوى أفتاها السلفى -سنذكرها فى حينها- لأن فنه هو الحديث وليس الفتوى ، وما كان ذلك ليقلل من شأن السلفى ، بل إنه مما يعزز القول بأنه نبغ فى الحديث نبوغا لم يلحقه ولم يسبقه فيه أحد من بعده أو من قبله .

ولقد كان أول سماع السلفى للحديث ببلده أصبهان - كما ذكرنا - على رئيسها أبى عبد الله الثقفى مسند عصره ، وكان ذلك سنة ٤٨٨ [٣] ، وسمع فى بغداد من أبى الحسن بن الطيورى الصيرفى البغدادى ، وكان محدثا صحيح الأصول صينا ، مكثرا

---

(١) مفرج الكروب : جـ ٢ : ابن واصل .

(٢) السلوك : المقريزى

(٣) المعجم : ابن الأبار

أمينا صدوقا ، توفى سنة ٥٠٠ هـ عن ٨٩ سنة ، كما سمع من أبى الحسن على الطبرى الملقب عماد الدين الكيا الهراسى الفقيه الشافعى مدرس النظامية ببغداد ، وقد مات بها سنة ٥٠٤ ، وكان محدثا يستعمل الأحاديث فى مناظراته ومجالسه ، وهو الذى أفتى بأن الذين يكتبون الحديث محسوبون فى الفقهاء ، عملا بقول رسول الله : «من حفظ على أمتى أربعين حديثا من أمر دينها ، بعثه الله يوم القيامة فقيها عالما» .

وعندما اشتد عود السلفى ، أصبح قادرا على التمييز بين الرجال من حيث التوثيق ، فلما سمع بعلى بن أحمد الواعظ الشروانى ، ذهب يسمع منه ليتأكد من صدقه ، فقال «أكثر ما فيه من الأسانيد من كتاب لا أصل له» ، بينما سمع بابن الخطاب الرازى السكندرى ، فرحل إلى الإسكندرية ليسمع منه ، حتى كانت وفاته سنة ٥٢٥ ، وكان ابن نادر الميورقى قد استوطنها وأحيى علم الحديث بها ، فسمع منه السلفى ، وانتفع به ، حتى توفى ابن نادر سنة ٥٣٣ ، وهكذا كان السلفى حريصا على الأخذ عن أعيان علم الحديث فى كل مكان .

ولقد كان السلفى يفخر بطلب الحديث وطلابه ورجاله ، ونظم فى ذلك شعرا كثيرا سنذكره فى الوقت المناسب ، ولكن يكفى أن نذكر هنا هذين البيتين قالهما :

إن علم الحديث علم رجال تركوا الابتداع للأتباع

فإذا الليل جنهم (١) كتبوه وإذا أصبحوا غدوا للسماع

وكان السلفى يقول بما يقول به شيوخه : «الحديث عز فى عز ، والفقه خبز فى خبز ، والكلام رز فى رز» (٢) ، وعلى هذا يجعل الصدارة فى العلوم الإسلامية

---

(١) جنهم الليل أى طوام واظلام .

(٢) ألف باء : البلوى .

لعلم الحديث ، قبل الفقه وعلم الكلام (وهو علم الجدل أو علم التوحيد أو علم العقائد) ويصوغ ذلك شعرا فيقول :

إن العلوم - كما علمت - كثيرة وأجلها فقه الحديث وعلمه

لولا الحديث وأهله لم يستقم دين النبي ، وشذ عنا حكمه

وأهمية علم الحديث لا تخفى على مصنفي العلوم ، لأن الثقافة الإسلامية تنفرد من بين ثقافات الأمم بأصول لا يشاركها فيها غيرها .. هي القرآن الكريم والحديث الشريف والاجتهاد والقياس ، وقلما كان المسلمون الأولون يقرأون ويكتبون ، ولكن الله عوضهم عن القراءة والكتابة قوة (الحفظ) ، ومع ذلك حرصوا على التعلم ونسخوا القرآن فى الصحف ، حتى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو كتاب الله المنزل على لسان نبيه ورسوله محمد عليه السلام ، أفصح العرب وأبلغهم على الإطلاق، ودار الحوار بين المسلمين حول القرآن كتاب الله مخلوق هو أم ليس، وتشعب الجدل - بين المتكلمين - حول مشكلة عرفت باسم (خلق القرآن) ، وكفر بعضهم بعضا ، واحتدم النزاع ، وسالت الدماء ، واختلطت السياسة بالعقيدة ، ولكن - على الرغم من هذا كله - لم يختلف اثنان حول (نصوص) القرآن ، ووضعت قواعد (القراءات) لتلاوته على الوجه الصحيح ، واستبهمت بعض المعانى فى آياته مما دعا إلى (التفسير) و (والتأويل) تنزيها للألوهية عن التشبيه والمادية الرخيصة ، وكان لابد من استيعاب أصول (العربية) التى نزل بها القرآن نحوا وصرفا ، حقيقة ومجازا ، فى ضوء ما قاله وفعله وأقره صاحب الرسالة عليه السلام، فكان هذا القول والفعل والإقرار من رسول الله جماع (الحديث الشريف)،

وكل حديث يشتمل على جزءين : نص الكلام المنسوب إلى النبى ويسمونه (المتن) ، وسلسلة رواة هذا الكلام وتسمى (السند)، وهما ركيزتا علم الحديث

ومن الطبيعي أن تختلف رواية عن رواية، بسبب ظروف القول وقوة الحفظ وأحوال النقلة وتفاوتهم في النقل علوا ونزولا ، وانتشارهم في الأمصار، كما أن بعض (الإسرائيليات) قد اندست بفعل اليهود في الأحاديث الصحيحة ، لتجد لها سبيلا إلى الطعن في الإسلام ، ولكن علماءنا وأئمتنا كانوا لليهود بالمرصاد ، فكشفوا عن آفات الرواية ، ولم يأخذوا إلا من المشهود لهم بالصدق والتحرز ، فوصلوا بمنهج الجرح والتعديل ، إلى الثقات ، بعد جهد جهيد ، وعلم واسع .

ومن هنا كان الذين تجردوا للإسناد وتفرغوا له أوسع علماء الإسلام ثقافة من لغة وأدب وطب وفلك وجغرافيا وتاريخ ومنطق وفلسفة وكلام وتصوف ، وعرفوا بالصدق والأمانة والتحرى والثقة في سلوكهم الفردى والجماعى ؛ وبذلك أمكن الأخذ عنهم ، لبراءتهم من كل ما يطعن في وثاقة علمهم ، وأمانة خلقهم ، وهما أجل مفخرتين الأسلاميات علوما وعلماء .

وما أجمل قول السلفى عن شيوخه: « فضلت هذه الأمة على سائر الأمم بالإسناد والأنساب والإعراب » [١] .

وإذا كان آباء المسلمين الأولين قد عنوا بتربية أبنائهم على مغازى رسول الله ، فكانوا يعلمونهم إياها كما يعلمونهم السور من القرآن ، فما بالهم بالأحاديث النبوية يحفظونها عن ظهر قلب ، ويعتبر أحدهم نفسه كذابا إذا لحن أو حرف أو غير أو بدل في المتن ، خوفا من قول رسول الله : « من كذب على عامدا فليتبوأ مقعده من النار » ، ومع ذلك أجاز بعضهم نقل الحديث بمعناه ، بشرط أن يكون الناقل من أهل المعرفة بتبديل لفظ مكان لفظ ، لأن المترادفات أحيانا للكلمة الواحدة في اللغة العربية كثيرة .

---

(١) ألف باء: البلوى

أما (الإسناد) فعليه مدار الأخذ بالحديث وتمييز الصحيح من الباطل ، والمرفوع من الموضوع ، والمقبول من الحسن ، حتى يكون استنباط الأحكام الشرعية فى العبادات والمعاملات على أسس سليمة، وتلك هى مهمة (الفقه)والفقهاء، وهم يلون المحدثين فى الدرجة .

لهذا لم يكن المحدثون يطلقون كلمة (الحديث) إلا بعد التأكد من صحته ، ووثوق أسانيده ، وعلى سبيل الحيطة كانوا يطلقون عليه أولا لفظة (الخبر) ، لأن الخبر ـ لغة ـ هو ما يحتمل الصدق والكذب ، فإذا ثبت صدقه فهو حديث .

والإسناد هو عملية نسبة الحديث إلى رواته بالتسلسل علوا إلى مصدره الأول وهو رسول الله ، بالوقوف على قصة الراوى منهم : صحابى هو أم تابع ، نزيه أم متهم ، ثبت أنه نقل عمن سبقه أم لم يثبت ، مغموز فى نسبه أم غير مغموز ، مشهود معروف هو بالعلم أم هو من المجاهيل ، وهكذا . . ، وفيما يلى أقوال حكيمة عن أهمية الإسناد .

قال أبو هريرة صاحب رسول الله : « إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذونه»، ومن المعروف أن السيدة عائشة عليها رضوان الله قد دبت الغيرة فى نفسها من أبى هريرة فقالت له يوما : «ياأبا هريرة ، ماهذه الأحاديث التى نراك ترويها عن رسول الله ، هل رأيت إلا ما رأينا ، وهل سمعت إلا ما سمعنا ؟ فقال : ياأم ، أما أنت فكان يشغلك عن رسول الله المكحلة والمرآة ، وأما أنا فما كان يشغلنى عنه شىء » وهذا هو التجرد بعينه .

وقال عبد الله بن المبارك : « الإسناد من الدين ، ولولا الإسناد لقال من شاء ماشاء » . .

وقال سفيان الثورى : « الإسناد سلاح المؤمن، فإذا لم يكن معه سلاح فبأى

شيء يقاتل » .

وقال شعبة : « كل علم ليس فيه (حدثنا) أو (أخبرنا) فهو خل وبقل » .

وقال يزيد بن زريع : « لكل دين فرسان، وفرسان هذا الدين أصحاب الأسانيد».

لهذا ، كان للأئمة الأعلام مسانيد يعتمد عليها ، ويوثق بها ، منها : « مسند ابن حنبل » و « صحيح البخارى » و « صحيح مسلم » ، وعلى ذلك فالكتاب (مسند) - بضم الميم وفتح النون - والمحدث (مسند) - بضم الميم وكسر النون - وعمله هو (الإسناد) ، والحديث كما قلنا شطران : (سند) و (ومتن).

وللإسناد مراتب متفاوتة ، أعلاها : سماع الراوى قراءة المحدث للكتاب الذى رواه ، أو إيراده للحديث من حفظه ، على أن يكون سماعه ممن نبغ فى علم الحديث دراية ورواية ، عملا بقول رسول الله : « نضر الله عبدا سمع مقالتى فحفظها ووعاها فأداها كما سمعها ، فرب حامل فقه ليس بفقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » ، والمرتبة الثانية : عرض الراوى للكتاب أو الحديث ، ثم سماع ذلك منه ، ثم مناولة[1] الشيخ الكتاب الذى رواه عن شيخه ، وأخيرا الإجازة ، وهى أن يجيز الشيخ للطالب أن يحدث عنه بالكتاب الذى رواه .

وتتلخص وظائف المسندين فى اثنتين هما :

١ - الحمل والرواية : وذلك بأن يعرف المسند معرفة تامة طرق الرواية ومراتبها ، بتقديم حسن النية ، واستفادة راوى الحديث بروايته، زيادة فى التفقه

---

(١) المقصود بالمناولة أن يبعث الشيخ بكتاب الى تلميذه البعيد مع شخص يأمره بأن يسلمه له وحده ، كما كان النبى «يناول» أحد الصحابة كتابا فى سراياه ويأمره بألا يفضه إلا عندما يصل الى مكان كذا .

والعمل بما يستفيده ، وإبلاغه إلى من يستحقه ، مع العناية بتعلم علوم اللغة ، حتى لا يلحن فى الحديث ، أو يصحف كلامه ، واختيار الثقات المشهورين بالرواية والحفظ ، وإتقان ما جمعه من الحديث وغيره ، بحيث يكون معروفا باتباعه السنة ، وابتعاده عن البدعة ، وأخيرا احترام الشيخ لكى يستخرج منه الفوائد العلمية فلا يضن بها عليه.

٢ ــ التأدية والتبليغ : وذلك بأن يتحرى المسند الصدق ويبتعد عن التدليس فى الرواية ، وأن يتحلى بالتقوى ، ويلتزم الضبط والدقة ، حتى لا يتساهل مع الطلاب ، فينفروا من أخذ الحديث عنه ، وفى هذا تعطيل للحمل والرواية ، كما ينبغى حث طلاب الحديث على العلم والترغيب فيه ، بخفض الجانب لهم ، وتزويدهم ـ عن رضى وسماحة ـ بفوائده ، بحيث يكون المعلم أرغب فى إفادة الطالب منه فى استفادة هذا منه .

كما ينبغى على المسند أن ينقل الحديث بلفظه ، كما سمعه به ، من غير زيادة ولا نقصان ، ولا تبديل لفظ بآخر ، ولراوى الحديث بعد ذلك كله أن يقول : (حدثنا) و (أخبرنا) و (أنبأنا) ، أما الإمام الشافعى ـ وقد سار السلفى على نهجه ـ فيقول : « إذا عرضت على المحدث فقل (أخبرنا) ولا تجوز (حدثنا) إلا فيما سمع من لفظ الحديث » .

ومن أشهر المسانيد فى منهج السلفى « مسند الموطأ » لأبى القاسم عبد الرحمن الغافقى الجوهرى المالكى المصرى ، حدث به ابن سيدى يعلى ابن خير الإشبيلى قراءة عن السلفى ، وأجاز به السلفى ابن خير فيما كتب به إليه . وكذلك « الأحاديث السداسيات » التى خرجها السلفى من سماعات ابن الخطاب الرازى محدث الإسكندرية الذى تصدر السلفى بعده للحديث بها ، وحدث بها ابن خير أيضا ، وكذلك

« الأربعين حديثا » للقاضى أبى نصر بن ودغان حاكم الموصل ، قدم بها على السلفى ببغداد ، وأجاز ابن خير بها ، ثم « أمثال الحديث المروية » و « المحدث الفاصل بين الراوى والواعى » وهما للراقهرمزى حدث ، بهما السلفى عن الطيورى ، وأبى على القالى صاحب « الأمالى » ، وحدث كذلك به « الشهاب » فى الآداب والأمثال والمواعظ والحكم المروية عن رسول الله ، قراءة السلفى عن القاضى ابن سلامة القضاعى ، وفى همدان قرأ السلفى كتاب « السنن » على صاحبه الحسن بن على الخلال الحلوانى فى ستة أجزاء .

وكان السلفى يعنى بصحيح البخارى كل العناية ، وكان يجلس بين يديه المحدثون يقرأونه عليه ، وهو يسمع فيصحح ويعلق ويشرح : فهذا أبو محمد عبد الله بن محمد ابن خلف بن سعادة الدانى الأصبحى - كما يقول التجيبى - « كان معنا بالعادلية بالإسكندرية ، وبقراءته سمعنا صحيح البخارى على السلفى سنة ٥٦٣ » .

هذا وكانت « الأربعين البلدانية » للسلفى متداولة فى شتى مدارس الأمصار ، يرويها الرواة الثقات بعضهم عن بعض ، مفاخرين بها ، واثقين من تخريج السلفى لها ، وسماع أصحابه عنه ، نلمس ذلك مما يقوله خالد البلوى (١) فى رحلته لمصر والإسكندرية وقراءته لهذه الأحاديث بمدارسها كالمدرسة العلبية سنة ٧٣٨ ومدرسة القمنى والمدرسة الصلاحية ومدرسة ابن حباسه ، على أيدى علماء الإسكندرية والفسطاط ودمنهور وعسقلان ، كما سمعها أيضا من سبط السلفى وغيره .

ولقد طال عمر السلفى ، فطلب الحديث من المهد إلى اللحد ، ويقول عن نفسه : « وقد كتبوا عنى فى أول سنة ٤٩٢ وأنا ابن سبعة عشر عاما أو أكثر أو أقل ، وليس فى وجهى شعرة كالبخارى (٢) » ، وقضى من عمره أكثر من ثمانين سنة فى

(١) تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق .
(٢) رواية الحافظ عبد الغني عنه : طبقات الشافعية للسبكي

خدمة الحديث ، فكان أعجوبة الزمان، لم يترك شاذة ولا فاذة إلا قيدها وأفاد منها وتجاوزت شهرته فى « علو الإسناد » حدود الزمان والمكان فقالوا إنه « مسند الدهر » ، ولم يحصروه فى مصر بذاته أو عصر بذاته . ولم يقولوا : «مسند مصر» ولا « مسند العصر » فقط ، وأصبح أصحابه من بعده أعلاما حيثما نزلوا وحلوا وارتحلوا ، أما من لم يسعفه الحظ بالأخذ عليه والحمل عنه ، والعرض عليه، فحسبه (إجازة) من السلفى يحملها إليه (الإجازاتى) المتفرغ لهذا العمل ، أو (مناولة) يبعث بها إليه فى كتاب منسوخ .

وكفى السلفى بعدا فى الصيت أن (يدعى) أحدهم الحصول على إجازة منه أو السماع عليه ، لتكون له المكانة العلية عند قومه ، وقد كشف لنا ابن الأبار وابن عبد الملك بعض الأندلسيين الذين ادعوا الأخذ عن السلفى وهم كاذبون ، ومع ذلك كان المتأخرون يفاخرون بأنهم سمعوا من «أصحاب السلفى»وما أكثرهم وما أجل قدرهم من بعده ، فما بال الأولين الذين أخذوا عنه مباشرة ؟ أما خديجة بنت أبى طاهر السلفى فقد سمعت من أبيها ، وحدثت وأجازت للمنذرى ، وبعد وفاة أبيها ذهبت إلى القاهرة ؛ فبالغ أهلها وعلماؤها فى إكرامها ، وكانوا يتوقعون أن تجلس للحديث ولكنها امتنعت . لماذا ؟ لا ندرى لذلك سببا ، اللهم إلا إذا تذكرنا قول المتنبى فى رثاء أبى فراس :

لا قلبت أيدى الفوارس بعده ∴ سيفا ، ولا حملت جوادا أربع

وكانت وفاتها سنة ٦٢٣ ، أى أنها لحقت بأبيها بعد نصف قرن تقريبا .

وفيما يلى نموذج للإسناد ، كما حمله الذين عرفوا فضل السلفى ، وساروا على منواله ، ومنهم ابن دقيق العيد صاحب مدرسة قوص فى الحديث والتى أنشأها سنة ٦٠٧ وتوفى بها سنة ٦٦٧ ، وقد حدث عن كثيرين ، وعلى رأسهم مؤرخ الإسكندرية ومحدثها وعالمها ومحتسبها وجيه الدين منصور بن سليم ، وقد عرفنا

من قبل قرابته للسلفي - يقول ابن دقيق العيد مثلا في ذكر الأحاديث النبوية : «حدثنا المقدسي ... قال : حدثنا الحافظ مفتي المسلمين أبو الطاهر أحمد السلفي قال : أنبأنا الشيخ أبو محمد جعفر بن الحسين بن السراج اللغوي ببغداد ... إلى أن يصل إلى رسول الله وقوله : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء » .

وهذا ابن الأبار الأندلسي الذي سمع من نحو عشرين من شيوخه بالأندلس والمشرقيين عن السلفي بجميع رواياته وتواليفه ، وقرأ « الأربعين السلفية » في الحديث على من سمعها منه وهو أبو محمد الزهري الأندى ، وأذن له في الإخبار عنه أبو علي الصدفي ، وهو الذي عمل له ابن الأبار « معجم أصحابه » ومنهم السلفي ، وتلك من غير شك صور من الدقة في تحري الصدق عند رواية الحديث بالإسناد الصحيح الذي علا فيه كعب السلفي ورجال المدرسة السلفية .

ونرى في « معجم السفر » و « المشيخة البغدادية » أن السلفي يستعمل « أنشدنا » إذا تلا عليه أحدهم شعرا ، و « أخبرنا » أو « حدثنا » الحديث ، و « قال » للفوائد الأدبية ، و « كتب إلى » من مكان بعيد و « سمعت » مباشرة ، وكثيرا ما يخبر عن شخص حدثه ببغداد عن آخر حدثه بدمشق عن ثالث بمكة عن رابع بالموصل حتى يصل إلى صحابي جليل سمع من رسول الله ، وقد يروى عن رجل لا لعلو إسناده ولكن لغرابة اسمه ، ويمضي السلفي بمنهجه هذا ويطبقه في كل ميادين المعرفة عنده كما سنرى .

وهكذا صقل الإسناد عقلية السلفي ، فبرز فيه ، وأفاد الثقافة الإسلامية بذخائر الحديث وعلم الرجال وعلوم اللغة والتاريخ والجغرافيا ، بما عرف عنه من التحقيق والتدقيق .

ولم يكن خافيا على فطنة السلفى ما للإسكندرية من تاريخ مجيد في علم الحديث، منذ فتحها عمرو بن العاص سنة ٢٠ هـ ومعه ابنه عبد الله صاحب « الصادقة » ، والصحابة الأجلاء الذين أقاموا بها هم وذرياتهم ومن جاء بعدهم من التابعين وتابعى التابعين ، وإذا ما اقترن اسم أبى هريرة الصحابى الجليل برواياته الصحيحة عن رسول الله ، فقد اقترن فى الأذهان أيضا الأعرج عبد الرحمن بن هرمز بصاحبه أبى هريرة ، أقام ابن هرمز بالإسكندرية حتى توفى بها سنة ١١٧ ، وكان أحد الحفاظ والقراء ، ووضع أصول العربية بالمدينة ، وأخذ عن أبى الأسود الدؤلى وله خبرته بأنساب قريش مع الأمانة والتحرى ، بل كان أول من برز فى القرآن والسنة ، كما يقول الذهبى (١) ، وشهد له البخارى فقال : «أصح أسانيد أبى هريرة» وقد أخذ الأعرج القراءة عن أبى هريرة وابن عباس .

وعلى الرغم من الحشد الكبير الذى ازدانت به الإسكندرية بعد الأعرج من فقهاء ومحدثين وأئمة ، على امتداد خمسة قرون ، فإن السيوطى فى «طبقات المحدثين ونقاد الحديث بالإسكندرية » الذى عقده فصلا ضافيا فى « حسن المحاضرة » قد وضع السلفى بعد الأعرج مباشرة ، وكأنه لا يعير التفاتا لأى أحد سواه من قبله، وهذه شهادة لها وزنها من مؤرخ عالم منصف كالسيوطى فى القرن العاشر الهجرى.

كان السلفى على علم تام بمشاهير المحدثين بالإسكندرية بالذات ، وليس ببعيد أنه عرف أبعاد ثقافة الأعرج من لغة ونحو وحديث وأنساب ، فتاقت نفسه إلى طلب العلم فى بلد نزله هذا الصحابى الجليل ، كما نزله الليث بن سعد فى القرن الثانى ،وهو أصلا من أصبهان كما نعلم ، وليس أدل على معرفة السلفى بهذا، من عزمه على الرحيل إلى الإسكندرية فى طلب الحديث على يد عالمها أبى عبد الله

---

(١) طبقات القراء .

الرازى ابن الخطاب ، مسند الديار المصرية ، وأحد عدول الإسكندرية ، وقد أدركه السلفى بها وأخذ عنه حتى كانت وفاته بها سنة ٥٢٥ عن إحدى وتسعين سنة ، فخلفه السلفى بها فى علم الحديث .

وإذن كانت الإسكندرية منذ الفتح الإسلامى مركزا هاما من مراكز الحديث، ثم أخذت مكانتها تقوى وتضعف ، حتى نزل بها ابن نادر الميورقى ـ وهو أندلسى ـ فأحيى بها علم الحديث ، ثم دخلها السلفى ـ وهو أصبهانى ـ فكان قدومه إليها ونزوله بها نقطة تحول كبرى فى تطور علم الحديث بها ، بل وفى تاريخ الثقافة بها على وجه عام ، وكما قال السخاوى « صار مرحولا إليها » من أجل السلفى بالذات ، وظل نجمها يتألق من بعده وعلى أيدى أصحابه وخلفائه قرونا طويلة ، وهم جميعا رجال « المدرسة السلفية » .

وفى عصر السلفى ، كان يوجد بالإسكندرية عائلات اشتهرت بعلم الحديث رجالا ونساء ، فقد أخذ السلفى بها عن المحدثة خديجة أو مليحه بنت أحمد بن إبراهيم الرازى ، وكان أبوها وأخوها وأختها جميعا محدثين ، وقد وهبت حياتها كلها للحديث، وعاشت وماتت بكراً سنة ٥٢٦ ،وصلى عليها السلفى بوصاتها ، كما سمع من أم أحمد زليخا بنت إلياس الغزنوية الواعظة بساوة عن راو بمكة عن آخر بغزنة عن آخر بنيسابور عن صهيب عن رسول الله قال : «من تزوج امرأة ثم مات ، وهو لا ينوى أن يعطيها مهرها مات وهو زان ، ومن استقرض قرضا ثم مات وهو لا ينوى أن يقرضه مات وهو سارق» .

وقدم أحدهم للسلفى كتابا فى «فضائل عسقلان» به أحاديث ، فلما فحصه ورده لصاحبه قال «ما فيه حديث يصح غير صحيحين» . وبهذا دل على علو كعبه فى معرفة الحديث ، لا يعرف المزايدات فى الجهر بالحق ، ولا سيا فى أحاديث رسول الله ،

فكان مثلا يحتذى لورثة الأنبياء .

وبمناسبة كتاب « فضائل عسقلان » نذكر كتابا عن « فضائل الإسكندرية » والسلفى فيه دور هام ، ذلك أن هناك مخطوطة مصورة بمكتبة كلية الآداب جامعة الإسكندرية برقم ٧٧٩ م (حديث) ومنسوخة سنة ٦٣٥ هـ عن أصل من مكتبة دمشق ، تحمل اسم « الجزء من فضائل الإسكندرية » جمعه أبو على الحسن بن عمر ابن إسحق الفقيه الشهير بابن الصباغ ، ويشتمل على أحاديث عن فضل المرابطة بثغر الإسكندرية ، وتبدأ هكذا : « بسم الله الرحمن الرحيم ، وما توفيقى إلا بالله أخبرنا الشيخ الإمام عز الدين أبو القاسم عبد الله بن الحسن بن عبد الله بن رواحة الأنصارى الحموى قراءة عليه وأنا أسمع فى ٥ شوال سنه ٦٣٥ بحلب المحروسة قال لنا الشيخ الإمام الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن إبراهيم السلفى فى شهور سنة ٥٧٣ بثغر الإسكندرية حرسه الله تعالى قال لنا الشريف أبو إسماعيل إبراهيم بن الحسن بن محمد بن الحسين الموسوى نقيب النقباء بمصر قال لنا أبو الفتح عبد الله ابن الحسن بن على بن أبى مطر المعافرى بثغر الإسكندرية قال لنا أبو على الحسن ابن عمر بن الحسن بن أبى إسحق الفقيه ويعرف بابن الصباغ حدثنا محمد بن أحمد ابن محمد بن خروف بن الوليد بن كامل المدنى بالفسطاط حدثنا العباس بن مسافر التجيبى حدثنا أبو صالح كاتب الليث حدثنا خالد بن حميد بن سعيد بن أبى عروبة عن جابر عن سعيد بن جبير عن أبى هريرة أنه سأله فقال : من أين جئت ؟ وقد كان لقيه بالشام فقال : من الإسكندرية ، قال إنى سمعت رسول الله (ص) يقول : إن المقيم بها ثلاثة أيام من غير رياء كمن عبد الله سبعين سنة ما بين الروم والعرب . . »

وتستمر الأحاديث بأسانيدها عن الإسكندرية برواية السلفى . أما ابن الصباغ

فالأرجح عندى أنه توفى بعد سنة ٤٦٠ ه .

ولما أراد ابن الزيات وضع كتابه « الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة» أى زيارة مقابر الراحلين إلى رحمة الله ، ممن دفنوا فى قرافة مصر ، لم ينس الرجوع إلى الموثوق بهم فى «علم الرجال» ومنهم السلفى ، لتصحيح ما وقع فيه غيره من أخطاء فى سير الصحابة والتابعين وتابعى التابعين والشهداء والمحدثين والقضاة والقراء ومشايخ الرسالة والمتصدرين والوعاظ والخطباء وأهل التصوف ، فاستفاد ابن الزيات حقا من أعمال السلفى وأفاد غيره .

وسار على طريقة السلفى كثيرون ، عند ذكر أسانيد تراجمهم ، كما فعل أبو الحجاج يوسف البلوى فى مجلديه الضخمين « ألف باء » و« التكميل » وابن الأبار فى « التكملة لكتاب الصلة » والمنذرى فى « التكملة لوفيات النقلة » وهو الذى سمع من خديجة بنت السلفى وتأثر بطريقة أبيها فى الإسناد .

وقد سئل ابن حجر العسقلانى — وهو بحلب — عن إسناد للبطرنى منسوب إلى السلفى فبين للسائل فساده واختلاقه ، وفى ترجمة ابن حجر لابن القماح قال : « سمع من شيخنا تاج الدين بن موسى خاتمة من كان عنده حديث السلفى بالعلو بالسماع المتصل بالقاهرة من شيخنا حافظ العصر زين الدين العراقى . . . » (١)

وبذلك يمكن اعتبار معاجمهم الشاملة امتدادا للدقة التى اتسم بها علم الحديث ، فى تحرى الأسانيد ، على طريقة المدرسة السلفية ، ووجه الشبه بينهما هو . . « علم الرجال » .

---

(١) إنباء الغمر : ابن حجر .

السلفى ... وعلم الرجال

من الطبيعى أن يكون السلفى « مسند الدنيا » - وذلك شأنه فى « علم الحديث » - من أبرز النابغين فى « علم الرجال » ذلك العلم الذى كان فى الأصل والهدف يتناول أهل الحديث بالتمييز ، ضمانا لصحة الحديث ، فإذا بالسلفى لا يقتصر - فى البحث عن الرجال - على رواة الحديث ، بل يجعل البحث شاملا لرجال المعرفة إطلاقا ، أيا كانت ميولهم وجهودهم ، حتى اتسع النطاق ، فشمل الأميين وذوى الحرف لأنه سمع منهم نوادر وحكايات ، فسجلها فى مذكراته ، وضم إليهم أيضا جيرانه وجاراته من شباب وشيب ، محدثين ومعابين ومفسرين وشعراء وأدباء ومتصوفة وزهاد ونحاة وقضاة ، ووعاظ وفقهاء وخطباء ، ومناطقة وفلاسفة ومهندسين وفلكيين ، من أشاعرة ومعتزلة ، وسنيين وشيعة ، وجغرافيين ومؤرخين ، والأمراء وأرباب الحكم وأمناء المكتبات ومشرفى البيمارستانات ، وحملة الإجازات فأخذ من رجال ، وأخذ عنه رجال لا يحصون عددا « فألحق الكبار والصغار » كما يقول سبط ابن الجوزى(١) .

هذا مع أنه - كما رأينا - قد توقف عن مواصلة مسيرته الثقافية عند الأسكندرية ، فلم يمض إلى بلاد المغرب والأندلس ليستكمل الحمل عن الثقات ، ثم يعود إلى أصبهان ، كما عقد النية على ذلك من قبل ، فماذا كان يكون لو أنه جاوز الأسكندرية فى رحلته ! ؟

ولقد أسهم السلفى حتما فى إبراز معالم « علم الرجال » هذا ، فقد عنى كل العناية بالتعريف الدقيق بأصحاب الثقافات وأنسابهم وتواريخ مواليدهم ، ووفياتهم ورحلاتهم وانتقالاتهم ، وميولهم الفكرية ومذاهبهم الفقهية حتى عن يخالفون

---

(١) مرآة الزمان .

مذهبه ، والبلدان التى ينتمون إليها وفضائلهم وعيوبهم - إن كانت فيهم عيوب - فى نقد برىء نزيه، ولم ينس العلماء الذين أخــذوا عنهم والأشعار التى نظموها وحفظوها لغيرهم ، والنوادر والحكايات التى حفظوها وتندروا بها فى المجـالس الأدبية ، والحلقات الدينية ، والمواعيد والأماكن بل المقابر، التى دفنوا بها على وجه التحديد ، وكان السلفى يقوم بتدريس أمهات الـكتب فى الأنساب مثــل « الاصطلاح » السمعانى ، وسمعه منه كثيرون ، نذكر منهم أبا الطاهر إسماعيل بن الإسكندرانى ، وقدم به الأندلس وروى عن السلفى فى ربوعها ومجالسها .

وسواء كان الباعث على هذا العمل المضنى هو مجرد التسجيل للذكرى والتاريخ أو الوفاء أو الأمانة فى رد كل فضل إلى صاحبه أو إظهار البراعــة فى معرفة أكبر عــدد ممكن من الرجال ذوى الثقافات المتنوعة ، فإن السلفى كان صاحب القدح المعلى فى هذا الميدان . صحيح أنه منذ نشأ فى أصبهان قد فتح عينيه على هــذا اللون من المعرفة الذى اشتهرت به أصبهان وعلمــاؤها الذين أدركهم السلفى أو سبقوا إلى عالم الخلود ، وهو لا يزال غض الإهاب: كأصحاب الأنساب والبلدانيات ومنهم الحافظ أبو بكر العطار الأصبهانى الذى عظم شأنه فى أصبهان ومات بهـا سنة ٤٦٦ « وكان عارفا بالرجال والمتون وإماما ثقة »[1]، ومن المتــأخرين منهم الذين أدركوا السلفى وعصره: الحافظ عبد الغنى المقدسى المتوفى سنة ٦٠٠ صاحب « الكمال فى أسماء الرجال » وقد جاء ميله إلى علم الرجال بطبيعة الحــال من اهتمامه بعلم الحــديث إذ الإسناد هو الجامع بينها ، وقدم هذا العالم الجليل دمشق ومصر والإسكندرية وعاد إلى دمشق، ثم رحل إلى الجزيرة وبغداد وأصبهان، وقد تأثر بهم السلفى فى هذا الاتجاه ، وهو أشد ما يكون فى شبابه حبا لاستطلاع أحـوال البلاد والعباد، جوالا فى الآفاق « سآلا عن أحوال الرجال» كما يقول عنه ابن نقطة

(١) النجوم الزاهرة : ابن تغرى بردى .

ونما فيه هذا الميل بعد ذلك في بغداد ودمشق ومكة والمدينة ، حتى استقر في الإسكندرية ، حيث وافته همته وأسعفته صحته ، واستقر في معيشته وطال عمره ، ومارس نشاطه وهو مطمئن البال ، فكتب فيما بعد عن الذين أخذ عنهم في أصبهان ثم في بغداد وفارس والحجاز والشام ومصر والإسكندرية ، مع تحديد الأماكن التي لقي كل واحد منهم بها ، بدقة وضبط وإتقان وحفظ جيد ، وكأننا معه أمام خريطة تفصيلية لأحياء بغداد مثلا وعطفاتها ودروبها ومعالمها ، ذاكرا تواريخ اللقاءات بالساعة واليوم والشهر والسنة ، وضمن ذلك « مشيخة أصبهان » و « المشيخة البغدادية » ثم « معجم السفر » وفي هذا الأخير سجل كل لقاء له مع الوافدين عليه بمنزله أو مسجده أو مدرسته بالإسكندرية ، ومن لقيهم في مصر خلال السنوات الثلاث التي قضاها بها .

وإذا بنا نتعرف — لأول مرة — بأسلوب دقيق وعميق — على رجال ينتمون إلى المدن والقرى المصرية ، ظلمهم التاريخ ، وأنصفهم السلفي ، وأهملهم غيره ، وزودنا هو عنهم بمختصرات بليغة سرية من أهل الإسكندرية ورشيد وفوة ودمنهور والمحلة وإسنا وسوهاج ، فضلا عن كل حاج وحاجة ، وطالب علم وافد عليه من أقصى الأندلس إلى أقصى الهند ، لسفر أو إقامة ، فيكرم وفادتهم ويبش في وجوههم ، وينزلهم من بيته خير منزل ، ويسأل الواحد منهم عن مولده وبلده ، ويسمع محفوظاته من شعر ونثر وحديث وحكايات ونوادر وطرائف . ويسأل عن أحوال بلادهم وعلمائهم ومؤلفاتهم ، فإذا خلا السلفي بعد ذلك إلى نفسه والورق والقلم والدواة ، راح يكتب ماسمع بكل دقة وأمانة ، لا حاقدا ولا ساخطا على أحد ، وحسبنا أن نشير إلى أنه كان كثيرا مايذكر في « معجم السفر » من كان يأنس بهم ، ويتلطف معهم من شيوخ معمرين كالقباري ، ومحدثات وشاعرات من كل الأعمار والأجيال والبلدان ، يطمعون في السماع منه ، وهو أكثر طمعا في السماع منهم .

ومن سيرة السلفى ، نرى أنه عكف على هذا العمل عكوفا تاما ، وتجرد له أيما تجرد ، حتى إنه لم يكن يعنى بالفرجة أو النزهة طوال ٦٥ سنة ، منصرفا عما حوله من شاطىء ساحر ، وسماء صافية ، وجداول رقراقة ، ورياض يانعة، فإن ماكان فيه السلفى من الأنس بالناس ، جعل منه زاهدا عن الدنيا بما فيها ومن فيها إلا إحصاء المعلومات عن كل وافد إلى الإسكندرية من كل مكان ، فإذا به يطلب من أحد شعراء صقلية أن ينشده شعره ، ويستزيده من أشعار الصقليين ، فينفرد بذلك السلفى ، ويسبق غيره أمثال ياقوت فى « معجم البلدان » و « معجم الأدباء » ، والعماد الكاتب فى « خريدة القصر » وابن عبد الملك فى « الصلة » وابن الأبار فى « التكملة » و « والمعجم » وابن خلكان فى « وفيات الأعيان » . وابن خير الإشبيلى فى « الفهرست » والمنذرى فى « تكملة وفيات النقلة » والدمياطى فى « معجم شيوخه » والسخاوى فى « الضوء اللامع » والسيوطى فى « حسن المحاضرة » و « بغية الوعاة » و « تاريخ الخلفاء » ومنصور بن سليم فى « تاريخ الإسكندرية » والإدفوى فى « الطالع السعيد » وابن عزم فى « دستور الإعلام » وابن حجر فى « إنباء الغمر بأبناء العمر » والذهبى فى « العبر » و « التذكرة » وذيوله وابن الجزرى فى « طبقات القراء » وابن عساكر فى « التاريخ الكبير » وابن العماد فى « الشذرات » وابن الأثير فى « البداية والنهاية » وابن شهبة فى « طبقات النحاة » و « اللغويين » وعمر كحالة فى « معجم المؤلفين » والداودى فى « طبقات المفسرين » ورمضان حلاوة فى تعقيباته على « دستور » ابن عزم ومن بعده صالح الجارم عليه أيضا ، والأزهرى فى « اليواقيت الثمينة » والزركلى وغيرهم من أعيان الزمان فى « علم الرجال » .

وكان التجيبى الأندلسى من أوفى الآخذين عن السلفى له ، فوضع « مشيخة السلفى » وذكر شيوخه متدما لهم بسيرة مفصلة للسلفى نفسه ، وظل اسم السلفى لامعا على مر العصور فى كتب التاريخ والمعاجم والتراجم والبرامج والفهارس

والمشيخات والطبقات المتخصصة وغير المتخصصة ، وقلما تخلو إحداها من ذكر السلفى ، كلما ورد اسم بلد أو عالم فى نحو أو فقه أو أدب أو قضاء أو إقراء أو حديث أو تفسير أو تصوف ، وقد ترسم الجميع خطى السلفى ، فيما تركوه لنا من مؤلفات ومصنفات فى « علم الرجال » ، واتخذوه رائداً لهم ، ومرجعاً موثوقاً به يستشيرونه ، كلما اختلف الرواة وتضاربت الروايات ، فقوله هو الفصل ، ولا سبيل إلى مراجعته ، للثقة الغالية التى عرف بها واعترف له بها كل منصف كائناً من كان .

وما أكثر « الرجال » الذين أخذ عنهم السلفى وما أكثر « الرجال » الذين برعوا من بعده ، وساروا على منواله فى « علم الرجال » ، وصدق ابن عساكر حين يقول « سمع السلفى ممن لا يحصى ، وسمع منه عدد لا يحصى » .

السلفى ... ونقد الرجال

السلفى إذن كان من أبرز الرجال فى « علم الرجال » ، تحدث عنهم حديثاً دقيقاً عميقاً مضبوطاً متقناً ، غير أن الظاهرة التى يتسم بها السلفى فى عرض رجاله هى أنهم « رجال ونساء التقى بهم فعلا فى أيام حياته » لا غير ، هم إذن « رجال السلفى » وحده ، أى أنهم شيوخه وضيوفه وتلاميذه ، فهو لم يعرض لنا أحداً من الصحابة أو التابعين أو تابعى التابعين أو الأئمة أو العلماء الذين لم يدركهم ، وإن كان قد ألم بسيرهم أيما إلمام ، عن وعى تام ودقة متناهية ، غير ناقل فى ذلك عمن سبقه من علماء الرجال .

ومما يذكر أن (رجال السلفى) هؤلاء الذين سجل عنهم فى معاجمه إنما هم (أحياء) سمع منهم بأذنيه ورآهم بعينيه ، أو كتب لهم إجازة أو مناولة بخط يده وسيرهم عند السلفى تنبض بالحيوية والنشاط ، فلا يمدحهم ولا يذمهم ، ولكن – بملء حريته الفكرية – يعلق عليهم بطرائف هى فى ذاتها صميم النقد

النزيه ، الذى ينأى بصاحبه عن المهاترات والشبهات والأهواء ، ويضعه موضع الأستاذ ، ينقد من يشاء كيف يشاء ، للحق والحق وحده .

وشاءت طبيعة عمل السلفى أن تفرض عليه أسلوب الحصر والإحصاء ، بلا تبويب أو تصنيف ، فهو لم يضع رجاله فى « طبقات » كمحدثين وشعراء وفقهاء ، ولكل طائفة منهم سابقون ولاحقون ، ولكن الرجل كتب ما كتب كمذكرات شخصية عن كل من التقى بهم شخصياً ، وما تركوه فى نفسه ، بعد كل لقاء من انطباعات ، متوخياً الدقة ، حتى الحوار الذى كان يدور بينه وبينهم ، مع ذكر الزمان والمكان ، وكل مالديه من معلومات أخرى تفيد فى رسم صورة كل شخصية .

وفيما يلى نعرض قطعاً مختارة من تراجم السلفى ، كنماذج حية لما انفرد به فى « نقد الرجال » ، مما حدا بالمؤرخ العملاق الحافظ الذهبى إلى الإشادة به فى « ميزان الاعتدال فى نقد الرجال » تلك النماذج هى فى حقيقتها نبض الحياة اليومية الجارية بين يدى السلفى على الصعيد الثقافى ، خلع عليها من نفسيته العالية ، وعقليته المجربة ، وروحه الاجتماعية ، ومعرفته بطباع البشر ، ولو أنه أعطانا صورة لإحدى شخصياته فى الإطار المعروف عن ابن الأثير الجزرى مثلا فى « أسد الغابة فى معرفة الصحابة » بذكر الكنية والاسم وسلسلة النسب والمذهب والبلد والمولد والوفاة والميل العلمى والمؤلفات والمصنفات والشيوخ والتلاميذ والرحلات ، لما طمعنا منه فى أكثر من ذلك ، إلا أنه جاء بالجديد الطريف ، الذى لم يسبقه إليه أحد من أضرابه ، فكان نعم العمدة الثقة ، والرائد الصادق السباق إلى هذا المجال ، هذا الجديد الطريف هو ما نعنى به « نقد الرجال » ، مما يعكس لنا أولا تمكنه من المعايير والموازين العلمية والأخلاقية والنفسية التى يقاس بها المترجم له ، وثانياً أسلوب التحليل الممتاز عند عرض الشخصيات ،

وثالثاً السبق فى الزمان والتجديد فى العرض وسلامة الدوافع والأهداف ورابعاً وأخيراً رزانة الشيخ الناضج والقاضى العادل فى الأحكام على الناس ، بلا نقض ولا إبرام .

قال السلفى مثلا وهو يتحدث عن أبى عبد الله محمد بن الحسن بن زرارة الطائى : وهو كما يقول - من أهل الأدب والتصرف فى علوم العرب ، وكان شعره قوياً ، وكان على سرعة الإجابة جريئاً ، وربما غلط ، وهو نحوى لغوى ، وكان على الإطلاق مرضى الأخلاق ، ووجدت به أنساً مدة حياته إلى حين وفاته ... ، هذا النقد النزيه يبدو من خلال بقية الترجمة ، بأن قال السلفى إنه صلى عليه وحضر جنازته خلق عظيم ، وكان يشرف على بيمارستان ثغر الإسكندرية ويتولى الكتب الموقوفة فى الجامع ، وله فيه حلقة لإقراء الأدب.

ولو تركنا المترجم لهم ، واخترنا بعض نماذج من نقدهم بلسان السلفى ، لاتضحت لنا الصورة التى نريدها ، وهاك الأمثلة التى نقتطفها اقتطافاً من شخصيات عديدة .

فلان ... ، وكان عامياً ويحفظ الكثير من النوادر المضحكة والأشعار المطربة وعلقت عنه من ذلك كثيراً ، ... وفلان ... ، كان يخيط ويأكل من كد يده ، وكان صالحاً ويحفظ حكايات الصالحين ، ... و ، ظافر هذا من أهل رشيد - مدينة من مضافات الإسكندرية ، وكان قد تأدب وشهد بها ، ويسلك طريقة حميدة ، واستنشدته ، فأنشدنى مقطعات وكتبها لى بخطه وتوفى قبل أن شاخ ، وكان مالكى المذهب رحمه الله ... ، ... ، وكان يلازمنى إلى أن مات ، .. ، وشعره كثير وسهل ، .. ، وكان يؤدب الصبيان ، .. و ، من أقرانى فى السن ، وبيننا اتحاد ، وقد اجتمعنا ببغداد ، وحججنا معاً ، وسمع بقراءتى بمكة والكوفة وبغداد وثغر جنزة ومدن من قطر أذربيجان . وهو حفيد أبى سعيد بن أبى

الخـــير شيخ خراسان فى عصره فى التصوف » .. « وسمعت بالإسكندرية أبا القاسم بن يوسف بن خير الصقلى المتوفى سنة ٥٢٦ ، وقرأت عليه الحديث على كبر سنه « وكان من الذين نادوا بالفتنة : (حى على خير العمل) فأركبوه حماراً وجرسوه ، وهو يضحك ويسلم على الناس ويقول : هذا وقت التهنئة فهنئونى » .. و « وكان يتحرز فى الكذب على رسول الله » . . و « لم يقرأ عليه أحد قط من الحديث غيرى عن أبى بكر السمنطارى » .. و « أقام فى المدرسة العادلية مدة مديدة ،وكان عفيفاً ، ومن أذكى الناس . ولديه أدب ونحو » .. و «عبدالله هذا متفقه متنبه ، كان يحضر عندى عند إلقائى الدروس الفقهية فى المدرسة العادلية بالإسكندرية ، ويحفظ الدرس الأوسط حفظـــاً مرضياً ، ويعيد إعادة جيدة ، وكان قد تقدمت له قراءة بالمغرب لمذهب مالك ، وكان تلاء لكتاب الله ، حافظاً له ، ثم خرج إلى الريف ، وتوفى هناك » .. « تقدم بين أبناء الدنيا وأساء إلى نفسه فعـــدم سنة ٥٦٠ » .. « وبينى وبينه مشاعرة ، والكل فى الأجزاء المودعة عندهم بسلماس جمعها الله على » .. « واستوطن جزيرة بقرب ثغر رشيد وزرع فيها شجيرات ومقاثىء ، وعمر ملاحة ومنها قوته ، وانتفع به وبكرمه هناك ، وصار ملجأ يقصده البحريون ، وربما دخل الإسكندرية فيدخل إلى ، وكان أثر الخير والعبادة بيناً عليه ظاهراً » .. « توجه إلى مكة ، وجرت له هناك خصومات مع من كان يتعاطى الفقه ، ورد عليه أحسن رد ، وسافر إلى العراق. ودخل خراسان وتوفى هناك . » .. « كان يحضر عندى فى المدرسة لتعليق الدروس الفقهية وكتب الأمالى الحديثية ، وهو من أذكى الناس إلا فى الفقه ، وعمل الشعر قد كان أسهل عليه من شرب الماء ، ويعد من المجتهدين فيه ، وله فى أكثر من مائة قصيدة ، ومقتطفات يتعب إحصاؤها ، ثم شهد بالمحلة ودخل فيما لا يعنيه من الفضول ، وقرب من لا يرتضى ، وفى الجملة قد كان مسيئاً إلى نفسه ، وعدم فى سنة ٥٦٠ ولم يظهر لأحد كيفية أمره » .. « وكان يقرأ عندى فى المدرسة العادلية

وقد قدمت له قراءة على غيرى من قبلى ، وله فى قصائد ، وكان يذكر أنه من ولد الأكحل صاحب صقلية ، ولم يكن يصدق فيما قال لى من يعول على قوله ، ثم تظاهر بما البعد عنه أولى ، فأبعدته » .. « وقد علقت عنه فوائد ، رحمه الله، وكان عفيفاً من أهل القرآن » .. « كان يطوف فى الأرياف ، ويعظ مستميحا ،وكان من أهل الصلاح ، كثير الحفظ الرقائق » .. وفلان « محدث ابن محدث ابن محدث» وفلان « لا معول على روايته » .. «وهو كهل من أهل المهدية بمول ، ولم يكن فى العلم بذاك ، وكان يكثر مما يحضر عندى واشترى كتباً كثيرة وحملها إلى المغرب » .. « وهو آخر من حدث فى الدنيا بكتاب إلى عبد الرحمن النسوى بعلو، وإليه كانت سنة الرحلة ، وقرأته أنا عليه سنة ٥٠٠ بالدون » . . « كان جارى وقرأ على شيئاً من الحديث ، وسمعته يقول مولدى سنة ٤٦٠ هـ » .. « مصرى المولد إسكندرانى الموطن ، وسمع على أبى العباس الرازى كثيراً وكان محباً للحديث وأهله ، ويحضر عندى كل وقت لسماع ما يقرأ ، وكان قديما يخدم ولاة الثغر ، ثم اعتزل عنهم ، فسمعته يقول : من قارب السلطان فقد قارن الشيطان ، ولو كان يصلى فى شهر رمضان » .. « وكان يؤم فى مسجد من مساجد الإسكندرية » .. « خرج من الإسكندرية إلى المشرق وانقطع عنا خبره .. » « عمر هذا من أهل الأدب ، وله بالكلام أنس تام ، وبالطب وغير ذلك ، وكان كثيراً ما يحضر عندى ، وسمع على جملة من الحديث فى أول وصولى إلى الثغر ، مع جماعة من الفقهاء سنة ٥١١ ، وبعد ذلك ، وعلى من كنت أقرأ عليه من الشيوخ ثم انتقل إلى مصر وأقام بها إلى أن توفى » . . . « ولازمنى مدة مقامى بمصر ، وسمع على كثيراً وعلى من كنت أقرأ عليه كأبى صادق وابن بركات ، والفرا الموصلى وآخرين ومن شعره :

إن المشيب من الخطوب خطيب   إلا هوى بعد الشباب يطيب

« وجدت فى كلامه الزيادة والنقصان » .. وروى أحدهم للسلفى قولا لأبى محمد ابن أبى منصور القهستانى لبعض الرؤساء : « إذا كانت قصوركم قيصرية ، ودوركم كسرويه ، وأموالكم قارونية ، وركاهاتكم ظاهرية ، وأديانكم فرعونية فأين المحمدية » وصحح السلفى له وقال « وهذا الكلام ليحيى بن معاذ الرازى ».. « وكان يحضر عندى ويعظ فى مواعيدى الجمعية كثيراً » .. و « كان مقدم الشهود بالإسكندرية ، وقد نيف على التسعين ، توفى فى شعبان سنة ٥٢٤ ، ولم يكن يتأخر عن مواعيدى الجمعية » .. « كان من المرابطين بالجزيرة من الإسكندرية .. » « وسمع منه شيخنا أبو عبد الله الرازى » ويسهب فى سيرة المعمر الأمى المؤذن القبارى الخلقانى ويقول إنه توفى سنة ٥١٢ « وأنا بالإسكندرية ، وحضرت جنازته ، وصليت عليه ، وكان مالكى المذهب ، وقد كان مع كبر سنه يقصدنى إلى أن مات محمولا كأنه قفة ، وفى منزلى قرأت عليه ما قرأت ، وكنت أداعبه وأقول : أنت مكبر معبر مجبر ، فيتبسم ، وقد ذكر لى أنه رأى القاضى أبا مطر المعافرى ، وأبا عمران الفاسى ، لما قدم الإسكندرية حاجاً » .. ومن العجيب أن السلفى هو المصدر الوحيد عن هذه الشخصية التى هى الجد الأكبر لأبى القاسم القبارى دفين الإسكندرية والمتوفى بها سنة ٦٦٢ .. « وكان فلان يميل إلى التشيع قليلا ، وقيل إنه مات حسن العقيدة » .. « صنف كتاباً فى الحفاظ ، فبدأ بالزهرى وختم بى » .. « كانت له صبوة ثم تاب على يدى ، ويجلب إلى واحداً بعد واحد فيتوبون عن الشرب وغيره » .. وأنشده بتدمر أبو المسيب وهيب بن مترف بن مهيوف التميمى الشاعر البدوى « مقطعات أكثرها ملحونة ركيكة ، وإنما كتبت عنه لغرابة اسمه والموضع كذلك ، فإنه موضع قديم ، لم ير مثله إحكاما بين دمشق والرحبة ، ويقال إنه من أبناء سليمان بن داود ، والله أعلم ، وقلت أنا فيه لما شاهدته :

كم قد رأيت من البلاد فلم أجد   فيها كتدمر بنية وأساسا

« وكان يورق بالثغر ، وهو من بيت المملكة والأمر والنهى » . .

وعندما يتحدث السلفى عن أبى الحسن على بن عبدالله بن أبى الأشيم يقول: « من بيت الشهادة ، وأمه من دار بنى حديد قضاة الثغر ، وصحب أهل الأدب ، وله شعر أنشدنى شيئاً من ذلك ، وقد كتب كثيراً من الكتب الأدبية ، وكان يحضر عندى فى كل وقت ، وعلق عنى ملحاً أدبية ، وقد علقت نا عنه كذلك ، ومضى يقول عنه أيضاً إنه كتب بعض فوائد وأشعار لمتأخرى أهل الإسكندرية ، وتوفى سنة ٥٣٠ وكان من أهل السنة ، مالكى المذهب مسرفاً على نفسه .

وذكر أيضاً أبا المعالى محمود بن ناصر بن القاسم الكاتب المكينى، وتحدث عنه طويلا ، وذكر شعراً له كتبه بخطه للسلفى ، وقال إنه قرأ علوم الأوائل ، واقتنى كتباً كثيرة وخطه حسن واستطرد قائلا « وكان يتظاهر بتلك العلوم ، وقل من يشرع فى المنطق أو يتفلسف فيسلم من ألسنة الناس » وبعد أن يورد فى فى قوله له شعره الرقيق فى الحكم والمواعظ والاجتماعيات يقول « وكان كاتباً بليغاً ، وشاعراً مجيداً وحيسوباً مجوداً ، ومنجما حاذقاً ، ولديه علم بالهندسة والمنطق وعلوم الأوائل (الإلهيات) وغير ذلك ، ولم يكن حسن المحاضرة ولا مصيبا فى أكثر مايورد، لكثرة كلامه وخلط الغث بالسمين ، فإذا تناول القلم كتب كل مليح ، وأتى بكل نادر وتوفى فى جمادى الأولى سنة ٥٢٥ » .

هكذا أورد السلفى عن الرجل محاسنه ومساوئه ، فى نقد موضوعى، يندر أن نرى له مثيلا فى عصره بل فى عصرنا نحن، وبمثل هذا الأسلوب العلمى الخالى من التكلف . ويتناول السلفى رجالا آخرين ويقول عن أحدهم « وكان ستيرا وشيخا كبيرا ، مواظبا على الصلوات وأدائها فى أوائل الأوقات » . . « مالكى المذهب وكان يصلى فى مسجد من مساجد الثغر مدة مديدة ، وتحمد طريقته » .

ويقول عن مكية بنت عمر بن هانىء التجيبى الأندلسية وقد سمع منها بالإسكندرية وهى« امرأة صالحة كبيرة السن ، قدمت الإسكندرية راغبة فى الحج وكانت تأوى عندنا إلى أن توجهت إلى الحجاز ، وانقطع عنا خبرها ، ثم بلغنا أنها حجت وتوفيت بعد قفولها من الحجاز بمدينة قوص من الصعيد الأعلى » .

ويتحدث عن أبى عبد الله بن محمد الخولانى فيقول « أبو عبد الله هذا الذى ذكره لى همام (الأزدى) لم أره ، وتزوجت بابنته بعد موته ، وماتت وهى فى عصمتى رحمها الله ، وكانت كأبيها من الصالحات وبيتهم بيت جليل ، ومنهم أبو إسحق بن الصباغ وتولى تزويجها لى أخوها أبو البركات عيسى الشاهد الذى اغتم أبوه لشهادته » ونقول إن هذا النص هو الوحيد فى العالم الذى منه عرفنا زوجة السلفى وأباها وأخاها ولولا ذلك لغاب عنا جانب كبير من حياته الشخصية التى لم يذكرها لنا المؤرخون .

ويقول عن رجل هندى من بلد اسمه (بروج) « وكان شيخا صالحا لا يتمكن من تعبير مافى قلبه ويريد إيراده لا بالعربية ولا بالفارسية إلا بعد جهد جهيد ، وكان يؤذن فى مسجد من مساجد الثغر » . . « وعلقت عنه ماعلقت لغرابة اسمه لا لعلو سنده ، ولا علمه ، وكان من سكان الإسكندرية » . . فسرقت الأبيات منى مع أشياء أخرى من ملبوس وغيره كانت فى حقيبة ، ولم ألتق به بعد ذلك فأكتب عنه شيئاً آخر من شعره » . . وتوفى فى رجب سنة ٥٣٩ ودفن بمقبرة الديماس مستشهدا » و « توفى فى المحرم سنة ٥٣٧ ودفن بمقبرةالديماس ، وكان قد قال لى إن مولده سنة ٤٥٥ » . . وفلان هذا « كتبت عنه شيئا صالحا ولم أظفر الآن بما كتبته عنه ، فهو بثغر آمد مع فوائد دياربكر مودع ، سهل الله وصول الكل إلى » .

ومما يجدر بنا ذكره فى هذا المقام أن السلفى كان دائما المرجع الرئيسى لعلماء

الرجال ونقد الرجال لما اتسمت به كتاباته من العدل والدقة والإنصاف والصدق ، ففي تقريظ كتاب « ديوان المعاني » لصاحبه أبي هلال العسكري ، حرص الناشر على أن يكون كلام السلفي عن أبي هلال في مكان الصدارة ، وأشار إلى أن ياقوت وغيره قد اعتمد على ماقاله السلفي، حيث يقول عن صاحب ديوان المعاني « سألت الرئيس أبا المظفر محمد بن أبي العباس الأبيوردي — رحمه الله — بهمذان عنه، ووصفه بالعلم والفقه معا ، وقد كان يتبزز (أي يحترف البز وهي صناعة النسيج) احترازا من الطمع والدناءة والتبذل ، وذكر فيه فصلا هو في سؤالاتي عنه ، وكان الغالب عليه الأدب والشعر وله في اللغة كتاب وسمه بالتلخيص . . . » .

بهذه العبارات المنتقاة من تراجم السلفي في « معجم السفر » لمثل هذا العدد من الرجال نستدل على أن نقد الرجال عنده يتسم بطابع كله حيوية ، ويرسم لنا ماغمض علينا من الحياة العلمية والاجتماعية والعمرانية للإسكندرية ، منذ أكثر من ثمانمائة سنة ، بأسلوب علمي سهل ممتنع وبألفاظ جزلة ورائقة ،لاتكلف فيها ولاتعقيد ، ومن غير سجع متعمل ساد ذلك العصر ، بتأثير القاضي الفاضل الكاتب الصاحب لصلاح الدين . كما أن (الموضوعية) و (الشخصية) لم تطغ إحداهما على الأخرى في هذا المنهج السلفي الفريد في نوعه ، وأخيرا فإن الثقافة الواسعة التي عرف بها السلفي والتعمق في كل فن من فنونها ، كانت بمثابة القاعدة الصلبة، التي مكنت هذا العالم الأديب من نقد الرجال وهو الواثق من معلوماته وخبراته في العلوم والعلماء .

السلفى .. وعلم القراءات

لقراءة القرآن قواعد وأصول ، وضعت منذ نزوله على رسول الله ضمـــانا لتوصيل ألفاظه ومعانيه إلى الأسماع والقلوب واضحة من غير لبس ، فصيحة من غير عجمة ، وعلى مدى الأربعة عشر قرنا الماضية ، وتلاوة القرآن لا تخرج عن واحدة من (القراءات السبع) الموضوعة ، يتعلمها الصبى منذ نعومة أظفاره مأخوذا بتجويدها ، على يد المعلم الحريص عـــلى كتاب الله ، إيمانا واحتسابا لوجهه الكريم .

هذه القراءات السبع التى نزل بها القرآن ، أو اللغات العربية السبع كما تسمى أيضا ، قـــد أخبر بها رسول الله وبجملتها ، وأباح القراءة بأى منها ، حتى إذا انتشر الحفاظ فى الأمصار ، خشى عثمان بن عفان أن تضيع معالمها ، فأمر بنسخ (المصحف الإمام) بلغة قريش ، وتفرغ بعض القراء القراءة ، وعنوا بضبطها ، وصارت الرحلة إليهم من البلاد يقصدهم كل من يريد تلاوة القرآن بإتقـــان ، وكان أشهرهم فى مصر الإمـــام أبو الحسن طاهر بن أبى الطيب بن أبى غلبون الحلبى نزيل مصر والمتوفى بها سنة ٣٩٩ وهو صاحب « التذكرة » فى القراءات وكان رائد القراء جميعا فى صحة أسانيد القراءات ، وموافقتها للغـــة العربية بأى وجه من الوجوه ، ومطابقتها المصحف الإمام . وكان هـــذا الكتاب يقرأ سنة ٥٠٥ بجامع القمراء بالإسكندرية ، على يد المقرىء أبى العبـــاس بن نفيس .

ومن ثمت وضع أئمة المسلمين كتبا فى هذا الفن ، ولخص ابن قتيبة وجوه الخلاف فى القراءات وفى تفاوت عددها ما بين ٧ و ٢٥ وضمن ذلك كتابه الشهير « تأويل مشكل القرآن » ، واستخرج أيضا الحسن بن الفضل كتاب « الأمثال الكامنة فى القرآن » وحدث به أبو الخطاب هبة الله بن عمـــار الكرمانى الصوفى ، وكتبه بخطه سنة ٤٣٨ بالإسكندرية لابن خير الإشبيلى ، حدثه به أبو عـــلى الحسن بن

محمد بن عمرو بن القناس بالإسكندرية، حدثه به أبو الفتح الفرغانى وابن حبيب المفسر النيسابورى .

ولم تكن شهرة السلفى بعلم الحديث لتحجب عنه شهرته أيضا فى علم القراءات ، إذ كان رحمه الله وجعل الجنة مثواه — عالما بالقراءات معلما لها ، فقد قال ابن الجزرى[1] إن السلفى « أعلى أهل الأرض إسنادا فى الحديث والقراءات » وقال عنه عبد القادر الرهاوى تلميذه « وجاء جماعة من المقرئين بالألحان ، فأرادوا أن يقرأوا فمنعهم من ذلك ، وقال : هذه بدعة ، بل اقرأوا ترتيلا ، فقرأوا كما أمرهم[2] » ومن مؤلفات السلفى فى هذا العلم « شرط القراءة على الشيوخ[3] » .

وقد عنى مؤرخو علم القراءات بذكر السلفى كأحد العمد الراسخة فيه ، منهم ابن الجزرى والذهبى ، وأشادوا بفضله ، وتتبعوا شيوخه وتلاميذه ، كما أن السلفى نفسه لم ينس أحدا منهم فى مذكراته ومعاجمه .

قال ابن الجزرى إن السلفى « قرأ القراءات على أبى الفتح أحمد بن محمد الحداد وأبى الخطاب على بن عبد الرحمن بن الجراح ، وعبد الله بن أحمد بن عبد الله الخرقى الأصبهانى ، ومحمد بن عبد الله الوكيل ، ومحمد بن محمد بن محمد المطرز ، وأبى القاسم بن الفحام . وسمع الحروف من أبى طاهر بن سوار من كتابه « المستنير » ومن مرشد بن يحيى المدينى . وروى عنه القراءات : عيسى بن عبد العزيز ، وبالإجازة العامة الكمال الضرير بالإسكندرية » .

وقال الذهبى[4] — على هذا النمط تقريبا — ذاكرا شيوخ السلفى فى

---

(١) غاية النهاية فى طبقات القراء جـ ١ : ١٠٢ .

(٢) طبقات الشافعية : السبكى .

(٣) الفهرست : ابن خير .

(٤) تفرقة القراء الكبار على الطبقات والأعصار .

القراءات : ابن الفحام وأبو العباس بن الحطيئة ، ويحيى بن سعدون شيخ الموصل وعبد الرحمن بن خلف بن عطية شيخ الصفراوى والهمذانى ، أما ابن الفحام فقد وثقه السلفى .

وحدثنا السلفى نفسه عن شيخه هبة الله بن محمد بن الصنار الإمام فى النحو والمتوفى سنة ٤٨٦ وقال عنه : « قرأت عليه القرآن » ومعنى ذلك أن السلفى قرأ عليه بأصبهان وقبل مغادرتها ، حيث لم يكن قد تجاوز السادسة عشرة من عمره .

وكان أبرز شيوخ السلفى فى القراءات عالم الإسكندرية ابن الفحام المتوفى سنة ٥١٦ ، أى أن السلفى أدركه بالإسكندرية ، ولم يكن السلفى قد جاوز السادسة والأربعين من عمره . من هو ابن الفحام هذا ؟ -

هو أبو القاسم عبد الرحمن بن أبى بكر عتيق بن خلف بن الفحام الصقلى المقرىء الذى انتهت إليه رياسة الإقراء بالإسكندرية ، علوا ودراية وهو مصنف « التجريد لبغية المريد » فى القراءات السبع . رحل من المغرب إلى المشرق فى طلب القراءة ، ونزل الإسكندرية فاستقر بها ، حتى مات سنة ٥١٦ ، ويظهر أن السلفى لم يدرك فى الأخذ عنه أكثر من خمس سنوات ، وأنه مات والسلفى بمصر ، ولكنه كتب عنه أسانيد كل قراءة ، وكان الرجل من الشهرة بحيث « قصدوه لعلو إسناده وإتقانه » كما يقول ابن تغرى بردى .

وذكر السلفى أنه سمع مقرئا آخر بالإسكندرية سنة ٥٢١ أى بعد وفاة ابن الفحام ، هو أبو الحسن على بن محمد بن عبيد بن سكر القارىء المصرى وكان طاعنا فى السن ، وقال إنه رأى ابن هاشم وابن نفيس والقزوينى وعبد الباقى بن فارس وغيرهم بمصر . وكان يحفظ كثيرا من الحكايات .

وحدثنا أيضا عن أبى محمد عبد الله بن حسن بن عشير العبدرى اليابسى النحوى

فقال إنه كان مصدرا فى جامع الإسكندرية لإقراء القرآن والنحو، وله شعر كثير، وأخذ النحو عن ابن الطراوة ، وروى السلفى أيضا عن أبى العباس أحمد بن الحطيئة اللخمى الفاسى رئيس القراء بالسبع ، وقد جاء من فاس وسكن مصر وتصدر للإقراء بها وتوفى سنة ٥٦٠ ودفن بقرافتها .

كما أخذ القراءات عن ابن الصفراوى الإسكندرانى المالكى الذى انتهت إليه رياسة الإقراء والإفتاء بالإسكندرية وتوفى سنة ٦٣٦ عن ٩٢ سنة ، وعن عبد الكريم بن سوار المصرى المقرىء النحوى المتوفى سنة ٥٢٥ .

أما يحيى بن سعدون الذى أخذ عن ابن الفحام شيخ السلفى ، فكان ممن أخذوا على السلفى ، وهو يحيى بن سعدون بن تمام بن محمد الأزدى القرطبى ، أحد أئمة المتأخرين فى القراءات وعلوم القرآن والحديث والنحو واللغة ، وخرج شابا من الأندلس ، وسمع بالإسكندرية من أبى عبد الله الرازى بن الحطاب ، وبها وبمصر من السلفى ، ودخل بغداد سنة ٥١٧ ، ودخل أصبهان ، ثم سكن الموصل ، وأخذ من شيوخها وتوفى بها سنة ٥٦٧ .

ومن أشهر تلاميذه فى القراءات وغيرها أيضا على بن الرماح النحوى المقرىء وكان من أعيان النحاة وأكابر القراء ، ولد بالقاهرة ومات بها سنة ٦٣٣ وسمع من السلفى .

ولكن الشاطبى كان أنبغ تلاميذ السلفى فى القراءات وغير القراءات ونوجز ترجمته فيما يلى :

إمام القراء أبو محمد القاسم بن فيرة الشاطبى الأندلسى الضرير دفين مصر ، والمتوفى بها سنة ٥٩٠ ، وهو العالم المحدث المفسر النحوى اللغوى المقرىء الأديب الشاعر الشافعى أوحد زمانه فى النحو واللغة . ولد بشاطبة من الأندلس ، ودخل مصر سنة ٥٧٢ حيث نزل على القاضى الفاضل ، فأكرم مثواه . وسمع من السلفى

فى الإسكندرية طبعا ، كما سمع من غيره بمصر ، وبها توفى سنة ٥٩٠ ودفن بتربة القاضى الفاضل ، واشتهر الشاطبى بمؤلفاته فى القراءات وهى « ناظمة الزهر فى إعداد آيات السور » وكذلك « حرز الأمانى ووجه التهانى » المشهورة بالشاطبية فى القراءات ، و « تتمة الحرز من قراءة الأئمة الكنز » و « عقيلة أتراب القصائد فى أسنى المقاصد » وموضوعها تلاوة القرآن على الوجه الأجمل ، لا أنواع القراءات .

وإذا كان الشاطبى إمام القراء لم يسمع من السلفى إلا نحو أربع سنوات ، فإن أولاده قد برعوا براعة أبيهم فى القراءات . نذكر منهم أبا عبد الله محمد بن القاسم الحافظ المحدث المقرى ، الذى تصدر للإقراء بالفاضلية روى عن أبيه وعن السلفى ، وكان قد قرأ ببلده شاطبة وبدمشق ، وعاش نحو ٨٠ سنة ، ومات بمصر ودفن بمقبرة القاضى الفاضل أيضا .

وهناك شاطبى آخر ولكنه عاش فى الإسكندرية لا مصر ، وبها توفى سنة ٦٧٢ وبينه وبين سابقه اثنان وثمانون عاما فى الوفاة ، وكلاهما موسوعة علمية وإمام فى القراءات فمن هو الشاطبى السكندرى ؟ حتى لايختلط هذا بذاك فى أذهان الناس ، وكثيرا ما كان .

هو أبو عبد الله محمد بن أبى الربيع بن سليمان بن محمد المعافرى الشاطبى نزيل الإسكندرية ، الزاهد المقرىء الفقيه الذى انقطع للعبادة فى (رباط سوار) من الإسكندرية بتربة أبى العباس المرسى ، ودفن بها سنة ٦٧٢ .

ولد بشاطبة سنة ٥٨٥ وأخذ القراءات بالإجازة سنة ٦٠٧ عن أبى عبد الله محمد بن بقاء اللخمى الشاطبى الجنجالى ، صدر قراء شاطبة ، وهذا الأخير أخذ القراءات عن ابن فيرة الشاطبى المصرى قبل أن يرحل إلى المشرق .

وللشاطبى - دفين الإسكندرية الذى ولد قبل وفاة السلفى بنحو تسع سنوات ،

ولم يدركه ـ مؤلفات قيمة هى « المسلك القريب فى ترتيب الغريب » و « اللمعة الجامعة فى العلوم النافعة » فى التفسير و « شرف المراتب والمنازل فى معرفة العالى فى القراءات والنازل » و « المباحث السنية فى شرح الحصرية » و « الحرقة فى إلباس الخرقة » وهو فى التصوف ، الذى اشتهر به وكذلك « المنهج المفيد فيما يلزم للشيخ والمريد » و « النبذ الجلية فى ألفاظ اصطلح عليها الصوفية » و « الزهر المضى فى مناقب الشاطبى » و « الأربعين المضية فى الأحاديث النبوية » و « زهر العريش فى تحريم الحشيش » ، فهو إذن عالم بالقراءات والحديث ، وغلب التصوف عليه .

ومن أقطاب الإسكندرية المتأخرين فى علم القراءات مكين الدين الأسمر متصدر الإقراء بها ، وقد أخذ عنه أبو عبد الله رشيد بن الفهرى «المجالس الخمسة السلماسية» التى أملاها السلفى بسلماس . وأخذ هو عن أبى القاسم الصفراوى عن السلفى ، ووضع له المكين خطه بإجازة سنة ٦٨٤[1] .

ومنهم معين الدين أبو محمد عبد الله بن محمد النكزاوى المدنى الأنصارى الإسكندرانى المقرىء النحوى الذى ولد بالإسكندرية سنة ٦١٤ ، وعلى ذلك لم يسمع إلا من أصحاب السلفى ، وقرأ منهم القراءات وتوفى سنة ٦٨٣ وله « الكامل فى القراءات » و «الاقتضاء فى معرفة الوقف والابتداء » وذكره الذهبى والسيوطى وابن حجر .

وشهاب الدين أبو العباس أحمد بن حسن بن إبراهيم القوصى العدل المؤدب المقرىء المحدث ، قرأ القراءات وسمع الحديث من علماء قوص وغيرهم ، ومات بالإسكندرية سنة ٦٩٤ . ودفن بجوار السلفى .

وتاج الدين الفاكهانى الإسكندرانى دفين الإسكندرية والمتوفى بها سنة ٧٣٤ . أخذ القراءات عن حانى رأسه وابن طرخان ، والعراقى ، وكان فقيها

---

(١) درة الحجال فى غرة أسماء الرجال : ابن القاضى .

محدثا أديبا عالما بالعربية ودخل دمشق .

وامتد الزمن بعلم القراءات فى الإسكندرية إلى ماشاء الله ، كما أنه ضرب فى ماضيها العريق من زمن بعيد ، وقد رأينا كيف أن عام ٥٠٥ قد شهد أبا العباس ابن نفيس المقرىء وهو يقرأ - فى «مسجد القمراء» بالإسكندرية قرب باب رشيد - دروس الإقراء من كتاب «التذكرة» فى القراءات لأبى الحسن طاهر بن غلبون.

وقبل ذلك عرف قراء مصر كتاب «الإرشاد فى معرفة مذاهب القراء السبعة وشرح أصولهم» لأبى الطيب بن غلبون المقرىء الحلبى ثم المصرى شيخ مصر فى القراءات المتوفى سنة ٣٨٩ أو سنة ٣٩٩ وكان قد رحل من بلده حلب إلى البصرة ، ثم إلى مصر ، وله أيضا «المرشد فى القراءات السبع» و «استكمال الفائدة» وهو فى الإمالة فى مذاهب القراء السبعة .

وقد عرفنا أن أبا بكر الطرطوشى قد حارب بدعة «القراءة بالإدارة» التى شهدها فى الإسكندرية عند دخولها ، وعلى ذلك جاء السلفى فقام بدوره يحارب البدعة إعلاء لكلمة الحق فى قراءة القرآن ، وقد كان السلفى يحدث بكتاب «المحتسب فى تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها» لأبى الفتح عثمان ابن جنى النحوى الموصلى ، كتب به وأجاز لابن خير الإشبيلى الذى أقر بذلك فى فهرسته المعروف .

الشعر .. والشعراء .. والسلفى .

للبيئة أثرها فى رهافة الحس ، ورقة الوجدان ، وحلاوة اللسان ، ولا أدل على ذلك من علي بن الجهم الذى عاش ردحا طويلا من الزمن فى الصحراء فانطبع شعره بالخشونة وقلة الذوق حيث قال فى ممدوحه مفاخرا :

أنت كالكلب فى الحفاظ على الود وكالتيس فى قراع الخطوب

فلما انتقل إلى رياض بغداد ، وصفت له الحياة ، قال :

عيون المها بين (الرصافة) و (الجسر)
جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

والسلفى نشأ فى (جروا آن) وتنقل بين أصبهان وخراسان وبغداد والبصرة والكوفة والموصل ومكة والمدينة ودمشق وصور ومصر والاسكندرية ، وعاش عمره المديد فى آفاق وأجواء زاخرة بالطبيعة النضرة من أنهار وبحار وجبال ووهاد ، وسهول ورياض وأنسام وأعاصير ، وطالت غربته ، وحنت جوانحه إلى الماضى البعيد والقريب ، وأحب الناس وأحبوه ، وعاش فى دنيا العروبة والإسلام ، وسمع ماسمع وقرأ ماقرأ منثورا ومنظوما ، وأنشد الشعر واستنشده ، وحفظ روائعه ورقائقه ، وتخير منه ماراقه ، وانتقد قائليه سابقين ولاحقين ، أى أنه بالإضافة إلى الجوانب الثقافية ، التى عرف بها واشتهر ، كان شاعرا ، مع أنه غير عربى الأصل ، وهذا هو سر الدهشة عند أبى جعفر بن الباذش حيث يقول « وهو على عجمته يقرض الشعر ، ويجيبه منه ماليس برديء ولا جيد » بينما يقول ابن الأبار « كان يحب الشعر ويجيز عليه بأسنى الجوائز » .

وكانت الإسكندرية فى عصر السلفى بيئة صالحة للشعراء : شدتهم محاسنها وآثارها لقول الشعر ، وجمعت بينهم المجالس والبساتين ، وعرفت الشعر

الارتجالى الذى كان يتبارى فيه شعراؤها ومحدثوها وقضاتها ووزراؤها وحكامها ، وسجل التاريخ لنا كثيرا من شعر هذا العصر فى الإسكندرية من وصف الخليج ، وقصور الرمل ، وأزهار البساتين ، ومنار الإسكندرية ، والمواكب الرسمية ، وأشواق المغتربين .

وكان الأديب جمال الدين ظافر الأزدى المصرى المتوفى سنة ٦٢٣ بالقاهرة، وزيرا الملك العادل الأيوبى ، وخدمه بالإسكندرية سنة ٦٠٢ ، وشارك فى الحياة الأدبية بها ، وخرج علينا بكتابه « بدائع البدائه » بتشجيع القاضى الفاضل ، وضمنه تلك الروائع والبدائع الأدبية نثرا وشعرا مما قاله شعراء الإسكندرية على البديهة ، كلما جمع شملهم مجلس من تلك المجالس التى ذكرناها ، وواتتهم القدرة على النظم .

وقد أشار ظافر - الذى ولد قبل وفاة السلفى بسبع سنوات ، فلم يدركه ولم يسمع منه — إلى أخبار ونوادر أدبية بأسانيد السلفى ، وكأنها أحاديث نبوية لاتكون مقبولة إلا بعد عرض رواتها الثقات ، وممن رووا عن السلفى فى هذا: الفقيه الحافظ أبو محمد المسكى بالإجازة ، والفقيه أبو الحسن على بن حمدون الصورى ، ثم أبو الحسن على بن المفضل المقدسى .

ومن سيرة السلفى فى هذا المجال ، نستطيع أن نحكم بأنه قد اكتملت فيه الشاعرية من ذخيرة ضخمة فى اللغة نحوها وصرفها وعروضها وتراثها ، ومن عاطفة رقيقة تهتز لكل لفظ جميل ومعنى رائع مهذب ، ولو أن ذلك متناثر فى متاهات شتى من سيرته أى فيما كتبه عنه غيره ، بل — وهو الأهم — من خلال تراجم هو للناس ، وكان يحفظ ويروى وينظم وينقد ، وإن لم يعد فى المجيدين الكبار ، ولعل تأثره بشخصية الإمام الشافعى نفسه كان أحد العوامل التى جعلته يقول الشعر ، فهو الذى تمذهب بمذهبه ، وأعجب بسيرته ، فقال الشعر الرقيق

العذب ، فكان يروى عنه كثيرا من أشعاره كقوله(١) :

إن الذى رزق اليسار ولم يصب حمدا ولا أجرا لغير موفق

ولقد ذكر لنا ابن خلكان أن السلفى حفظ كثيرا من أشعار الشافعى ، وكان يروى عنه منها ، كما كان يروى ويحفظ عن غيره كل شعر مطرب رقيق الجرس عذب الروى ، أيا كان صاحبه . فكان يعجبه قول القائل :

خلق الحب لها فى خلدى خالق أكمله لما خلق
سبقت بالحب سلمى غيرها وأحق الناس عندى من سبق

وكان لسانه يجرى بأبيات للثعالبى فى أبى سليمان الخطابى منها(٢) :

أبا سليمان سر فى الأرض أو فأقم .·. سيان عندى دنا مثواك أو شطنا
ما أنت غيرى فأخشى أن تفارقنى .·. فديت روحك بل روحى فأنت أنا

وقد رأينا أن السلفى قد وضع كتابا فى « أخبار أبى العلاء » ، وقد أورد ابن الوردى شعرا كتب به القاضى أبو الطيب الطبرى إلى المعرى فرد عليه جوابه على الوزن والقافية ، وكان السؤال عبارة عن أحجية أو فزورة ، لم يغب عن فطنة رهين المحبسين أن يرد الجواب بها شعرا رائعا(٣) .

وروى السلفى كتاب « مختصر فى القوافى » لأبى عمر عثمان بن على بن عمر الخزرجى السرقوسى الصقلى اللغوى النحوى المقرىء العروضى المتوفى بعد سنة ٥٧٦ وصاحب « مختصر العمدة لابن رشيق » و « شرح الإيضاح فى النحو » ، و « مخارج الحروف » و « الهدى لأولى النهى » وذكره القفطى فى « إنباه الرواة »

(١) ألف باء : البلوى .
(٢) الصلة : ابن بشكوال .
(٣) تتمة المختصر : ابن الوردى .

وياقوت فى « معجم الأدباء » .

ومن الطبيعى ألا نظفر من السلفى بغير الشعر العفيف سواء فى مروياته أو منظوماته ، مع ما للشاعر الفنان من حرية الانطلاق والتحليق فى شتى الآفاق ، ولكن السلفى حصر نفسه فى إطار ثقافته ، ولم يتعد أبعادها ، ولهذا نرى أشعاره فى « علم الحديث » تغلب عليه ، يقول مفاخرا بنبوغه فى علم الحديث :

ليس على الأرض فى زمانى　　من شأنه فى الحديث شانى
نقلا ونقدا ولا غلاوا　　فيه على رغم كل شانى(١)

ويقول فى مكانة علماء الحديث بالنسبة لغيرهم من المشتغلين بالفقه وغيره :

أهل الحديث هم الرجال البذل　　ومن المعالى فى الأعالى نزل
هل يستوى السمك الذى تحت الثرى　　أبدا مقيم والسماك الأعزل(٢)

ويقول فى توصيف مهمة رجال الحديث :

إن علم الحديث علم رجال　　تركوا الابتداع للأتباع
فإذا الليل جنهم كتبوه　　وإذا أصبحوا غدوا للسماع(٣)

وقد أنشدهما أبو الربيع الكلاعى عن أبى الحجاج القضاعى عن السلفى لنفسه ، كما يقول ابن الأبار فى « المعجم » ويتصدى الرد على خصوم علم الحديث ، ويبرز أهميته فى الدفاع عن دين الإسلام :

ياقاصدا علم الحديث يذمه　　إذ ضل عن طرق الهداية وهمه
إن العلوم — كما علمت — كثيرة　　وأجلها : فقه الحديث وعلمه
من كان طالبه وفيه تيقظ　　فأتم سهم فى المعالى سهمه

---

(١) التاريخ الكبير : ابن عساكر .

(٢) و (٣) ألف باء : البلوى .

لولا الحديث وأهله لم يستقم دين النبي وشذ عنا حكمه
وإذا استراب بقولنا متحذلق ما كل فهم في البسيطة فهمه (١)

ويقول - فيما يشبه « الشعر الاصطلاحي » وعن « جودة الإسناد » في « علو الحديث » برواية زينب بنت الكمال وفاطمة بنت أبي عمر وأحمد بن علي الجزري .

ليس حسن الحديث قرب رجال عند أرباب علمه النقاد
بل علو الحديث عند أولى النهى والاتقان جودة الإسناد
فإذا ماتجمعا في حديث فاغتنمه ، فذاك أقصى المراد (٢)

وسكن ابن عمر الأنصاري البلنسي المتوفى سنة ٥٩٠ هـ مع السلفي بمدرسته، فلما صار السلفي في عشر المائة قال :

ما كنت أرجو إذ ترعرعت أن أبلغ من عمري سبعينا
فالآن - والحمد لربي - لقد جاوزت من عمري تسعينا

ولما قارب المائة أنشده يقول :

أنا إن بان شبابي ومضى فبحمد الله ذهني حاضر
ولئن خفت وجفت أعظمي كبرا .. غصن علومي ناضر (٣)

والمعروف أن ابن عمر الأنصاري هذا قد عاشر السلفي نحو عشرين سنة ، وكتب عنه مالم يكتب أحد .

ويقول أبو شامة : سمعت الإمام علم الدين السخاوي يقول : سمعت أبا طاهر السلفي يوماً ينشد لنفسه شعراً قديماً وهو :

---

(١) التاريخ الكبير : ابن عساكر
(٢) طبقات الشافعية : السبكي
(٣) بغية الملتمس : الضبي + النجوم الزاهرة : ابن تغري بردي .

أنـــا من أهـــل الحـــديث وهمـــو خـــير فئـــة
جـــزت تسعـــين وأرجـــو أن أجـــوزن المـــائة

فقيل له حقق الله رجاءك ، فعلمت أنه قد جاوز المائة وذلك فى سنة ٥٧٢ ، فلما جاوزها قال :

أنا إن بان شبابى ومضى فلربى الحمـــد ذهنى حاضر
ولئن خفـــت وجفـــت أعظمى كبرا غصن علومى ناضر[1]

ولقد ذكر السبكى صاحب طبقات الشافعية أن أباه قد انتقد السلفى فى تعرضه للإفتاء ذاكرا أنه من أهل الحديث فلا يحق له الإفتاء ، فإذا بنا أمام هذه الأبيات السلفى يفتخر بأنه سعيد بالإفتاء على مذهب إمامه الشافعى . يقول :[2]

إمامى الشافعى وحـــــين أفـــتى بمذهبه المهذب طاب عيشى
وإنـــى لا أبـــالى بانفـــرادى بقوة حجتى فى ألف جيش
وقـــد قال النبى ، وصح عنـــه : « ألا إن الأئمة من قريش »

وبهذا ضمن السلفى حديث النبى فى شعره ، ولم يخل باللفظ ولا المعنى ، وتصادف أن الحديث يتفق فى نصه نثرا مع الوزن شعراً . وهذه براعة من السلفى ، ودليل على رهافة حسه الموسيقى ، ومن أجل وفاء السلفى للإمام الشافعى وأصحابه من بعده نظم هذه الأبيات .[3]

فعليـــك يامن رام دين محمـــد (بالشافعى) وماتلاه وقالا
أعنى (محمد ابن إدريس) الذى فاق البرية رتبـــة وكمالا
وعلا على النظراء طرا واغتـــدى شمس الهدى ، والغير كان هلالا

---

(١) طبقات الشافعية : السبكى
(٢) الف باء : البلوى
(٣) الكواكب السيارة : ابن الزيات

وأجسب كذا عن صحبه وأحبهم ... وأجلهم لله جل جــلالا
متجمــلا بهمو ، وكن من حزبهم ... فهم الجمال إذا أردت جمــالا
وهم الأئمــة إن أردت أئمــة ... وهم الرجال إذا أردت رجالا
فأجلهم شيخ الأئمة (أحمد) ... فيما رواه من الحديث وقالا
و (الأعينى) و (يونس الصدفى) ... و (المزنى) آخرمن إليه مالا
وكذاك (حرملة بن يحيى) و (البويطى) ... الذى قد أعجز الأشــكالا
واذكر (أبا ثور) فقيه عراقه ... وفريدها و (الحارث) البقالا
ثم (الربيعين) اللذين تفننا ... فى فقهه ، وتحمــلا الأثقالا
و (الزعفرانى) الصدوق ورهطه ... فى كل قطر ، واعرف الأبطالا
فالشافعى إمامهم عن (مالك) ... وذويه ، لا عن رأيه وتغالى
وهمو من الأتباع والأتباع عن ... صحف الرسول رواية وسؤالا

ونحن لانعتبر هــذا الشعر فى شىء إلا الوزن ، بسبب النثرية وأسلوب التقرير ، كما أن شاعرية السلفى المشهود له بها قد خانته من غير شك فى هذه الأبيات التى مانظمها إلا لتكون سجلا منظوما لأصحاب الإمام الشافعى على حساب فن الشعر لاغير .

ومع ذلك فإن هناك شعراً رقيقا خفيف الظل قاله السلفى ، ويدل على أنه من نظمه أيام شبابه ، من ذلك قوله فى « الوصال » (1)

قــد قلت إن رفــع الصباح ... ذيول ليل الوصل عنــا
يا ليت هــذا الدهر دام ... الدهــر للصب المعــنى
فالليــل أستر للمتيــم ... والظــلام عليه أحــنى

(١) معجم الأدباء : ياقوت الحموى

ويقول أيضاً فى الغزل التقليدى الذى تغلب عليه الصنعة ، والخالى من كل تجربة عاطفية .

إذا بـدا فـرط تجافيه ... وعذل عـذالى معافيه
دعوا ملامى وانظروا ظرفه ... فى طرفه والدر فى فيه
ولاحظوا الحسن بألبابكم ... كى تعذروا قلب مصافيه
ثم اعذلونى بعد أن كنت قد ... أصابنى .. والعقل شافيه

ومن شعره يتشوق إلى إخوانه بمدينة (جى) من أصبهان أيام شبابه :

سقيا لأيام (بجى) قد مضت ... لى بين أهل الفضل من خلان[1]
أهل الفصاحة والبراعة ، معشر ... فاقوا الشيوخ وهم من الشبان

ولما ترجم السلفى لشاعر بدوى من (تدمر) بالشام ، لم يفته أن يذكر لنا أنه زارها ، وشهد آثارها ، وكتب فيها الأبيات الآتية : [2]

كم قد رأيت من البلاد ، فلم أجد ... فيها كتدمر بنية وأساساً
بلد من الحجر المنقش كله ... فإذا تؤمل فيه هال الناسا
والمدن فى الأحكام أجسام ، وقد ... أضحى الحقيقة للجميع الراسا

ويقرظ السلفى كتابا وضعه أحد أعلام الحديث وهو أبو بكر الخطيب فيقول : [3]

تصانيف (ابن ثابت الخطيب) ... ألذ من الصبا الغض الرطيب
يراها إذ رواها من حواها ... رياضاً للفتى اليقظ اللبيب
ويأخذ حسن ما قد ضاع منها ... بقلب الحافظ الفطن الأديب

---

(١) ألف باء : البلوى
(٢) معجم الأدباء : ياقوت الحموى
(٣) معجم الأدباء + تذكرة الحفاظ

فبأية راحة ونعيم عيش يوازى عيشها بل أى طيب

ومن الشعر الخفيف قول السلفى فى « العلم [١] » وهو شعر تمطى متداول :

العلم باب للشرف وما من العلم خلف
وكل من خالفنى باء بتبن وعلف

ومن الطبيعى أن ينال كل مخالف للسنة حظه من النقد اللاذع ، فى عصر كثرت فيه البدع والأهواء من (المتكلمين) كالمجسمة والمعطلة والجهمية والزنادقة ، وكلها فرق منحرفة مآلها إلى النار ، أما الفرقة الناجية وحدها فهى أهل السنة والجماعة ، وينبرى السلفى للمنحرفين ، وكأنه واحد من الأشاعرة ،أو متحمس من أهل الكلام فيقول [٢] .

ضل (المجسم) و (المعطل) مثله عن منهج الحق المتين ضلالا
وأتى أماثلهم بنكر ، لارعوا من معشر قد حاولوا الأشكالا
وغدوا يقيسون الأمور برأيهم ويدلسون على الورى الأقوالا
فالأولون تعدوا الحق الذى قد حد فى وصف الإله تعالى [٣]
وتصوروه صورة من جنسنا (جسما)وليس الله...عز مثالا
والآخرون (يعطلوا) ماجاء فى القرآن أقبح بالمقال مقالا
وأبوا حديث المصطفى أن يقبلوا ورأوه حشوا لايفيد منالا

ويلاحظ أن الحماسة الدينية قد تغلبت على أصول العروض ، فاستباح السلفى لنفسه مالا يباح فى النحو والصرف .

---

(١) الف باء : البلوى

(٢) طبقات الشافعية : السبكى

(٣) إشارة الى قوله تعالى « فذلكم الله ربكم الحق. »

غير أن للسلفى أشعاراً تنم عن الروية والحكمة والتـــدبر فى أمور الدنيا تستحق التنويه حقاً ، منها قوله فى الصديق :

غرضى من الدنيا صديق   لى صـــدوق فى المقـــه
يرعى الجميـــل وعينـــه   عن كل عيب مطرقـــه
وإذا تغـــير من تغـــير   كـنت منه عـــلى ثقه

ويقول قول حكيم مجرب فى (المزاح)

المزح حقـــاً رأس كل قطيعـــه   والمزح منقصة تشين فظيعـــه
فاتـــركه فهو يشين من يعتـــاده   واهجره فهو إلى الفراق ذريعه

والبيت الثانى كما ترى حشو ، لأن البيت الأول قد تضمنه لفظاً ومعنى .

ويقول فى « ضرورة إنفاق المال » استناداً إلى قول الله تعالى :

« لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون »

تبـــاً لمن آتـــاه رب العـــلا   مالا ولم يرزقه إنفـــاقه
فالمال كالآل متى لم يكن   يبين الإنفـــاق إشراقه

ويقول فى « البخل والسخاء »

لاتجب دعوة البخيل لأكل   فطعام البخيل فى الجوف داء
وإذا مادعاك شخص سخى   فأجبه ، وكله ، فهو شفاء

ويقول فى « القناعة » :

اقتنـــع مادمت تحيـــا   بغـــــداء وعشـــــاء
ثم لاتـــرج غنيـــاً   فى غـــدو وعشـــــاء
فجماع العـــز للإنســـ   ـان فى قطـــع الرجاء
عن جميـــع النـــاس فى   الشدة أو وقت الرخاء

ويقول فى « غدر الزمان » (١)

أتـأمن إلمـام المنيــة بغتة ... وأمن الغنى جهل وقد خبر الدهرا
وليس يحابى الدهر فى دورانه ... أراذل أهليه ولا السادة الزهرا
وكيف وقد مات النبى وصحبه ... وأزواجه طرا وفاطمة الزهرا

ويقول أيضاً :

قد نال صفوة دهرنا شريره ... حتى تزايد تيهـــه وغروره
واختص خـيرته بفقر مدقع ... حتى استذل وزال عنه سروره

هذه الأشعار مما رواه يوسف البلوى عن شيخه السلفى ، وضمنه صفحات من كتابيه « ألف باء » و « التكميل » وهذا الأخير مفقود ولا سبيل إلى العثور عليه .

ولقد أسهم السلفى فى مواكب « الرسائل الشعرية » التى كانت إحدى ظواهر الأدب فى عصره ، فكتب مرة من الإسكندرية إلى صديقه السرقوسى الصقلى ، وكانت له حلقة للإقراء بجامع مصر ، وبعد كلام منثور قال هذه الأبيات .

ماوقعت عينى عـــلى مثـــله ... فى فضله الوافى وفى نبـــله
وليس بدعا مثل أخـــلاقه ... منه ومـــن كان فى شكله
فـــإنه من عنصـــر طيب ... ويرجـع الفرع إلى أصـــله

فرد عليه السرقوسى نثرا وشعرا من نفس الوزن والقافية وهكذا أخـــذا يتبادلان الرسائل بالشعر ، ولكن مما لاشك فيـــه أن مانظمه السلفى من شعر لا يرتفع إلى المستوى الفنى المعروف عند كبار معاصريه من الشعراء ، وإذا كان المقرى فى « نفح الطيب » يتردد فى نسبة الأبيات الآتية إلى السلفى أو أبى محمد عبد الله بن البياسى بالإسكندرية ، فإننا نبادر بالقول قطعا إنها ليست للسلفى .

---

(١) التاريخ الكبير : ابن عساكر + البداية والنهاية : ابن الأثير .

فليس مما رأينا وسمعنا له شعرا بمثل هذة القوة الشعرية .

يمد الدهر من أجلى وعمرى كما أنى أمد من المداد

لنا خطان مختلفان جدا كما اختلف الموالى والمعادى

فأكتب بالسواد على بياض ويكتب بالبياض على السواد

هذا وقد كان السلفى يقبل الشعراء الذين يمدحونه وهم كثيرون ، ومنهم الشاعرة السكندرية (تقية) التى قالت فيه شعرا عندما تعثرت قدمه فى بيته فسقط جريحا ، وشقت خمارها لتضمد جراحه ، وسبق أن أوردنا هذا الشعر فى المناسبة التى ذكرنا فيها (تقية) وهى التى قال فيها : « وكان لها شعر جيد لم أر قط شاعرة سواها » كما أن شعراء الأسكندرية الفطاحل قد خصوا السلفى بالكثير من أمداحهم ، وعلى رأسهم ابن قلاقس وظافر الحداد ، وأبو العباس الأبى قاضى الإسكندرية ، وقد رحل إلى اليمن أما الشاعر السكندرى ابن مكنسة المتوفى قبل أن يدركه السلفى بالأسكندرية ، فقد كان شعره على لسان الرواة يلتى أعظم التقدير عند السلفى .

ومما يلاحظ أن حظ السلفى من (نقد الشعر) كان أوفر منه فى (نظم الشعر) عنده ، يبدو ذلك لنا جليا من ثنايا « معجم السفر » وتعليقاته ، كلما ورد اسم شاعر أو أبيات شعر ، مما يدل على طول باع منه فى هذا المجال ، من هذه التعليقات مثلا قوله عن ظافر الحداد « وكان من مفلقى شعراء ديار مصر ، وقد كتب لى من شعره غير قصيدة بخطه ، وكتبت عنه أيضا بخطى بمصر ، وقبل ذلك بالإسكندرية مقطوعات وقصائد ، وكاتبته وأجاب عنه بشعر هو عندى لايحسن ذكره هنا وتوفى سنة ٥٢٨ فى ذى الحجة ، على ما كتبه إلى ابن موهوب من مصر ، وكان قد استوطنها ، وقد قال لى الفقيه أبو الطاهر بن عوف : ظافر الحداد ماعرفنا له قط حرمة كمثل الشعراء ، وأنشدنى ظافر لنفسه بمصر ،

وليلة جـاد بها العمر ونام عن خلساتهـا الدهر
والورد فوق الماء ماببننا قـد نـثرت أوراقـه الحمر
لم تر عيني مثله منظرا ماء تلظى فـوقه الجمـر

ومن تعليقاته « فلان كان عمل الشعر عنده أسهل من شرب الماء ، ويعد من المجيدين فيه » و « فلان قال قصيدة من ١١ ألف بيت من قافية واحـدة » . . وفلان « كثير الحفظ لشعر المتقدمين ومن صحبهم من المتأخرين » ولقـد تأثر السلفى أيما تأثر بالنقاد القدامى ، ولم ينس قول حفص الذهبي له « ظاهر مطبوع قليل التصنع وشعره من شعر الكتاب كابن الزيات وأقرانه ، وشعر أبي عبد الله كشعر أبي تمام ونظرائه » .

وكان للشعر نصيب عند السلفى فيما يحدث به ويجـيز للحاضرين والغائبين، كقصيدة للشاعر أبي بكر محمد الحراوى المصرى تسمى « القصيـدة الدامغة » ، وكذلك قصيدة في السنة والرد على أهل البدع والأهواء لصاحبها أبي جعفر بن الفيض بن الأسود الضبي الأصبهانى ، كان السلفى يحدث بها عن الأكفانى بدمشق عن على بن الحسن المالكى عن أحمد بن عبد الرحيم الأصبهانى ، وحـدث أيضا بديوان شعر أبي الطاهر إسماعيل بن خلف النحوى .

وكان السلفى يطرب كل الطرب لسماع ماقاله المشتهى السروجى :

قالت : لقـد أشمت بي حسدى إذ بحت بالسر لهم معلنـا
قلت : أنا ؟ . . قالت : نعم أنت هو قلت : أنا ؟ قالت : فمن هو أنا
قلت لهـا : أنت التى صـيرت جفونها جسمى حلف الضنى
قالت : فلم طرفك فهـو الذى جنى على جسمك ماقد جنى
قلت : فقـد كان الذى كان من طرفي ، فكونى أنت من أحسنا

قالت : وما الإحسان ؟ قلت : اللقا　　قالت : لقائى عز أن يمكنا
قلت : فنيـــــى بتقبيـــــلة　　قالت : أمنيك بطـــول العنا

وكان يطرب عنـــدما ينشده الشاعر السكنـــدرى ابن قيصر من شعره هذه الأبيات :

أتضرم فى كبـــدى نارها　　محـــال ، وتجعلهـــا دارها
فتقتلـــنى ، وهى مقتـولة　　وتطلب من نفسها ثارهـــا

وأنشده أبو الحسن النوطى بالإسكندرية لابن مكنسة شاعر الإسكندرية :

إن كنت تزعم أن بينك فى غد　　حق فمن لك أن أعيش إلى غد
فاهجر وصد فإن عندى ذلة　　وتجـــلدن الحب ما لم يعهد
وزعمت أنى لست من أهل الهوى　　صبا ، فقـل ماتشتهى وتقلد
أرأيت صبرى عنك غير مشرد　　أرأيت طرفى عنك غير مسهد
والله ما أبصرت يوما أبيضا　　منذ ابتليت بلحظ جفن أسود
قل ياعزولى إن قلبى فى الهوى　　عما ينص ذوو النهى قلب صدى
ما باله يجفو وقد زعم الورى　　أن الندى يختص بالوجه الندى
لايغررنـــك وجنـــة محمرة　　رقت فللياقوت طبع الجلمـــد

وفى الحق أن صدر الحافظ كان رحبا لتلقى أشعار القدامى والمحـــدثين ، ولاسيما شعراء الإسكندرية الذين انفرد السلفى برواية كثير مما نظموه وأهمـــله التاريخ ، وفاء من السلفى السكندرى لكـــل شاعر سكندرى يستحق التكريم والإشادة ، فكان « معجم السفر » بحق خير وعاء حافـــظ ، تركه لنا السلفى الحافظ عن « تراث الإسكندرية » فى الشعر العربى نظما ونقدا ، دراية ورواية .

السلفى .. المؤرخ المحقق

بين المؤرخين والمحدثين ـ فى التراث الإسلامى .. قرابة منهجية متينة ، لأنهم جميعاً (أخباريون) ، فالمحدث ـ وهو يتناول الحديث ليفحصه ، ويقرر ما إذا كان صحيحاً أو غير صحيح ، مرفوعاً أو موضوعا ، حسنا أو ضعيفا ، إنما ينظر إليه على أنه (خبر) ، ويضع الرواة تحت مجهره ، ويتتبع سيرهم وأخبارهم وأنسابهم ، وهذا هو عمل المؤرخ أيضا فى تحقيق الوقائع ، التى يؤرخ لها ، على اعتبار أن الواقعة (خبر) من الأخبار .

ولا شك أن (علم الحديث) كان أسبق من (علم التاريخ) فى « سجل مواليد العلوم الإسلامية » ، وبالتالى ظهر علماء الحديث قبل علماء التاريخ ، وسار هؤلاء على نهج سابقيهم ، فى الاهتمام بالأسانيد والرجال ، حتى لكأنهم فى عداد المسندين من عدة أوجه ، إن لم يكونوا فعلا يجمعون بين (الحديث) و (التاريخ) فى آن واحد ، ومع ذلك لم يكن كل مؤرخ قابلا لأن يكون محدثا ، ومن هنا كان التأليف فى التاريخ قائما على أساس (الرواية) ، وهو صميم عمل المحدث ، ونلحظ ذلك جليا فى أهم تاريخ عرفه المسلمون ، منذ كان الإسلام ، ونعنى به (السيرة النبوية) لابن هشام عن ابن إسحق ، فهى قصة حياة رسول الله مفصلة عن أصدق رواتها الموثوق بهم من أصحابه الأقربين .

ولقد احتلت سيرة ابن هشام من حياة السلفى العلمية ، مكانة عالية ، فكتبها بخط يده ، وحدث وأجاز بها ، وكذلك أمهات الكتب عن الصحابة عليهم رضوان الله ، مثل « الكامل فى معرفة الرجال » الذى أجاز به السلفى عن ابن مردويه بأصبهان ، وحدث به ابن المشرف الأنماطى بالإسكندرية سنة ٥١٢ عن أبى الحسن بن بابشاذ الجوهرى النحوى بمصر سنة ٤٦٢ عن الماكينى الهروى بمصر سنة ٤١١ عن

مؤلفه أبى أحمد بن عدى الجرجانى بجرجان سنة ٣٦٤ هـ ، وكذلك « معجم الصحابة » لعبد الباقى بن قانع القاضى ، حدث وأجاز به السلفى كل من حضره واستجازه سماعا عن الحاجب بن العلاف ببغداد ، وأيضا « معجم الصحابة » لأبى القاسم البغوى ، حدث به السلفى عن شيخه أبى عبد الله الرازى بن الحطاب .

ونحن بدورنا لا نستبعد أن السلفى كان يتحدث بكتاب « الاستيعاب فى أسماء الأصحاب » لابن عبد البر القرطبى (- ٤٦٢ هـ) ، وكان السلفى قد اعتزم الرحيل إلى الإسكندرية ومنها إلى المغرب للأخذ بها عن أصحاب ابن عبد البر .

وأخيراً وليس آخرا ، حدث السلفى بكتاب « تاريخ القاضى أبى عبد الله محمد ابن سلامة بن جعفر بن محمد بن على القضاعى » كتب به إليه الرازى .

وإذا كان السلفى قد استوعب كل هذه المؤلفات العريقة فى دروسه ومجالسه وأماليه وإجازاته ومناولاته ، وكلها تتدرج من السيرة النبوية إلى سير الصحابة والأئمة والقضاة ، فإن هناك كتابا آخر ذا أهمية خاصة يتصل بتاريخ الصحابة من جهة ، وفتح مصر والإسكندرية والمغرب من جهة أخرى وهو كتاب « فتوح مصر والمغرب» أو « فتوح مصر وأخبارها » لابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧هـ ، ولولا السلفى لكانت معلوماتنا عن فتح مصر والإسكندرية مهزوزة ، لاسند لها من درايه أو رواية ، بل مجهولة تماما . لماذا ؟ .

يبدأ الكتاب هكذا : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أخبر الشيخ الصالح الأديب أمين الدين أبو القاسم سيد الأهـــل ، هبة الله بن على بن مسعود بن ثابت بن هاشم بن غالب الأنصارى الخزرجى المعروف بالبوصيرى ، قراءة عليه ، قال : أخبر الشيخ أبو صادق مرشد بن يحيى بن القاسم بن على بن محمد بن خلف المدينى بقراءة الحافظ أبى طاهر أحمد بن محمد السلفى الأصبهانى ، وأنا شاهد أسمع بمصر

فى سنة ٥١٥ ﻫ قال : أخبرنا أبو الحسن على بن منير بن أحمد الخلال فى كتابه سنة ٤٣٥ قال : أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن الفرج القماح قال: أخبرنا أبو القاسم على بن الحسن بن خلف بن قديد الأزدى قال : حدثنا أبو القاسم عبد الرحمن ابن عبد الله بن عبد الحكم القرشى المصرى قال : حدثنا محمد بن إسماعيل الكعبى قال: حدثنى أبى عن حرملة بن عمران التجيبى عن أبى قبيل عن عبد الله بن عمرو بن العاصى قال . . . » .

بهذه الأسانيد ، وبالرجوع إلى هؤلاء المسندين الثقات ، تحدث السلفى بهذا التاريخ وعنه نقل غيره ، بعلو الإسناد إلى محدث مصر ومفتيها وفاتح مصر وابن فاتحها صاحب أول مدونة مكتوبة عن رسول الله مباشرة وهى (الصادقة) بخط صاحبها وهو : عبد الله بن عمرو بن العاص ، وراوى الحديث عن النبى فى مصر والإسكندرية ، عن شيخه يزيد بن أبى حبيب ، فلو اعتبرنا كل ماجاء فى هذا الكتاب (أخبارا) لا (أحاديث) وكان هؤلاء الثقات رواتها ، بأسانيد السلفى لكان ذلك كافيا لصحة محتوياته، ولا سيما أن فيهم الليث بن سعد الذى كان فى الإسكندرية كعبد الله بن عمرو من قبله وجاءها الحافظ السلفى من بعده بقرون ، وكلاهما أصبهانى الأصل .

ولقد جرى العرف على اعتبار كتاب ابن عبد الحكم هذا من المؤلفات (التاريخية) ، بسبب هذه الأسانيد المتينة ، ومع ذلك فإنه لا يعدو أن يكون مجموعة غير مبوبة من الحكايات والنوادر والأحاديث والأشعار والأساطير مما يدخل فى (فن القصص) لا (فن التاريخ) ، ولقد كان (القاص) أو (القصاص) يشغل ـ منذ فجر الإسلام ـ وظيفة رسمية، ويصحب الجيش فى الغزوات والفتوح ويخطب الناس فى المساجد والمجالس والدكاكين، يعظهم وينصحهم ويحرضهم على

الجهاد ، جامعا ـ فيما يقول ـ بين الآية والحـــديث والنادرة والشعر والتاريخ والغزوات ليجذب انتباه الناس إليه ، وفى هذا وحده ما يكفى لتوسيع مداركهم الثقافية ، بهذا الفن الأصيل من فنون الفكر الإسلامى ، وقد عرفت مصر والإسكندرية مع الفتح الإسلامى هذا اللون ورجاله .

وفى هذه المقدمة التى ذكرناها وكما اطلعنا عليها فى مخطوطة أخرى ورد ذكر السلفى هكذا بعد البسملة مباشرة (أخبرنا الشيخ الفقيه الإمام العالم الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد ... السلفى الأصبهانى ...) ، ومعنى هذا أن كتاب ابن عبد الحكم متوج بتصريح أو ترخيص من السلفى الذى هذا شأنه ، وأخبر به سنة ٥١٥ بمنزله بالإسكندرية أو بالفسطاط لأن مدرسته لم تنشـــأ إلا سنة ٥٤٤ ، وفى الأغلب أنه بدأ بقراءته فى الفسطاط .

ومهما يكن فى الكتاب من غرائب وعجائب ، فإن الحقائق والوقائع التاريخية لا مطعن فيها ، بصرف النظر عما عداها من قصص وأساطير وأخبار عن مصر والإسكندرية قبل الإسلام ، أما وقد أخبر بها السلفى وأجاز التعامل بها ، وكتبها بخطه ، فهذا هو (التصريح بالنشر والإذاعة) فى الآفاق .

وما كان يجوز للسلفى أن يتوانى عن هذا العمل الجليل ، بل إنه كان سباقا إليه ، فقد استطاب الإسكندرية واستقر بها ، وانصرف عن رحلته منها إلى المغرب ، لما لقيه من أهل الإسكندرية أهـــل الكرم المشجع والاستماع إليه والإقبال على مجالسه، كما أن للإسكندرية والفسطاط حظا كبيرا من الفتح الإسلامى تناوله ابن عبد الحكم ، الذى يرجع فى الأصل إلى أسرة سكندرية ، وهو شافعى والسلفى مثله ، وأصحاب المذهب بعضهم لبعض أصحـــاب ، ويثق بعضهم فى بعض ، حتى لقد دأب الأحياء من أسرة عبد الحكم الشافعية على الوصاية بأن يدفنوا بعد موتهم إلى جوار الإمام الشافعى بمصر الفسطاط ، وقد كان .

ولعل السلفى قد حرص - وهو يخبر بكتاب ابن عبد الحـــكم أهل مصر والإسكندرية - على إحياء (فن القصص) لأنه يخص أجادهم ، فكان هو الرائد الأول لتدريس تاريخ مصر على أمتن الأسس وأوثق الأصول ، ليرد الجميـل إلى الذين أكرموا وفادته وعاش بينهم وتزوج منهم ، فاستقر حاله ، وطال عمره ، حتى استغنى بهم عن الأهل والصحب والبلد ، فقدم لهم هـــذه الهدية التى تلفت الأنظار لـكى ينصرفوا عن الخلافات المذهبية فى الدين ، وفى أناة وتؤدة راح يعلمهم ، ويرفع مستواهم العلمى والخلقى ، متوغلا بهم إلى صميم الدين وهو « الجهاد » ، ورفعهم إلى مواصلة الفتوحات ، من غير أن يؤخذ عليه شىء ، من تحريض على فساد الحاكم ، ورب تلميح أبلغ من تصريح ، وما كان السلفى لينسى أعقاب الثورة الفكرية التى قام بها علماء الإسكندرية على الحاكم الظالم ، وعلى أهل البدع من العامة،وما لقيه الثوار من عنت وتذبيح وتشريد.كما جرى للطرطوشى وابن عوف ، وقد أدركهما السلفى والتقى بهما .

وإذا صح ما قاله المؤلفون بأن السلفى قد وضع كتابا عنوانه « الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة » . فمعنى ذلك أن السلفى قد انخرط فعلا فى عداد المؤرخين ، وهو بهذا جدير ، لما عرف عنه من « علو الإسناد » وهو القاسم المشترك بين الإخباريين ، من محدثين ومؤرخين وقصاصين .

وكان للسلفى أيضا « حكايات تاريخية» انفرد بها ، ونقلها عنه المؤرخـــون من خطه ، من ذلك - كما يقول « ابن خلكان » : « إن الحاكم كان جالسا فى مجلسه العام وهو حافل بأعيان الدولة ، فقرأ بعض الحاضرين: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما) وأشار القارىء إلى الحاكم ، فلما فرغ قرأ آخر - وهو ابن المشجر الرجل الصالح - : (يأيها الناس ، ضرب مثل فاستمعوا له : إن الذين تدعون من دون

الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له) فلما انتهى من تلاوته تغير وجـه الحاكم وأمر بمائة دينار لابن المشجر ، فحذره أصحابه من استحالات الحاكم (تقلبات أخواله) ، ونصحوه بالتغيب عنه ، حتى لايغـدر به ، فركب البحر إلى الحج فغرق ، فرآه صاحبه فى المنام ، وسأله عن حاله ، فقـال : ماقصر الربان معنا ، أرسى بنا على باب الجنة »(١) .

ولانعلم أن أحدا روى هذه النادرة عن الحاكم بأمر الله الفاطمى غير السلفى، كما أن ابن خلكان تناول ماقاله السلفى عن صلاح الدين الأيوبى ومقتل الضرغام ابن سوار سنة ٥٥٩ ، وأورد أقوالا أخرى فى هذا تخالف ماقاله السلفى ، وكان تعليق ابن خلكان المؤرخ المحقق المـدقق ، إحقاقا للحق ، الذى فى جانب السلفى حيث قال :

« والحافظ السلفى أخبر بذلك ، لأنه كان مقيما بالبلاد أول وصولهم ، وهـو أضبط لهذه الأمور من غيره ، لأن هذا فنه ، وهو من أقعد الناس به » .

شهادة أخرى للسلفى من الذهبى المؤرخ ، وهو من أهل القرن الثامن الهجرى فى كتابه « ميزان الاعتدال فى نقد الرجال » أى رجال الحـديث ، حيث قال إن السلفى سمع من سليمان بن عبد الله الشروانى إن على بن أحمد بن على الواعظ بن القصاص الشروانى مؤلف (أخبار الحلاج) « كذاب أشر » ، ولـكن السلفى لم يأخذ هذا القول حجة مسلمة ، بل ذهب بنفسه ليتأكد ويستوثق ، ثم رجـع إلى صاحبه وقال له : « أكثر مافيه من الأسانيد من كتاب لا أصل له » .

بهذا الضبط والإتقان ، كان السلفى قدوة المحققين ، مـا يذكرنا بالإمام

---

(١) وفيات الأعيان : ابن خلكان .

البخارى ، عندما رحل ليلتقى رجلا سمع أنه يروى حديثا عن رسول الله ، فلما اقترب منه وجده يخدع دابته ليمسك بها ، فرجع يقول : « والله لا آخذ حديثا عن رجل يكذب على البهائم » .

السلفى ... ومعاجم البلدان

لعل من أبرز ما اتسم به السلفى المؤرخ المحقق ، ومسند الدنيا الذى سبق غيره ، ولم يلحق به لاحق ، أنه كان رائدا لعلم تقويم البلدان ، ولقد اطلع على مؤلفات كثيرة عن أصبهان لعلماء أصبهان والإسكندرية ممن اشتهروا بالكتابة عن البلدان ، وضبط أماكنها وذكر أصقاعها ، وكان ذلك قبل أن يغادر بلده فى رحلته المكانية والزمانية عبر الأقطار والأعصار والتى من خلالها تعرف على مدن وأقطار وبحار وأنهار ، فعرف المسالك والممالك ، فيما بين المحيط والخليج من الهند شرقا إلى الأندلس غربا ، فى مدى قرن من الزمان .

ولا نكاد نقرأ ترجمة لشخصية من الشخصيات التى أوردها فى « معجم السفر » أو « المشيخة البغدادية » ، حتى نراه يذكر البلد الذى ينتسب إليه المترجم له ، فيضبط الاسم ضبطا محكما ويحدد تبعيته ، ويفرق بينه وبين مايسمى باسمه من البلدان الأخرى ، مثل (باجة) الأندلس ، و (باجة) القمح بإفريقية ، حتى لايقع القارىء فى لبس ، ويضع البلدين فى مملكة واحدة لا فى مملكتين .

ولقد سبق أن ذكرنا أهم البلدان التى رحل إليها السلفى فى « التحرك الثقافى » الذى قام به ، وأشهر الرجال الذين لقيهم بها ، وهى كما رأينا تزيد على سبعين بلدا ، غير أن هذا العدد لايعدو أن يكون كالقطرة الواحدة فى بحر من النجوم التى لاحصر لها . وقد ذكرها السلفى بصدد تراجمه العديدة ، ولولا الملل والإطالة لذكرنا هنا جميع هذه البلاد ، ولكن يكفى أن نقول إنها تعتبر المادة الأساسية

التى صاغ منها ياقوت الحموى موسوعته « معجم البلدان » ومن معظم الرجال المنسوبين إليها ، وضع « معجم الأدباء » ، بالترتيب الأبجدى فى كل منها .

وفيما يلى بعض أمثلة فقط لهذه البلدان التى ذكرها السلفى وعلق عليها : الرز من مضافات همدان ، مرند من مدن أذربيجان ، جنزة تحت واسط بسبعة فراسخ ، آمل بطبرستان ، بيسان من أعمال طبرية بالغور ، شاقة مدينة بصقلية ، لبنة من ضياع المهدية بالمغرب ، قنا من أعمال سنجار ، بيران قرية من نظر دانية ، الحصين على نهر الخابور ، قرقيسيا بالشام وقيل إنها أول مدن الخابور ، القصر من خوزستان ، نابل بين تونس وسوسة ، ركان من نظر بلنسية بالأندلس ، بروج بالهند ، قبذاق من مضافات قرطبة ، إبيار بجزيرة بنى نصر بين مصر والإسكندرية ، رشيد من مضافات الإسكندرية ، هذا إلى عدة مدن وقرى وأماكن مشهورة ومجهولة فى البلاد المصرية ذكرها السلفى .

ومما هو جدير بالذكر أن ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ فى مقدمة كتابه « معجم البلدان » قد ذكر كتب السابقين عليه فى فن البلدان « ولم يذكر السلفى من بينهم ، مع أنه اعتمد عليه اعتمادا كليا ، وإن كانت لاتخلو صفحة من « البلدان » و « الأدباء » الياقوتية من ذكر اسمه ومعجمه وروايته صراحة لا كناية ، وكان جديرا بياقوت أن ينوه به فيمن نوه ، كما فعل عندما ذكر مختصر الحافظ أبى موسى محمد الاصبهانى لكتاب أبى الفتح نصر بن عبد الرحمن الإسكندرى النحوى وعنوانه « فيما اختلف وائتلف من أسماء البقاع » .

ولما اطلع ياقوت على مختصر هذا المؤلف السكندى علق عليه بقوله : « فوجدته تأليف رجل ضابط قد أنفذ فى تحصيله عمرا ، وأحسن فيه عينا وأثرا ، ووجدت الحازمى رحمه الله قد اختلسه وادعاه ، واستجهل الرواة فرواه . .

فأما أنا فكل ما نقلته من كتاب (نصر) قد نسبته إليــه ، وأحلته عليه ، ولم أضع نصبه ، ولا أخملت ذكره وتعبه ، والله يثيبه ويرحمه » .

ومهما يكن من شيء فإن ياقوت قد تأثر بالسلفى أيما تأثر ، ونقل عنه ، واعتمد عليه ، حتى ليقول فى بعض المواضـــع « ذكره السمعانى والسلفى فى شيوخها » ويقول : « قال أبو طاهر بن سلفة » ويقول« قال السلفى أنشدنى فلان » .

ومع أن السلفى قد ولد ونشأ فى (جروا آن) من أعمال (أصبهان) فقد كان جديرا بياقوت أن يشير إلى نسبة السلفى إليها ، ولـكنه لم يفعل ، والمشهور عنه أنه إذا نسب أحدا إلى بلده أتبع ذلك بالإقليم ، كقوله فلان (الأبهرى الأصبهانى) المنسوب إلى (أبهر) التابعة لأصبهان ، ولكنه لم يذكر لنا عن السلفى (الجروانى الأصبهانى) ولم ينسبه إلى أى منهما .

وعلى ذلك يكون للإسكندرية فضلها فى (علم البلدان) على ياقوت باثنين من فرسان هذا العلم هما : نصر الإسكندرانى ، والسلفى الإسكندرانى ، ومن ذخائرهما استفاد وأفاد ، فذاع صيته ، بينما أهمل التاريخ فضلهما ، وعلى الرغم من هذا النكران المتعمد ، فإن السلفى ظل أشهر علماء الزمان ، وهو الذى تلقى على سابقيه فى أصبهان ، ما قد وضعوه فى أسماء المدن والأقاليم والأصقاع ، ثم الإسكندرية ، ومن كتاباته وأماليه ومجالسه بها ، تلقى من جاء بعده ، بشهادة المنصفين واعتراف الأوفياء .

أما وقد كثر عدد الآخذين عن السلفى من أهل الأندلس حضوراً أو إجازة أو مناولة فى القرنين الخامس والسادس ، كما يتجلى ذلك بكل صراحة فى مؤلفات ابن بشكوال وابن الأبار وابن خير ، وغيرهم ممن كتبوا أو كتب لهم السلفى كتبه ومذكراته بخطه ، فإن المعاجم الجغرافية والتاريخية قد توالت وزادت

وتوسعت أيما توسع ، وكان السلفى هو الرائد الأول للجميع ، من ذلك كتاب « صفة جزيرة الأندلس » المنتخب من كتاب « الروض المعطار فى خبر الأقطار » للحميرى الذى جمعه سنة ٨٦٦ » وأشار فى مقدمته إلى اطلاعه على « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » للإدريسى المتوفى سنة ٥٦٠ ، ولم يذكر السلفى الذى اخترق الأمصار واشتهر بالأسفار .

أما السلفى فقد غمطوا حقه ، وآن الأوان لكى ينصفه التاريخ ، ويضعه فى صدر طلائع المؤلفين فى علم البلدان .

السلفى .. فقيها ومفتياً ومفسرا ولغويا

إلى جانب الشهرة التى بلغ السلفى قمتها فى علم الحديث ، كان من رجال الفقه ، تعلمه وعلمه طوال حياته على المذهب الشافعى ، تفقه ببغداد على أعلامها فى شبابه ومنهم الكيا الهراسى الطبرى ، وفخر الإسلام أبى بكر الشاشى ، ويوسف بن على الزنجانى ، نعم كان الفقه عند السلفى فى الدرجة الثانية بالقياس إلى علم الحديث ، ولعل ذلك راجع إلى ما سمعه من شيوخه فى المفاضلة بين علوم (الحديث) و (الفقه) و (الكلام) حيث قالوا : « الحديث عز فى عز ، والفقه خبز فى خبز ، والكلام رز فى رز » .

المهم أن السلفى كان « يدرس الفقه على المذهب الشافعى » كما يقول ابن الآبار والإمام الشافعى كما رأينا هو واضع « علم الفقه » ، وصاحب « الأم » ، وكانت له السمعة الواسعة فى مختلف الأقطار ، أما فى مصر فكانت سمعته أوسع ، ونفوذه أعمق ، ولعل الشاب السلفى النابغة فى الحديث قد تأثر بفلسفة الحديث ، ذلك العلم الذى كان له المقام الأول عند السلفى .

وكان أبو الحسن المقدسى عالم الإسكندرية وقاضيها وفقيهها الذى خلف

السلفى فى القيام بمقامه فى المدرسة السلفية بنشر مذهبه ، وتتلمذ عليه سنين طويلة وهو الذى قال فيه « الحافظ مفتى المسلمين » ، والإفتاء لا يكون إلا من فقيه متمكن من قواعد استنباط الأحكام الشرعية من مصادرها ، وقد رأينا من قبل كيف تطور الأخذ بها عبر القرون الستة الأولى من التاريخ الإسلامى ، وقد استوعب السلفى علم الفقه أيما استيعاب ، وعايش المؤلفين فيه قديما ، وعاصر المحدثين منهم فى البلاد التى التقى بها ، وأخيرا كان من الطبيعى ألا يعيش الفقيه فى قوقعة ، بل يقتضى الأمر — وهو الذى شهدوا له بالفتوى — أن ينزل إلى الميدان الاجتماعى ليقترن علمه بعمله ، فيكون معلما للناس ، وإلا ففيم أنشئت له « المدرسة العادلية » التى غلب عليها اسم « السلفية » بهدف محدد هو نشر الفقه على المذهب الشافعى ، للقضاء على المذهب الشيعى ، والشيعة .

لقد كانوا يقصدون السلفى فينهلون من علمه الواسع ، فهو يقول مثلا عن المهذب بن القطاع القروى « وكان يحضر عندى فى المدرسة لتلقى الدروس الفقهية وكتب الأمالى الحديثية وهو من أذكى الناس إلا فى الفقه » ومات سنة ٥٦٠ هـ شهيدا .

قال عبد القادر الرهاوى عن شيخه السلفى « كان آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر » ، ولقد كان السلفى بالإسكندرية أشهر أقطاب الفكر الإسلامى فى القرن السادس ، وظل عاكفا على الدرس مواظبا على التدريس فى منزله ومسجده ومدرسته ، طوال مدة إقامته بالإسكندرية التى زادت على الستين عاما بسنوات .

كان السلفى « شيخ السلفية » وعميدها وأستاذ الأساتذة الكبار بها ، خصص لها إماما ليؤم المصلين ، وعين بها المعيدين ، على أحدث نظام جامعى عرفه التاريخ ، وجعل على كل أربعين صبيا من التلاميذ معيداً يتدرج معهم فى برامج التعليم الدينى ، على نظام (المعاهد الدينية) المعروفة الآن التابعة للأزهر الشريف ، وكان لهؤلاء المعيدين دروس عليا يتلقونها ممن هم أفقه وأعلم ، وهؤلاء بدورهم

متفرغون للأخذ عن الشيخ الحافظ السلفى ، هم والوافدون عليه من المدن والقرى المصرية ، والأقطار الإسلامية بقصد التلقى عنه والإقامته المؤقتة أو الدائمـة، أو العابرين إلى الحج من المغرب، أو التجار ذاهبين آيبين، أو الإجازاتية ، الساعين فى طلب الإجازات من الشرق والغرب .

وينعقد المجلس لدراسة الحديث صباحا ومساء كل يوم ، وتكتمل الحلقة ، ويقرأ السلفى ، ويتدارس مع الحاضرين ، ويملى ويفسر ويشرح وينتقـل من فن إلى فن : من لغة إلى تفسير إلى حديث إلى تاريخ إلى نقد إلى أدب إلى فقه وهكذا ، وهو مشرق الوجه ، رحب الصدر ، باسط الكف ، حسن القدوة .

كما كان السلفى يعقد درساخاصاً بعد فراغه من الدروس العامة لكبار رجال الدولة الراغبين فى الأخذ عليه ، فهذا القاضى ابن الزبير الغسانى الأسوانى ناظر الدواوين السلطانية بالإسكندرية المتوفى سنة ٥٦٣ مقتولا كان يفضل حضور مجالس الحديث السلفية على ممارسة مهام الحكم ،ويقول للسلفى « قد هان على ما أنا فيـه من التشاغل بالمكوس، فى مقابلة ما آخذه عنك من الحديث بعد فراغك من الدروس » . وكان له مؤلفات كثيرة جيدة شعراً ونثراً ، ذلك إذن هو مايشبه « الدراسات العليا » فى الجامعات الكبرى من العالم عرفتها « المدرسة السلفية » التى تعتبر بحق « جامعة الإسكندرية الإسلامية » الأولى من نوعها .

وإذا انفض المجلس ليلا أو نهاراً ، عكف على كتابة « الأمالى » بخطه ، أو الاطلاع على ما يجلبه له السماسرة والوراقون من الكتب الصحيحة النادرة بعد فحصها والتعليق عليها ، وكانت « الأمالى الحديثية » - أى دروس الحديث - ذات المقام الأول فى حياة مسند الدهر ، ومجدد السنة ، ولقد أوتى من قوة الذاكرة والحفظ ، ماجعله يتذكر مذكراته التى أودعها سلماس وغيرها من البلاد قبل رحيله إلى الشام ، ويأتى ببعض محتوياتها ، على الرغم من بعد الزمان ، وطول

الغيبة ، عن تلك المجالس والأمالى ، وعلى ذلك يعتبر السلفى عمدة فى الفقه الشافعى طبقت شهرته الآفاق ، فى عصر الصراع المذهبى ، الذى ســـاد القرن السادس الهجرى ، وعليه وعلى أبى الطاهر بن عوف اعتمد صلاح الدين الأيوبى فى ضرب التشيع ضربة قاضية ، أعادت للسنة مكانتها التى عليها جمهور الأمة .

أما الإفتاء فكان للسلفى فيه دور هام ، وكان ذلك بمناسبة أن اليهود فى زمن صلاح الدين قد رفعوا إليه أن العادة عندهم قد جرت بأن يتحاكموا فيما بينهم إلى كبيرهم الحاخام ، وأن مواريثهم حسب شريعتهم بلا تدخل من أحد فى شئونهم ، فإذا كان أحد الورثة غائبا أو صغيرا كان الحاخام مسئولا عن ميراثه .

ولما بلغ صلاح الدين هذا الطلب بعث إلى أئمة المالكية والشافعية لإبداء الرأى فى هذه القضيه ، ومنهم أبو طاهر بن عوف ، وأبو طاهر السلفى بالإسكندرية أما السلفى فأفتى بما يأتى :

[الحكم بين أهل الذمة إلى حاكمهم إذا كان مرضياً باتفاق منهم كلهم ، وليس لحاكم المسلمين النظر فى ذلك إلا إذا أتاه الفريقان ، وهو إذن مخير كما فى التنزيل « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم » . وأما حال الغائب والطفل فهو مردود إلى حاكمهم ، وليس لحاكم المسلمين فيه نظر إلا بعد جرحه . ببينة عليه ، وجناية ظاهرة . وبالله التوفيق] .

وقد شاع أمر هذه الفتوى وذاع ، وعلم السبكى الكبير والد السبكى صاحب طبقات الشافعية ، فاعترض على فتوى السلفى فى أدب جم قائلا :

« وأما السلفى فهو محدث جليل ، وحافظ كبير وماله وللفتوى ، وما رأيت له قط فتوى غير هذه ، وما كان ينبغى له أن يكتب (أى يكتب فتوى كهذه) ، فإن لكل عمل رجالا ، وقوله : يتخير الحاكم فى الحكم بينهم هو أحد قولى الشافعى ،

ولعله لما كان (أى السلفى) مقيما بالإسكندرية وليس فيها إذ ذاك إلا مذهب مالك، ونظره فى الفقه قليل أو مفقود، أعتقد أن الراجح عند الشافعى التخيير كالمالكية، والصحيح عند الشافعية وجوب الحكم لقوله تعالى: «وأن احكم بينهم بما أنزل الله» وقوله - أى قول السلفى - فى مال الغائب والطفل لعله تقليد وحسن ظن بمن قاله من المالكية منهم.» وأورد السبكى الكبير هذا وغيره فى كتاب سماه «كشف الغمة فى ميراث أهل الذمة» وخصها السبكى الصغير بفصل فى الجزء الرابع من طبقات الشافعية الكبرى.

ومهما يكن من شىء فإن السلفى قد خاض مجال الإفتاء بعقل مفتوح، وقلب مفتوح، وهو الإمام المجتهد، القادر على استنباط الحكم كفقيه ثقة، فلا عجب إذا أسماه أبو الحسن المقدسى «مفتى المسلمين» الذى يفخر بأنه حين يفتى إنما يفتى على المذهب الشافعى حيث يقول:

إمامى الشافعى وحين أفتى بمذهبه المهذب طاب عيشى

أما تفسير القرآن، فكان للسلفى أيضا فيه مكان مرموق، فقد قرأ على شيخيه أبى عبد الله الرازى (ابن الخطاب) وأبى الحسن على بن المشرف أبى السلم الأنماطى كتابا فى التفسير هو «نزهة القلوب فى تفسير غريب القرآن» لأبى بكر السجستانى. وبهذا الكتاب كان السلفى يحدث تلاميذه ومستجيزيه من كل الأقطار ومنهم ابن خير الإشبيلى.

وأصحاب طبقات المفسرين لم ينسوا للسلفى فضله، راويا ومرويا عنه، حتى إذا اطلعنا على «طبقات المفسرين» للداودى - وهو من أهل القرن العاشر - نجد عددا من المفسرين روى عنهم السلفى، أو رووا عنه.

ومن أحق بالتفسير من السلفى مسند الدنيا، الذى حفظ القرآن، وعرف

أسراره وغرائبه ـ وأحاط خبرا بألفاظه ومعانيه وبلاغاته وإعجازاته ، وألم بقراءاته ، وأسباب نزول آياته ، وما يتصل بها من الأحاديث التوضيحية لما أجمله من أحكام ، لقد كان السلفي نموذجا حيا للعالم المتفنن فى (علوم القرآن) ، فلا عجب إذا كان أمينا على (تفسير القرآن) ، فأخذ عنه الكثيرون ، وظل ذكره لامعا على مر العصور ، فى(طبقات المفسرين) ، واستحق أن نطلق عليه « شافعى زمانه » .

وكذلك كان شأنه فى (علوم اللغة) ، لم يمنعه أصله الفارسى من أن يكون عالما بالعربية وأنحائها ، عارفا بتاريخ كل نحو ومصدره ورجاله حتى إن عجمته لم تمنعه من قول الشعر كما رأينا ، ولم يكن كأولئك الفرس الذين نزحوا من بلادهم إلى الإسكندرية ، واستغلق عليهم النطق بالعربية والإفصاح عما يريدونه ، بل بالعكس كان السلفى بليغا فصيحا ، سليم النطق ، سهل العبارة ، لا يتكلف فى الكتابة إذا كتب ، فلا نرى أثراً لجملة مسجوعة ، أو مبتذلة ، مع الأناقة والرقة فى تراكيب عباراته فهو يقول مثلا : فلان (ستير) الحال ، على وزن فعيل بمعنى مفعول أى مستور ، وكان يمزح مع الشيخ الأنبارى ويقول له « أنت مكبر معبر بجبر » فيضحك ويبتسم ، ويحب الدعابة البريئة ، ولا يرضى بالمزاح المنهى عنه ، وقال فى ذلك شعراً كما رأينا .

ولا شك أن رحلات السلفى فى طلب العلم قد صقلت لسانه على مر السنين ، وتقلب الشيوخ ، وعكف على دراسة اللغة من نحو وصرف وبيان ، وتكونت عنده القدرة على نقد النحاة اللغويين ، فكان مثلا يقول (فلان لم يكن فى زمانه ألغى منه) أى أعلم منه فى اللغة .

ولقد قرأ السلفى أمهات كتب اللغة على أيدى أشهر المشايخ مثل ابن هلال

اللغوى بمصر ، قرأ عليه للثعالبى « أجناس التجنيس » و « اليتيمة » و « المبهج » وبها حدث غيره وأجاز ، وقبل ذلك وبعد ذلك تأثر السلفى بأسلوب الشافعى .

وتألق اسم السلفى كثيراً فى « بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة » للسيوطى ، نقلا عن « معجم السفر » ، وممن عرفهم عن قرب فى هذا الميدان :

١ — أبو محمد عبد الله بن حسن بن عشير العبدرى اليابسى النحوى ، كان مصدرا فى جامع الإسكندرية لإقراء القرآن والنحو ، وله شعر كثير وأخذ النحو عن ابن الطراف .

٢ — أبو القاسم بن فيرة الشاطبى المحدث النحوى اللغوى الأديب الشاعر الشافعى سمع من السلفى بمصر ومات بها سنة ٥٩٠ ، ذكره ابن شهبة الأسدى فى « طبقات النحاة واللغويين » .

٣ — أبو الحسن على بن الجبار بن سلامة بن عيذون الهذلى اللغوى ، كان إماما فى اللغة ، حافظا لها ، حتى إنه: «لو قيل لم يكن فى زمانه ألغى منه لما استبعد» ، أخذ عن ابن القطاع ، ومات بالإسكندرية سنة ٥١٩ عن ٩٦ سنة .

٤ — على بن الرماح النحوى المقرىء من أعيان النحاة ، وأكابر القراء ، سمع من السلفى . ولد بالقاهرة ، وبها توفى سنة ٦٣٣ .

٥ — عمر بن عيسى السوسى النحوى ، قرأ عليه أكثر أهل الإسكندرية فى النحو ، « ومات بالإسكندرية قبل دخولى إليها بقليل » كما يقول السلفى .

٦ — أبو الحرم مكى بن محمد النحوى . توفى بالإسكندرية سنة ٥٠١ .

٧ — هبة الله بن الصفار كان إماما فى النحو ، وقرأ السلفى عليه القرآن .

٨ — نصر بن عبد الرحمن الفزارى السكندرى النحوى ، له كتاب فى أسماء البلدان والأماكن والجبال والمياه ، قدم بغداد بعد سنة ٥٦٠ ودخل أصبهان ومات بها سنة ٥١١ .

٩ — إبراهيم اليحصبي الأندوشري ، نقل السلفي من خطه ، وقال إنه كان من أهل الأدب والنحو ، أقام بمكة وقدم الإسكندرية سنة ٥٤٨ وقرأ النحو على أبي الركب النحوي المشهور .

ومعنى ذلك باختصار أن الإسكندرية كانت في عصر السلفي وعلى يديه مركزا هاما من مراكز النحو واللغة . أما هو فقد اختلط بهذه البيئة العربية العريقة في عروبتها ، منذ نزلتها القبائل العربية مع الفتح الإسلامي ، واستبدت في أعراق أهلها عروبة الناتحين من الصحابة والتابعين وتابع التابعين والأئمة المجتهدين من لدن عبد الله بن عمرو ، وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج صاحب أبي هريرة ، وواضع أصول العربية ، والليث بن سعد ، ومحمد بن إدريس الشافعي . ثم يأتي السلفي لإحياء النحو وإقامة ما اعوج منه ، وتجديد ما اندرس من معالمه ، ويتلقى عليه الكثيرون ، ثم يوجد بها من بعده أبو عمرو الرويني شيخ المالكية المعروف بابن الحاجب صاحب الكافية والوافية وشارح النحو ، وقد دفن بالإسكندرية سنة ٦٤٦ ثم تاج الدين الفاكهي (عمر بن عمر بن سالم بن صدقة اللخمي) السكندري المتوفى بالإسكندرية سنة ٧٣١ الذي مهر في العربية والفنون ، وسمع من البدر بن جماعة وابن دقيق العيد ، وله شرح في النحو ، وذكره ابن فرحون والذهبي .

ومن المقرر أن السلفي لم يكن في عداد الصوفية أصحاب الأحوال ، وإن كان الطابع الصوفي قد غلب على سلوكه لا على ثقافته ، فقد آثر مسالك الزهد الإيجابي ، والاعتدال في عاداته وعباداته ومعاملاته .

خلاصة القول أن السلفي كان موسوعة ضخمة في العلوم الإسلامية ، نبغ فيها ، دارسا ومدرسا ، وراعى مقتضى الحال في كل ما أخذ وأعطى ، بمعنى أنه أحاط بعلوم العصر ، فكان كالنحلة ترشف من الأزهار ما طاب لها ، فتحيله رحيقا

لذة للشاربين ، فيه شفاء للناس .

لقد ضجت الأسماع بما دار حولها من الخلافات السياسية ، وعلوم الأوائل من فلسفة ومنطق ، ومهاترات سفسطائية بين المتكلمين من معتزلة وأشاعرة وجهمية ومعطلة وزنادقة ، وتيارات جارفة من شيعة ورافضة ، ولكن السلفى أصم أذنيه عن كل هذا ، ليسلم برسالته من هذا الطوفان ، وآثر العفو من الله والعافية من الناس ، ومضى فى الطريق السليم بمنجاة من الخصوم والخصومات ، فكان امتدادا للأعلام الكبار من « أهل السنة والجماعة » ، وشعارهم « خير الأمور الوسط » و « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق » ومن هذا المنطلق كان منهاج السلفى فى النفوذ إلى الأجيال المتعاقبة فى العالم الإسلامى ، بما جعل له وللإسكندرية من خلود الآثار العلمية ، مالم يظفر به بلد من البلدان ، أو عالم من العلماء .

(٦)

تلاميذ السلفي في المشرق والمغرب

« تفرد في الدنيا بالإمامة في علم الحديث وعلو الدرجة في الإسناد ، وأخذ عنه أهل الأرض جيلا بعد جيل ، وسمع الناس على أصحابه ، وهو لم يبعد عهده بشبابه »

— أبو الربيع بن سالم —

المدرسة السلفية

ليس أبقى للإنسان على الزمان من أثر يخلد ذكراه من كتاب متداول ، أو تلميذ يسير على النهج ، ولقد رأينا ماتركه السلفى من مؤلفات ومذكرات ، غير أن الذين أخذوا عنه بالسماع أو الإجازة أو المناولة فى مختلف الأعصار والأمصار ، لايمكن أن نحصرهم ، وحبذا لو اضطلع بهذا الشرف أحـــد المتخصصين فى علم الرجال ، ليضع لنا معجما خاصا بكل من أخذوا عن هذا العالم الفذ ، كما فعل ابن الأبار بوضعه « معجم أصحاب شيخه ابن سكرة الصدفى » .

ومع ذلك ، فإنه لايمكن أن يكون كتابنا عن السلفى أشهر علماء الزمان كاملا إلا إذا ذكرنا تلاميذه فى الشرق والغرب ، ولو على سبيل الإيجاز ، مع التنويه بصلاتهم الفكرية بالسلفى ، وما اشتهروا به من ثقافات ، وما احتلوه فى بلادهم من مكانة أو منصب ، ولقد تطلب منا هذا جهدا فوق الطاقة ، من حيث الجمع من شتى المصادر ، وترتيبها حسب الوفيات ، لما فى ذلك من أهمية بالغة ، بالنسبة للذين يتتبعون العلاقات المتينة بين الأمصار الإسلامية باسم الثقافة ، وقـــد كان السلفى بحق خير من جمع هذه الروابط ، فجعل الأمة الإسلاميـــة — عن طريق طلاب العلم فيها — جسما واحدا ، وثقت وأكدت وحدتها ، باسم الإسلام ، على الرغم من بعد المسافة بين الممالك ، ووعورة الطرق والمسالك .

وإنه ليحق للإسكندرية أن تفخر بعد ذلك ، بأن السلفى الأصبهانى الأصل ، الإسكندرانى الدار والوفاة ، قد أضفى على هذه المدينة من الأهمية طوال العصر الذى عاشه فيها ومابعده ، فكانت ملتقى المسلمين من أنحاء المعمورة ، يقصدونها عابرين إلى الحج من بلاد الأندلس والمغرب ، وفى الوقت نفسه للتشرف بالسماع على السلفى وأصحابه ، يوم كانت المدرسة السلفية أشبه بخلية النحل صباحا ومساء ،

ولا ندرى كم كان تعداد هذه المدينة فى عصره ، إذا كان عدد هـؤلاء الطلاب والعلماء بهذه الكثرة التى تدعو إلى الدهشة حقا .

وفيما يلى سجل الآخذين على يديه حضورا أو إجازة عقب وصوله إلى الإسكندرية إلى أن توفاه الله بها .

هؤلاء هم تلاميذه ..

ـــ محمد بن محمد الباهلى الترقوبى أو ابن قرقوب : من المرية ، رحل وحج وسمع من السلفى « تقييد المهمل وتمييز المشكل » وحدث به عنه ، ونسخ بخطه الردىء كتاب « الاستيعاب » لابن عبد البر ، وتوفى بالمشرق سنة ٥١٢ .

ـــ عبد الله بن موسى ابن اشكورنه الأزدى المرسى ابن برطلة ، حج سنة ٥١٠ وسمع من السلفى وعاد إلى بلاده مرسيه وتولى الصلاة بجامعها .

ـــ جامع بن باقى التميمى الأندلسى ، سكن دمشق ، ودخل الإسكندرية وسمع من السلفى .

ـــ عبد الله بن يوسف القضاعى : من المرية . سمع من السلفى سنة ٥١٣ وحدث .

ـــ أبو محمد عبد السلام بن الطوير القيسرانى المعدل ، حضر السلفى بمصر والإسكندرية وتوفى سنة ٥١٤ ، وكان أبوه من فقهاء الإسكندرية .

ـــ أبو على كتائب بن على الفارقى الشافعى التاجر السكندرى المسن ، لقى السلفى وتوفى بالإسكندرية سنة ٥١٦ ومولده بميافارقين ، صحب ابن سعدون الموصلى بمصر وسافر فى تجارته إلى اليمن صحبة أبى الفرج القرميسينى .

ـــ أبو حفص عمر بن عبد العزيز الطرابلسى الأديب اللغوى ،قدم مصر من بلده وسمع السلفى، وعلق السلفى عنه ، ومات ببغداد سنة ٥١٧ .

ـــ أبو الحسين أحمد بن نعمة بن طايب الكناني العسقلاني سكن الإسكندرية وارتحل للتجارة إلى اليمن والهند ، وسمع الحديث من السلفي بالإسكندرية وتوفي بعيذاب سنة ٥١٨ .

ـــ أبو الحرم مكي على بن الحسن اللخمي ، سمع الحـــديث من السلفي برغبة تامة بالإسكندرية ، وتوفي بها سنة ٥١٩ ودفن بمقـبرة الديماس (كوم الدكة) وهو من طرابلس الغرب واستوطن الإسكندرية .

ـــ عثمان السرقوسي الصقلي النحوي إمام في اللغة والنحو والعروض، ولازم السلفي وتقارضنا الشعر .

ـــ أبو الحسن على بن عبد الجبار بن الهذلي التونسي الإمام الحافظ اللغوى الشاعر المبدع ، تبادل الشعر مع السلفي وأخذ عنه، ولد بتونس وتوفي بالإسكندرية سنة ٥١٩ عن ٩١ سنة ، وكان أديبا لغويا وله قصيدة من أحـد عشر ألف بيت على قافية واحدة رد بها على المرتد البغدادي واشتملت على فوائد أدبية ، وذكره الصفدي في الوافي وياقوت في معجم الأدباء .

ـــ أبو الفرج ميران القرمسيني التاجر حضر بكثرة على السلفي بالإسكندرية وجاب الآفاق . وتوفي بالإسكندرية سنة ٥٢٠ عن ٧٥ سنة ودفن بمقـبرة وعلة بالباب الأخضر (السكة الجديدة) وصلى عليه السلفي .

ـــ أبو الهيثم شبل بن المقلد العسقلاني الواعظ قدم على السلفي بالإسكندرية سنة ٥٢١ وأخذ عنه وأنشده شعرا لابن أبي الشحناء .

ـــ هبة الله بن معد بن عبد الكريم القرشي ابن البوري، انتقل من دمياط بلده إلى الإسكندرية وحدث بها عن السلفي .

ـــ يوسف بن عبد العزيز الميورقي (ميورقة : جزيرة قرب الأندلس) الشافعي تفقه بالكيا الهراسي ببغداد وسكن الإسكندرية وسمع السلفي وتوفي سنة ٥٢٣ هـ .

ـــ أبو الحسين عبد الوهاب ابن المفرض مقـــدم شهود الإسكندرية كان مواظبا على المواعيد الجمية للسلفى ، وتوفى سنة ٥٢٤ وقد جاوز التسعين .

ـــ أبو الحسن على بن عطية الطيبى المصرى قرأ الموطأ على السلفى وتوفى سنة ٥٢٥ .

ـــ زهر بن عبد الملك ابن زهر الأيادى الأشبيلى المحدث الطبيب المـؤلف الأديب حدث عنه السلفى وتوفى سنة ٥٢٥ بقرطبة ودفن ببلده اشبيليه .

ـــ أبو المعالى محمود بن ناصر الكاتب المكينى الشاعر الـــكاتب الفيلسوف المهنـــدس المنطيق الحيسوب . كتب إلى السلفى بالإسكندرية وكتب له وتوفى سنة ٥٢٥ .

ـــ أبو القاسم عبد الرحمن الصقلى ، قرأ الحديث على السلفى على الرغم من كبر سنه ، وكان متشيعا ، وتوفى سنة ٥٢٦ .

ـــ أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عبد الملك الصدفى الزنجانى الإشبيلى رئيس الشورى بإشبيليه كانت بينه وبين أبى بكر بن العربى منافرة فذهب إلى مراكش فمات بها سنة ٥٢٩ ودفن ببلده ، تحدث عنه السلفى بالإسكندرية .

ـــ أبو الحسن على بن سند بن عباس الغسانى المحدث الخطـاط ، لقى السلفى بالإسكندرية وسمع الحديث بمكة والقـــدس وطرابلس الغرب ، نسخ للسلفى « بداية النهاية » للغزالى وأهداه منه نسخة وتوفى سنة ٥٣٠ .

ـــ أبو الحسن على بن أبى الأشيم ، أمه من بنى حـــديد قضاة الإسكندرية ، الشاعر والأديب ، كان يحضر عند السلفى فى كل وقت ، وعلق عنه النوادر والملح الأدبية وعلق عنه السلفى كذلك ، وكتب كثيرا عن متأخرى أهل الإسكندرية من فوائد وأشعار وكان مالكى المذهب ، توفى سنة ٥٣٠ .

ــ أبو زكريا يحي الدروقي المقرى، قدم الإسكندرية سنة ٥٢٩ وسمــــع الحديث في المواعيد الجمعية من السلفي بها ، وكان يعظ بها بعد فراغ المجلس ، وكان يؤم ويقرىء في جامــــع فاس ،توفى بقفط (من صعيـــد مصر) فيطريقه إلى مكة سنة ٥٣٠ .

ــ أبو المعالي مكي ابن الخطيب القطان بيته مشهور بالعـــلم في الإسكندرية وكان على كبر سنه حسن الثياب ولد سنة ٤٣٥ وكان يسمع الحــــديث من السلفي ويعلق عنه الفوائد .

ــ حسن بن إبراهيم بن تقي الجـذامي المالقي . رحل وسمــــع من السلفي المجالس السلماسية سنة ٥١٥ .

ــ يعيش بن المفرج اليابرى ، سمع ـ ببلده يابر ـ جامع الترمذى وحج وسمع السلفي وتوفى بعد سنة ٥٣٠ هـ .

ــ أبو محمد عبد الله الشلبي (من شلب بالأندلس) قدم الإسكندرية حاجا ، سنة ٥٢٧ وحضر السلفي وسمــــع منه ورحـل إلى مكة والعراق وخراسان وتوفى بها .

ــ أبو محمد عبد الله بن سلامة الانصارى المنارى (منــــار : ثغر من ثغور سرقسطة بالأندلس) ، حج ثم حضر على السلفي بالإسكندرية سنة ٥٣٠ .

ــ أبو مــــوسى عيسى اللخمي الفقيه المالكي ابن مقطع زمانه ، سمـــع السلفي سنة ٥٣١ .

ــ أبو الحسن ابن المعلم الصقلي اللغوى النحــــوى الطبيب الخطاط مفسر الاحلام ، أبوه صقلي وجده أصبهاني استوطن مصر ، سمع السلفي بالإسكندرية وكان يأنس به وتوفى سنة ٥٣٢ .

ـــ أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن يحيى العثمانى الديباجى، من ذرية عثمان ابن عفان، محدث الإسكندرية بعد السلفى فى المرتبة توفى فى حياة شيخه السلفى سنة ٥٣٢ ﻫ .

ـــ أبو القاسم بن جارة العالم الجليل الذى كان لا يهاب الحكام بل كانوا يهابونه ولا يخشى فى الحق لومة لائم، ذهب إلى والى الإسكندرية قراجا ووبخه لأنه أفتى أحدا من الناس وكان على حق، ولكنه خشى أن يستسيغ الفتوى كل من ليس من أهلها وتوفى سنة ٥٣٣ ﻫ .

ـــ ابن العريف، من البيوتات السكندرية العريقة : سمع السلفى وتوفى بالإسكندرية سنة ٥٣٧ ودفن بمقبرة الديماس.

ـــ بكرام بن القصار ، سمع السلفى وكان لا ينقطع عن مواعيده الجمعية بالإسكندرية وبعد الانتهاء منها كان يقرأ ويحضر مجالس الحديث . توفى بالإسكندرية سنة ٥٣٨ ودفن بالديماس .

ـــ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن موسى ابن وضاح القيسى المرسى فقيه حافظ، رحل ولقى السلفى وكتب عنه المجالس السلماسية من إملائه ، وحمل معه إلى المغرب كثيرا من الفوائد وتوفى بالمرية سنة ٥٣٩ أو سنة ٥٤٠ .

ـــ جبور بن خلف المعافرى ، رحل إلى الشرق وسمع السلفى سنة ٥٣٩ م بالإسكندرية وذكره التجيبى فى « مشيخة السلفى » فى أعيان السامعين من السلفى .

ـــ أبو العباس أحمد الزرهونى (زرهون جبل بالقرب من فاس) ، فقيه كأبيه وجده ، دخل الإسكندرية فى الحج وسمع من السلفى أحاديث كثيرة وكتب عنه سنة ٥٣٣ « الناسخ والمنسوخ » لأبى جعفر النحاس و « غريب القرآن » لابن عزيز، و « مسند الموطأ » للجوهرى ، و « شرح غريب الموطأ » للأخفش .

— أبو الحسن الكندى المطرز ، لازم السلفى حتى آخر يوم فى حياته، ومدحه بشعره ، وتوفى بالإسكندرية سنة ٥٣٩ .

— أبو عبد الله محمد ابن وضاح المرسى ، رحل فى طلب العلم من المشارقة وحج وسمع السلفى بالإسكندرية سنة ٥٤٠ وقد ولد باليمن .

— أبو بكر يحيى بن خلف بن النفيس الحميرى ابن الخلوف ، كتب إليه السلفى من الإسكندرية مع أهل بيته ، وتوفى سنة ٥٤١ .

— سند بن عنان بن إبراهيم بن حريز بن الحسين بن خلف الأزدى السكندرى المتوفى بها سنة ٥٤١ وكان تلميذ الطرطوشى وجلس بعده للتدريس بمدرسته على المذهب المالكى ، روى عن السلفى كثيرا ، وله «الطراز» شرح فيه «المدونة» للإمام مالك فى نحو ٣٠ سفرا ، وتوفى قبل أن يتمه ، ودفن بالقرب من الطرطوشى والسلفى . وشهرته عند أهل الإسكندرية « القاضى سند » .

— أبو الحسن رضوان الكردى المالكى ، حضر كثيرا على السلفى لسماع الحديث منه بالإسكندرية وعلق عن السلفى ، كان إمام مسجد من مساجد مقبرة وعلة بالإسكندرية ومات ودفن بها سنة ٥٤٣ .

— أبو عبد الله سعيد الخولانى الإسكندرانى الكتبى ، أبوه أندلسى ، سمع من السلفى وجلد له ونسخ بعض الكتب - استوطن الإسكندرية ومات بها .

— أبو محمد بن جابر العكى المالقى ، قدم الإسكندرية هو وأخوه للسماع عن السلفى بالإسكندرية وكثر حضورهما عنده .

— أبو محمد عبد الله بن محمد بن الحاج ، سمع السلفى بالإسكندرية فى الطريق إلى الحج .

— أبو محمد عبد الله الصقلى الشاعر ، قرأ على السلفى بالمدرسة السلفية .

— أبو القاسم عبد الرحمن السفاقسى البصير الفقيه حضر على السلفى بالإسكندرية .

وكان إماما فى المدرسة المكينية ، وتوفى بمصر .

ــ أبو القاسم عبد الرحمن الصابونى المهدوى (من المهدية) أكثر من السماع على السلفى وحمل معه كتبا كثيرة إلى المغرب من مصر .

ــ القاضى عياض بن موسى اليحصبى المحدث الحافظ ولد بفــاس ودخل الأندلس ، وكتب إليه السلفى من الإسكندرية ، قال عنه ابن الأبار فى «المعجم» :

«كان لايدرك شأوه ولا يبلغ مداه فى العناية بصناعة الحديث وتقييد الآثار، وخدمة العلم مع حسن التفنن فيه والتصرف الكامل فى فهم معــانيه إلى اضطلاعه بالآداب ، وتحققه بالنظم والنثر ، ومهارته فى الفقه،ومشاركته فى اللغة والعربية، وانتفع الناس بمؤلفاته ، تولى القضاء بفاس وغرناطه وسبتة وتوفى بمراكش سنة ٥٤٤ عن ٦٨ سنة» .

ــ أبو بكر أحمد بن مجاهد بن جعفر العثمانى المقرىء ولد بدانية وسكن غرناطة وقدم الإسكندرية حاجا سنة ٥٣٠ وأجازه السلفى كما أجاز أخاه .

ــ ست النعم تقية بنت غيث بن على الأرمنازى الصورية (من صور) ،أنشدت السلفى من شعرها بالإسكندرية ، وكان يعجب بشعرها .

ــ أبو بكر أحمد بن حصن الخزرجى البلنسى الكاتب الشهير ببلنسية ، حج سنة ٥٣٩ وسمع بالإسكندرية من السلفى وكتب بخطه الحسن بعض الأجزاء ،كثير الدعابة ورع حسن الخلق .

ــ محمد بن عبد الله بن هشام الحجرى الإشبيلى، رحل وحج وسمع من السلفى وأخذ عنه برنامجه .

ــ عبد الله بن أحمد بن عمروس بن لب بن قاسم الشلبى ، الحافظ الفقيه اللغوى المحــدث المشاور فى الأحكام ، كتب إليه السلفى ، وتوفى بسنة ٥٤٦

ــ محمد بن الحسن المقرى بن غلام الفرس ، حج سنة ٥٢٧ وسمع من السلفى

وتصدر للإقراء وإسماع الحديث وتعليم العربية، الأديب الخطاط ، كان مرحولا السماع منه لعلو روايته وعدالته ، آخر المقرئين المحدثين بشرق الأندلس ، انتهت إليه الرياسة فى القراءات والحديث وحفظ أسماء الرجال . مات ببلده دانية سنة ٥٤٧ عن ٧٥ سنة .

— محمد بن خلف بن صاعد الغسانى اللبلى من شلب ، عالم بالقراءات ، حج ورحل فى طلب العلم وسمع السلفى وعاد وعنى بالفقه ومشاورة الاحكام وتولى القضاء وحدث ، وتوفى سنة ٥٤٧ .

— عبد الوهاب بن إسماعيل بن توهيب الشاعر الوراق ، مدح السلفى كثيرا وتوفى سنة ٥٤٧ وقد جاوز التسعين ، قال بمناسبة إنشاء المدرسة السلفية :

لله در العـــادل المرتجى ذى العز والتـــأييد والنصر
بنى لنـــا مدرسة .. مثلها لم يبن فى دهر ولا عصر
بغداد دار العـــلم لم تفتخر بمثلهـــا قط على . مصر
وما تولاها ســـوى الحافظ المعصوم مرـــ عى ومن حصر
خير فقيه فى الورى عالم تبصره كالحسن البصـــرى

— طارق بن موسى بن يعيش المخزومى البلنسى المنصفى (من قرية منصف) رحل وحج قبل سنة ٥٢٠ وسمـــع السلفى وحدث وتوفى سنة ٥٤٩ وجاوز السبعين عاما .

— أبو العباس أحمد بن على بن عمار النابلى (نابل بين تونس وسوسه التى اشتهرت بكثرة رواة الحديث بها) حج وقدم الإسكندرية وبها سمع من السلفى وكتب عنه كثيراً من الأحاديث .

— أبو على الحسين بن حميد الجوى الشاعر ، كانت له حلقة فى جامع عمرو ، وسمع الحديث من السلفى .

ـ أبو العباس أحمد العريشي الفقيه الشاعر، سكن رشيد، وسمع الحديث من السلفي ومدحه .

ـ أبو حفص عمر البلوى المتكلم الشاعر الناقد الأديب الطبيب، سمع الحديث من السلفي سنة ٥١١ ، ثم رحل إلى مصر وأقام بها وتوفى سنة ٥٥٠ ، ومولده بسفاقس ، كان مولعا بالرد على الغزالي .

ـ أبو الحكم عبد الله بن المظفر الباهلي الأندلسي المقرىء الأديب الشاعر الحكيم الطبيب الرياضي دخل دمشق وحج وقرأ بصعيد مصر والإسكندرية من السلفي وأقام ببغداد وتوفى بدمشق سنة ٥٤٩ عن ٦٣ سنة وله مؤلفات .

ـ أبو المعالي رافع بن زيدون القيسي، لازم السلفي عند بناء المدرسة السلفية حتى توفاه الله سنة ٥٥١ ، وكان معيدا بها يعيد الدروس على أربعين صبيا ، وسمع من السلفي وكتب أماليه .

ـ أبو الوليد محمد بن عبد الله بن خيرة الفقيه الحافظ الأديب الرحالة القرطبي، رحل وحج سنة ٥٤٢ ، كتب عن السلفي عندما مر بالإسكندرية وحضر عليه ، وأراد اليمن فتوفاه الله بزبيد (بجنوب اليمن) سنة ٥٥١ وقد ناهز الستين عاما .

ـ أبو موسى عيسى الحضرمي السبتي، له معرفة بعلوم الأوائل أي الفلاسفة وكان شاعرا مفلقا ، كتب للسلفي شعرا فرد عليه شعرا .

ـ أبو عتيق القيرواني العطار ، سكن الإسكندرية بعد أن كان يسكن القرى، وكان متصوفا ، وحضر على السلفي .

ـ أبو بكر عتيق الأزدى الأوريولي الأندلسي المالكي قدم الإسكندرية من المغرب وسمع السلفي سنة ٥٢٠ وحج وجاور بمكة وعاد إلى مصر ثم الأندلس،

ـ أبو محمد عبد الله التاهرتي ، سمع الحديث من السلفي سنة ٥٢٧ بعد عودته من الحج ، ورجع إلى المغرب وتوفى سنة ٥٥٣

— أبو المعالى عبد الله الحلوانى المروزى ، سمع بنيسابور وقدم على السلفى ببغداد حاجا بصحبة السمعانى سنة ٤٩٧ وسمع بقراءة السلفى وغـــيره ببغداد والكوفة ومكة ورجع إلى خراسان مع صاحبه .

— أبو محمد عبد الله الزناتى الفقيه ، حضر عـــلى السلفى فى دروسه الفقهية بمدرسته وكان يعيد دروسه ، وقرأ بالمغرب على مذهب مالك ، وتوفى بالريف .

— أبو محمد عبد الله العذرى أقام طويلا بالمدرسة السلفية منـــذ نزل بها ، وكان أديبا نحويا ، علق عن السلفى دروس الحديث والفقه .

— أبو جعفر أحمد بن محمد بن كوثر المحاربى الغرناطى ، قدم الإسكندرية فرارا مما حل ببلده غرناطة من خراب ودمار وفتن ، أذهبت أمواله ، وكان نحويا ، حج وكتب عن السلفى وتوفى بمصر سنة ٥٥٥ .

— محمد بن عبد الله بن حباسة الأزدى الشريشى ، حج وسمـــع من السلفى وعاد وحدث بالأربعين السلفية ، ومات شهيدا :

— أبو الرضا عبد الله بن الفضل بن دليل الحضرمى المالكى ، ناب فى الحكم بالإسكندرية وكان يلازم السلفى ويراجعه فى المسائل والأحاديث .

— أبو محمد عبـــد الله بن ماوك التنـوخى الفليشى (فليش : قرية بشرق الأندلس) المحدث ، سمع من السلفى رسالة أبى زيد فى فقه مالك بعـــد الحج ، و « الشهاب » للقضاعى .

— أبو محمد عبد الرزاق السبتى المسيرى ، حج وسمع من السلفى بالإسكندرية .

— ابن مسافر التاجونسى المناغى القمودى سمع من السلفى وكان من رجال اللغة والعروض ، وأصله من رشيد ، حنفى المذهب ، ولد سنة ٤٦٠ تخمينا لا يقينا ، وتاجونس قصر على البحر بين برقة وطرابلس .

— أبو على منصور بن مسلم بن عبدون الزرهونى ابن أبى فـــوناس الفاسى

دخل الأندلس وسمع من ابن سكرة الصدفى سنة ٥١١ ، حـــدث عن السلفى وتوفى ببلده فاس سنة ٥٥٦ .

ــ أبو إسحق إبراهيم السامى ابن صدقة الغرناطى وصاحب الاحـــكام بغرناطة والمحدث الرحالة ، حج وسمع من السلفى بالإسكندرية سنة ٥١٥ وسمع بمكة سنة ٥٠٦ ، وعاد وجلس للحديث .

ــ أبو عبد الله محمد بن محمد ابن يعيش اللخمى البلنسى ، رحـــل حاجا سنة ٥٠٦ ومكث فى المشرق نحو عشرين سنة ودخل مصر بعد الحج مرتين وسمع من السلفى وتـــوفى بشاطبة سنة ٥٥٦ عن ٧٤ سنة وكان إماما فى الفرائض (المواريث) .

ــ خلف بن محمد بن فتحون بن أوريولة ، كتب إليه السلفى من الإسكندرية وقد تولى القضاء ، وتوفى سنة ٥٥٧ .

ــ أبو محمد عبد القوى البرقى الواعظ سمع من السلفى ووعـــظ كثيرا فى مواعيده الجمعية .

ــ أبو محمد عبد المولى بن عقبة اللخمى المتكلم المالكى اللبنى (لبنة من ضياع المهدية بالمغرب) دخل المشرق وسكن مصر وشهـــد بها وناب فى القضايا والاحكام ، وسمع الحديث بالرى وغـــيرها ، وأجازه السلفى بالمراسلة من الإسكندرية .

ــ أبو محمد عبد الجليل الحيفى ، كان من الاشاعرة ، وسمع الحـــديث من السلفى بمدينة صور ، وسكن تنيس (قرب دمياط) وصحب بها ابن البازكلى البصرى .

ــ أبو محمد عبد الحميد الاموى ابن بريطير البلغى ، حج وسمـــع من السلفى وصار خطيب تلمسان التى كان مولده بها سنة ٤٨٧ .

ـــ أبو البركات محمد بن حمزه الحرقى التنوخى ، ولد بمصر وتوفى بها سنة ٥٥٧ عن ٨٢ سنة ، وسمع من السلفى بالإسكندرية هو وأخوه أبو الحسن .

ـــ أبو عبد الله محمد المقرى الدانى قدم على السلفى بالإسكندرية وسمع منه .

ـــ أبو عبد الله محمد المصرى المكينى سمع الحديث من السلفى بالإسكندرية .

ـــ أبو البركات محمد بن موهوب القاضى الطرأق ، ولد بصور ولقى السلفى بمصر سنة ٥١٦ وسمع منه .

ـــ أبو البركات كتائب بن على السلمى الجابى الحنبلى ، دخل أصبهان وسمع بها ولقى السلفى هناك وكتب عنه ، ثم لقيه بدمشق ، وولد سنة ٤٤٤ .

ـــ أبو القاسم عبد الرحمن بن روزبة الخزاعى . ولد سنة ٤٦٠ ، سمع السلفى فى مجالس الحديث ، وأبوه محدث سمع منه السلفى قبلا ، وتوفى بمصر بعد أن ناهز المائة أى توفى سنة ٥٥٨ تقريبا .

ـــ أبو القاسم عبد الرحمن بن صدقة الكاتب المصرى المولد ، الإسكندرانى الموطن ، كان يحب الحديث وأهله ، ويحضر على السلفى فى كل وقت للسماع منه .

ـــ أبو الخطاب بن يعمر الشاعر (من المرية بالأندلس) . قدم مصر والإسكندرية وكتب عن السلفى ، وكتب له فوائد عظيمة .

ـــ شبيب بن أبرهة ابن حيدرة القفصى ، سمع من السلفى وحدث عنه وتوفى سنة ٥٥٨ عن ٤٨ سنة .

ـــ أبو حفص عمر بن سهل الغسانى الغرناطى ، حج وحضر دروس السلفى صباحا ومساء ، وعلق عنه السلفى فوائد أدبية ، ثم عاد إلى المغرب .

ـــ أبو الطاهر عبد المنعم بن موهوب القارىء المحدث المجتهد ، لازم السلفى بمصر وسمع منه كثيرا وتوفى سنة ٥٦٠ .

ــ أبو محمد عبد الحميد الجلالى البرقى التاجر دخل المغرب والحجاز ، ومات بالإسكندرية وكان يتردد كثيرا على السلفى ويسمع منه .

ــ أبو الحسن على بن أبى ذرة المخزومى الحجازى ، رحل من مكة إلى الإسكندرية وسمع بها الفقه من السلفى ، وكتب دروسه ورجع بها إلى الحجاز .

ــ أبو الحسن على بن سكر القارىء المصرى ، سمع بالإسكندرية من السلفى سنة ٥٢١ وكان طاعنا فى السن وكان يحفظ كثيرا من الحكايات والنوادر والفوائد .

ــ أبو الحسن على بن حرب البهرانى الحمصى ، (حمص الأندلس لا حمص الشام) سمع من السلفى بالاسكندرية وعلق فوائده ، ورحل إلى المشرق وكان من أكثر الحفاظ حفظا للأخبار والأشعار .

ــ أبو الحجاج يوسف القروى ، حضر على السلفى بمدرسته لسماع الفقه والحديث وشهد بالحلة ، وأعدم سنة ٥٦٠ ، وكان ابنه عبد الله شاعرا ، وكتب الأمالى الحديثية للسلفى ، وأعدم مع أبيه أيضا .

ــ أبو الحسن على القرشى كان راوية لشعر المغاربة المتأخرين ، مدح السلفى ومات بمصر سنة ٥٥٨ .

ــ أبو على الحسين بن كرام بن اسكندر الكاتب الشاعر الأديب المحدث سمع على السلفى وتوفى سنة ٥٥٨ ودفن فى مقبرة البحر بالإسكندرية .

ــ أبو البركات عبد الواحد القضاعى السوسى ، كان من أخص الناس بالسلفى سمع منه بالإسكندرية ، وكان أديبا حسن الخط .

ــ أبو الحسن على السروجى التاجر ، رآه السلفى ببغداد والاسكندرية ، وحضر على السلفى ، كما علق عنه السلفى فوائد ، كان من متكلمى الأشاعرة .

ــ أبو الحسن على بن فلاح الخراط البلنسى ، حج وحضر على السلفى لسماع الحديث .

— أبو الحسن على الأزدى ابن قيصر الأديب الفقيه الشاهد الشاعر ، حضر على السلفى وعلق هو عنه أشعارا له ولغيره .

— أبو عمرو عثمان المشكانى الصوفى (مشكان من مدن قهستان) تجول فى الشام والعراق والحجاز ومصر وسمع الحديث من السلفى بمصر .

— أبو عمرو عثمان السرقوسى النحوى الشاعر اللغوى المقرىء صاحب المؤلفات فى القراءات والنحو والعروض ، وكانت له حلقة فى جامع عمرو بمصر للاقراء ، حضر على السلفى وشيوخه بها .

— أبو حفص عمر بن بلج البلجى قدم من طرابلس على السلفى وسمع منه وكتب بالإسكندرية « الصحاح » للجوهرى فى اللغة ، وعاد إلى بلده ، وكان أديبا معنيا باللغة .

— أبو حفص عمر بن عتيق بن أبى الخمـــائر القلعى ، حضر على السلفى بالإسكندرية ورحل إلى المشرق ، وانقطعت أخباره ، وكان شاعراً وراوية للشعراء المغاربة الذين عاصرهم .

— القاضى أبو الحسين ابن الزبير الغسانى الأسوانى ناظر دواوين الإسكندرية كان يؤثر الحضور عند السلفى على أعماله الرسمية ويقول للسلفى « قد هان على ما أنا فيه من التشاغل بالمكوس فى مقابلة ما آخذه عنك من الحديث بعد فراغك من الدروس » ، له مؤلفات نثرا وشعرا . قتل ظلما سنة ٥٦٣ هـ .

— أبو بكر عبد الله بن موسى الأزدى ابن برطلة المرسى صاحب الصلاة بمسجد مرسية ، رحل وحج سنة ٥١٠ وسمع من السلفى بالإسكندرية ، وكان من أهل النباهة والنزاهة ، كما يقول ابن الأبار فى « المعجم » كان محدثا وأخذوا عنه . وتوفى سنه ٥٦٣ .

— محمد بن عبد الرزاق الكلبى الإشبيلى الرحالة فى طلب العلم ، لقى السلفى

وسمع منه ، وانفرد برواية الكامل لابن عدى ، وتوفى سنة ٥٦٣ عن ٨٤ سنة .

— أبو الفوارس ناجى بن يخلف الهوارى الطرابلسى المالكى ، سكن الإسكندرية وحضر على السلفى وأحب أهل العلم والسنة .

— أبو المكارم هدية بن عامر بن فتوح الحضرى المهندس، وحضر على السلفى وسمع السلفى منه الحديث وعلق حكاياته عن أبى بكر الحنيفى الرازى .

— أبو عبيد نعمة بن زياد الغفارى ، حج سنة ٤٩٩ فى السنة التى حج فيها السلفى ووالده ، ولقيه بالإسكندرية وسمع هو منه ، وابنه أيضا وتوفى سنة ٥٦٣ عن ٩٧ سنة .

— أبو الحسن الوليد بن الموفق الأزدى البسطى المالكى الأندلسى ، سمع من السلفى وعاد إلى بلده بسطه سنة ٥١٢ .

— أبو مروان الوليد الغافقى الدروقى سمع من السلفى بالإسكندرية .

— أبو الحسين يحيى بن عساكر الكاتب الشاعر خطيب جامع الإسكندرية ، حضر على السلفى بها ، وتوفى سنة ٥٦٣ .

— أبو بكر يحيى الثعلبى الغرناطى ، سمع بمصر وحضر على السلفى بالإسكندرية وعاد إلى الأندلس .

— أبو الحسن يبقى بن خلف الأسدى الرندى (رنده بين إشبيلية ومالقة) حج وتردد على السلفى كثيرا منذ نزل بالإسكندرية سنة ٥٣٠ .

— ابن ظفر الصقلى أو المكى ، وهو شمس الدين عبد الله محمد بن أبى محمد ابن محمد بن على القرشى الشهير بابن ظفر الصقلى ، حجة الدين النحوى ، كتب عنه ابن خلكان والسيوطى . نشأ بصقلية وسكن حماة بالشام وتوفى بها سنة ٥٦٥ عن ٦٨ سنة دخل المغرب وروى عن الطرطوشى والسلفى وكان مالكيا ومن

كتبه «أنباء أبناء النجباء» و «خير البشر فى خير البشر» مطبوعان بمصر، و «سلوان المطاع فى عدوان الاتباع» فى الزهد صنفه لبعض القواد بصقلية سنة ٥٥٤، ترجمه (أمارى) إلى الإيطالية، طبع فى فلورنسا سنة ١٨٥١ وترجم إلى الإنجليزية وطبع فى لندن سنة ١٨٥٢.

ـــ محمد بن يوسف بن سعادة المرسى، سكن شاطبة، رحل إلى المشرق وحج وأخذ عن السلفى وعاد، وكان فقيها متصوفا وخطيبا قاضيا ومحدثا، توفى سنة ٥٦٦ عن سبعين عاما.

ـــ عبد الرحمن بن أحمد ابن أبى ليلى الأنصارى المرسى، رحل حاجا سنة ٥٢٨ وسمع من السلفى وكان أديبا ومحدثا توفى سنة ٥٦٦ أو ٥٦٧.

ـــ عبد الله بن أحمد العبدرى ابن موجوال البلنسى من حفاظ اللغة، استوطن اشبيليه وتوفى بها سنة ٥٦٦ وروى كثيرا عن السلفى.

ـــ أبو عبد الله محمد بن ظنه السهمى الأندلسى، سمع من السلفى بالإسكندرية.

ـــ أبو بكر محمد بن يحيى الأنصارى الميورقى الأصم الأديب الشاعر ولد بميورقة وحضر للسماع من السلفى بالإسكندرية.

ـــ عبد الله طاهر بن حيدرة بن مفوز المنافرى الشاطبى القارىء القاضى الفقيه، كتب إليه السلفى من الإسكندرية وتوفى سنة ٥٦٧ عن ٥١ سنة.

ـــ أبو الغنائم محمود بن المفضل بن حيدرة الفربيانى (فربيان من قرى عسقلان) المطرى التاجر الحلبى الشافعى، كلما قدم فى تجارته إلى الإسكندرية حضر على السلفى لسماع الحديث.

ـــ أبو على منصور بن مستور الفرضى الأغماتى، لقى بالإسكندرية السلفى وأنشده شعرا.

ـــ أبو القاسم منصور البريدى الكاتب، دخل مصر والإسكندرية وسمع بها من السلفى.

— أبو القاسم مجبر المديني . دخل مصر سنة ٤٨١ وسمع من السلفي وأنس به وأنشده من شعره وأشعار الصقليين سنة ٥١٥ وشهد بمصر .

— أبو حبيب نصر الخزرجي الغرناطي قدم الإسكندرية من الأندلس ، وقرأ على السلفي سنة ٥٣٠ سيرة ابن هشام ، وحج ورجع إلى بلاده .

— محمد بن عبد الرحيم الأنصاري الخزرجي ابن الفرس الغرناطي ، كتب إليه السلفي من الإسكندرية .

— محمد بن عبد الرحيم الأنصاري الخزرجي ابن الفرس الغرناطي ، كتب إليه السلفي من الإسكندرية ، ولم يرحل إلى المشرق ، وتوفي سنة ٥٦٧ .

— عبد الله طاهر بن حيدرة بن مفوز المعافري الشاطبي أجازه السلفي وتوفي سنة ٥٦٧ .

— أبو محمد عبد الله بن تيفاو الحلواني التونسي . كان يحضر كثيرا عند السلفي يسمع ويقرأ .

— علي بن محمد الفارسي ثم القرطبي ، حج سنة ٥٣٠ وسمع كثيرا من السلفي وكتب عنه أكثر من ألف ورقة وحدث عنه بسيرة ابن هشام ومات شهيدا سنة ٥٦٧ بعد الثمانين .

— عبد الله بن محمد الغافقي الشقوري القرطبي حج سنة ٥٦٧ وسمع من السلفي وعاد إلى الأندلس سنة ٥٦٨ وكثر عدد الآخذين عليه بها .

— يحيى بن سعدون الأزدي القرطبي إمام القراءات وعلوم القرآن والحديث والنحو واللغة خرج شابا من الأندلس وسمع السلفي بالإسكندرية ودخل أصفهان وبغداد سنة ٥١٧ وتوفي بالموصل سنة ٥٦٧ .

— محمد بن الحسن بن الخضر الميورقي ، حج وسمع من السلفي سنة ٥٦٨ وجلس للحديث وأخذوا عنه .

ـ محمد بن عبد الله المقرى الغرناطى ابن الغاسل كتب إليه السلفى دون أن يلقاه وتوفى بعد سنة ٥٧٠ وكان معروفا بالحديث والإقراء .

ـ محمد عبد الله بن بيبش المخزومى البلنسى الفقيه المفتى المشاور حج ورحل وسمع من السلفى سنة ٥٣٩ وتوفى بالإسكندرية .

ـ محمد بن أحمد خلف الكتامى الأشبيلى . كتب عنه السلفى فى معجمه .

ـ محمد بن صالح ابن الزيات الأشبيلى ، سمع منه السلفى وحدث ببلده سنة ٥٥٣ .

ـ عبد الله بن محمد بن خلف بن سعادة الأصبحى الدانى نزل بمدرسة السلفى بالإسكندرية وسمع منه وحدث ، ومات غريقا بعد ٥٧٣ .

ـ عبد الله بن عبد الله ابن عيشون المعافرى البلنسى كان غنيا ونزل بالمهدية ثم رحل فسمع من السلفى وتوفى سنة ٥٧٤ هـ .

ـ عبد الوهاب بن على بن عبد الوهاب القرطبى ، رحل إلى الإسكندرية سنة ٥٧٣ وروى بها عن السلفى ومات غريقا فى جدة بعد حجه سنة ٥٧٥ .

ـ محمد بن خير بن عمر بن خليفة ، رحل إلى المشرق وسمع من السلفى كثيرا وكتب عنه وعن شيوخه الذين لقيهم وسجل مؤلفاتهم ومقروءاتهم فى «الفهرست» الذى وضعه والمعروف بفهرست ابن خير ، وتوفى سنة ٥٧٥ عن ٧٣ سنة .

ـ أبو القاسم خلف بن عبد الملك ابن بشكوال الأنصارى القرطبى من تلاميذ ابن رشد الفيلسوف العربى ، تولى قضاء اشبيلية ، بقية المسندين بها ، والعالم فى أخبار الأندلس ، كتب أكثر من خمسين مؤلفا . كتب إليه السلفى مراراً من الإسكندرية وله معجم فى مشيخته ، وله كتاب « الصلة » وصل به كتاب « تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس » لابن الفرضى (ـ ٤٠٣ هـ) و « قضاة قرطبة » و « علماء إفريقية » للخشنى (٣٦١ هـ) ، وجاء ابن الأبار فوصل كتاب ابن

بشكوال بكتابه « تكملة الصلة » وتوفى سنة ٥٧٨ عن ٨٤ سنة ، والاسم الكامل للصلة هو « الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم » وفيه يرجع ابن بشكوال كثيرا إلى السلفى ، اعترافا منه بفضله وقدره .

ــ تقية بنت غيث بن على الأرمنازى الصورى ، الشاعرة من صور ، ولدت بدمشق ، وصحبت السلفى زمانا بالإسكندرية وتوفيت بها سنة ٥٧٩ عن ٧٤ سنة وقد مدحت السلفى بشعرها ، ولها ديوان شعر صغير مفقود .

ــ أبو إبراهيم عامر الأنصارى الأندلسى الرحالة ، دخل مكة والعراق والشام والإسكندرية وتوفى بها وكان من المرية ، وكان يلازم السلفى فى مواعيده لسماع الحديث .

ــ الأمير أبو ساكن عامر الهلالى من أمراء بنى هلال بالمغرب ، كان أديبا شاعرا مدح السلفى بعدة قصائد من شعره بالإسكندرية ، وكان يحضر عنده كثيرا .

ــ أبو محمد عبد الكريم بن الطفال القضاعى الشاعر البارع النحوى ، كانت له حلقة لإقراء النحو فى الجامع ، وسمع منه السلفى بالإسكندرية وأسمعه .

ــ عبد الرشيد بن المظفر الجخندى التاجر ، دخل بلاد الترك والهند والصين وكان فقيها محدثا ، حضر السلفى بمصر سنة ٥١٥ وسمع منه .

ــ أبو محمد عبد الحق الصقلى ، خرج من بلده مهاجرا مجاهدا فى سبيل الله وحج وأقام بالإسكندرية ، ولازم الصلوات عند السلفى وأكثر من سماع الحديث عنده .

ــ عبد الرحمن بن محمد الأنصارى بن حبيش من المرية ، قارىء فقيه عالم بالعربية والآداب . كتب إليه السلفى وكان آخر المحدثين بالمغرب ، والعالم بغريب الحديث ولغات العرب وتواريخها ورجالها وآدابها ، وكان لايجارى

ولا يبارى ، عارفا بالقرآن والحديث ورواته ،رحلوا إليه من سائر الأمصار ، له كتاب فى المغازى ، توفى بمرسية سنة ٥٨٤ عن ٨٠ سنة.

— أبو الحسن على بن معدان الصدفى الركانى ، سمع السلفى بالإسكندرية .

— أبو الحسن على الجندى الشاعر ، واظب على الحضور عند السلفى .

— أبو الحسن على الناصرى الشرابى السكندرى ، حضر السلفى فى مواعيده الجمعية بالإسكندرية .

— أبو الحسن على الأنصارى السرقسطى ، سمع السلفى وأخلص له حتى وضع كتابا عن الحفاظ بدأه بالزهرى وختمه بالسلفى .

— أبو الحسن على الدمراوى اللخمى ، كان جارا للسلفى فى الإسكندرية وكان نحويا راوية لشعرائها المتقدمين والمتأخرين من الذين صحبهم ، وأنشده أشعارهم مثل أحمد بن أبى مطر المطرز ، ومحمد بن عمار ، وابن مكنسة ، وابن حابس المقرب بن ماضى أمير الواحات .

— أبو الحسن على بن عبد الجبار بن سلامة الهذلى اللغوى الشاعر ، ولد بتونس سنة ٤٢٨ وقدم الإسكندرية فلقى السلفى سنة ٥١٩ وسمع منه ، وكان إماما فى اللغة ولم يكن فى زمانه ألغى منه .

— واجب بن أبى الخطاب القيسى البلنسى قاضى بلنسية الكاتب الشاعر الخطيب أجازه السلفى من الإسكندرية وتوفى بمراكش سنة ٥٨٢ .

— محمد بن إبراهيم بن حزب الله ، ابن البقاء الفاسى الفقيه المحدث ، حدث بالإجازة العامة من السلفى وتوفى بعد سنة ٥٨٢ .

— أبو الليث كثير المراغى ، لقى السلفى بالرى وسمع منه بها .

— كار بن ناصر بن نصر الحدادى الفقيه المراغى ، لقى السلفى بالرى أيضا وكتب عنه فى الأجزاء السلماسية التى عقد مجالسها فى ثغر سلماس .

ـــ كاسول بن أبى بكر الأبهرى الصوفى ، لقى السلفى بقزوين ثم أقام معه برباط الإسكندرية ، وسمع منه كثيرا .

ـــ الحسن بن محمد الأنصارى من لرية بالأندلس من أعمال بلنسية واشتهر بابن الرهبيل ، سمع من السلفى سنة ٥٧٢ وتوفى سنة ٥٨٥ عن ٥٤ عاما .

ـــ أبو الماضى عطية الكلشى الضرير من المغرب ، وقدم الإسكندرية وسمع بها من السلفى .

ـــ أبو الماضى عطية الفهرى ، سمع من السلفى بالإسكندرية وكتب عنه كثيرا ، وانتقل إلى سكنى مصر حتى مات بها .

ـــ صفى الدين أبو المجد المخزومى القاضى أحد كتاب الإنشاء لصلاح الدين ، أخذ عن السلفى ومات شهيداً بعكا سنة ٥٨٦ عن ٦٢ سنة .

ـــ أبو الحسن عدل الغافقى المرسى الشاعر ، كتب للسلفى من الأندلس كتاب « الاستيعاب » لابن عبد البر القرطبى ، ثم سمع عليه بالإسكندرية سنة ٥١١ ، وعاد إلى مرسية بلده ، وكتب له شعرا بخطه .

ـــ عبد الوهاب بن محمد الصنهاجى ، رحل وسمع من السلفى وتوفى بعد سنة ٥٨٤ .

ـــ أبو الذكاء فهم بن حسان اليمنى ثم الدمشقى التاجر الشاعر ، قدم الإسكندرية وسمع الحديث من السلفى وأسمعه من شعره ، ورحل إلى الأندلس ثم عاد وتوجه إلى الشام ، وانقطع خبره .

ـــ أبو نصر الفتح بن خلف المقرىء الخيرى السكندرى ، قرأ على السلفى ، ونسخ له ، وأبوه عبد أندلسى ، وما كان يستنكف الابن من ذلك ، دخل العراق والحجاز واليمن ، واستوطن الإسكندرية ، وتوفى بها ، وكتب عن السلفى وحضر مواعيد الجمع عنده .

ـــ أحمد بن محمد بن هارون بن عات النفزى الشاطبي سمع السلفى بالإسكندرية وله رحلة ولد بشاطبة سنة ٥٢٤ .

ـــ أبو محمد فاضل بن سعد الله بن صمدون من صور بالشام ، وكان يقرأ عند السلفى بمدرسته بالإسكندرية، وكذلك ولدان له شافعيان عرفا بالذكاء ،وخال أبيه غيث الأرمنازى وبنته تقية الشاعرة التى مدحت السلفى وأعجب بها وقد ولدت سنة ٥٠٥ ، وتزوجت فاضل هذا بدمشق فأنجبت منه وكان جده قاضى صور ، وتوفى بالإسكندرية .

ـــ ابن منصور قسطه الآمرى والى الإسكندرية وهو من الأمراء وكان يتردد على السلفى ويسمع دروسه .

ـــ على بن أحمد بن سعيد بن جنون ،حج وسمع من السلفى.وكان ينزل بالمرية، وصار خطيب الموصل ، وسكن مصر ، وصفه ابن الأبار فى التكملة بأنه « كان يكذب» وتوفى بعد سنة ٥٨٦ .

ـــ يحيى بن محمد الأنصارى من لرية بالأندلس ، أجازه السلفى وتصـــدر للإقراء وتوفى سنة ٥٨٧ .

ـــ محمد بن على بن هذيل التراليى البلنسى ، حج ورحل وسمع من السلفى سنة ٥٣٩ وحج سنة ٥٤٠ وسمع بمكة ، وكانت له مشاركة فى اللغة وعلم العبارة ، وعاد إلى بلده بلنسية سنة ٥٤٦ وتوفى سنة ٥٨٨ عن ٦٩ سنة .

ـــ سلطان مصر والشام ومؤسس الدولة الأيوبية بمصر وهـازم الصليبيين : صـــلاح الدين الأيوبى سمع الحـــديث من السلفى بالإسكندرية سنة ٥٧٢ ومعه ولداه وحاشيته ، وتوفى سنة ٥٨٩ ، وكان يحب أهل السنة وأنشأ أول مدرسة للشافعية فى العالم الإسلامى كله بالإسكندرية ومصر .

ـــ أبو الحسن طارق بن يعيش البلنسى ، سمع بالإسكندرية من السلفى ،

وكتب عنه ثم رجع إلى بلده وروى عنه بالأندلس ماسمعه عليه وعلى غيره ، ثم عاد فحج بعد سنين ومر بالإسكندرية .

ـــ مفوز بن طاهر بن حيدرة المعافرى القاضى الشاطبى القارىء الشاعر الفقيه أجازه السلفى من الإسكندرية ، وتوفى سنة ٥٩٠ عن ٧٣ سنة .

ـــ أبو الحسن شجاع بن محمد بن سيدهم المدلجى المقرىء المصرى المالكى ، سمع من السلفى وتصدر للإقراء بجامع مصر وتوفى سنة ٥٩١ عن ٦٣ سنة .

ـــ محمد بن أحمد بن هذيل العبدرى المربيطرى (من مربيطار) ، حج وسمع من السلفى وعاد وتوفى ببلده سنة ٥٩٢ .

ـــ عبد الله بن أحمد بن جهور القيسى الإشبيلى ، أجاز له السلفى من الإسكندرية وتوفى بها سنة ٥٩٢ عن ٧٨ سنة .

ـــ محمد بن يوسف النباتى ابن الخباز البلنسى المحدث ، أجازه السلفى وتوفى سنه ٥٩٣ .

ـــ عبد الله بن محمد ابن السكاك الفاسى المالكى ، سمع من السلفى ولكنه لم يكن من أهل العلم كما يقول ابن الأبار فى « التكملة » ومات بفاس سنة ٥٩٦ عن ٦٩ سنة .

ـــ محمد بن على بن خلف التجيبى الكاتب الإشبيلى حج قبل سنة ٥٦٠ وسمع من السلفى وحدث وتوفى سنه ٥٩٦ هـ .

ـــ القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى العسقلانى المصرى الوزير الصاحب كاتب الإنشاء لصلاح الدين ، وقبلا بباب سدره بالإسكندرية ، سمع الحديث من السلفى ، أرسله أبوه قاضى عسقلان إلى مصر ليتعلم الكتابة واشتغل بكتابة الإنشاء فاشتهر على أهل عصره بأسلوبه حتى بغداد وجعله صلاح الدين كاتبه وصاحبه ووزيره ومستشاره واقتنى مائة ألف كتاب وتوفى سنة ٥٩٦ ، ودفن بمصر ، فى « التربة الفاضلية » .

ـــ العماد الكاتب الأصبهانى، كاتب الإنشاء لصلاح الدين والدولة النورية بدمشق سابقا . سمع من السلفى دروسه مع السلطان صلاح الدين بالإسكندرية سنة ٥٧٢ وبرع فى النظم والنثر والأدب وحفظ دووابن العرب ، وتوفى سنة ٥٩٧ . وله «خريدة القصر وشعراء العصر» . و «الفيح القسى فى الفتح القدسى» .

ـــ على بن عتيق الأنصارى الخزرجى المقرىء المحدث الطبيب الشاعر سمع من السلفى وتوفى سنة ٥٩٨ عن ٧٥ سنة .

ـــ محمد بن عبد الله ابن ماجد الأنصارى البلنسى ، حج ورحل سنة ٥٧١ وسمع من السلفى وعاد إلى بلاده بعد سنة ٥٧٦ وتوفى سنة ٥٩٨ .

ـــ عتيق بن على ابن رزين العبدرى ابن الغفار الطرطوشى المقرىء الفقيه القاضى الخطيب الشروطى . أجازه السلفى وتوفى سنة ٦٠٠ هـ .

ـــ أحمد بن محمد بن هارون بن أحمد أبو عمر بن عات النفزى الشاطبى رحل إلى المشرق وسمع السلفى بالإسكندرية وسمع من مصر ومكة ودمشق والموصل وهو مالكى ولد بسبتة وتوفى سنة ٦٠١ عن ٧٧ سنة .

ـــ محمد بن أبى خلد ابن أبى زمنين المرى الألبيرى الغرناطى كتب إليه السلفى من الإسكندرية وهو فقيه عالم بالرجال الذين نزلوا بلاد الأندلس قديما من العرب وتوفى سنة ٦٠٢ عن ٦٩ سنة .

ـــ محمد بن يوسف بن أبى زيد ابن عياد من لرية ، كتب إليه السلفى وهو شاعر أديب مؤرخ توفى سنة ٦٠٣ عن ٥٩ سنة

ـــ أبو الحجاج يوسف البلوى المالقى المعروف بابن الشيخ ، ولد بمالقة وسمع بها ورحل إلى الإسكندرية وحج سنة ٥٦٠ وسمع السلفى وتردد عليه وأكثر من الأخذ عنه ، وكتب عنه كثيرا فى كتابه «ألف باء» ، واشتهر بالحظ الوافر من علوم اللغة والأدب والفقه والأصول . بنى ببلده ٢٥ مسجدا من ماله

وعمل فيها بيده ، وحفر أكثر من ٥٠ بئرا بيده ، وغزا عدة غزوات بالمغرب مع المنصور ، وبالشام مع صلاح الدين ، ولبس الخشن وكان زاهـــداً عابدا ، وله كتاب آخر مفقود هو « التكميل » ومات بمالقة سنة ٦٠٤ عن ٧٧ سنة .

— محمد بن قاسم بن عبد الرحمن التميمي الفاسي ، رحل إلى الشرق ١٥ عاما سمع فيها عن نحو ١٠٠ عالم وأجازه السلفي وجمع لنفسه « النجـــوم المشرقة فى ذكر من أخذ عنه من كل ثبت وثقة » وسمعوا منـــه بالإسكندرية وعاد إلى الأندلس فمات ببلده فاس سنة ٦٠٤ .

— جمال الدين أبو البركات هبة الله بن محمد بن الحسن بن مفرج ابن الواعظ المقدسي ثم الإسكندراني المحدث ، كان من عدول الإسكندرية حدث عن السلفي وأخذ عنه وتوفى سنة ٦٠٥ عن ٨١ سنة .

— أبو منصور فتح ابن خلف السعدى الدمياطى النجيب سمع بمكة وبيت المقدس وحدث بمصر ودمياط ، وبها توفى سنة ٦٠٦ .

— أبو الحسن على بن غطاس الهمذانى السخاوى ، ولد بسخا سنة ٥٥٨ وقدم القاهرة وكان مقرئا نحويا مفسرا للقرآن ، سمع من السلفى بالإسكندرية وسكن دمشق .

— أسعد بن مهذب بن مماتى الكاتب المحدث الشاعر ، تقلب فى المناصب وتوفى بحلب سنة ٦٠٦ عن ٦٢ سنة .

— أبو عبد الله محمد بن مسعود ابن عمار القرشى المخزومى توفى بالقاهرة سنة ٦٠٦ وسمع من السلفى .

— أبو روح المطهر البيهقى الجيوشانى الشافعى الصوفى المحـــدث ، سمع بنيسابور ، وأقام بالخانقاه بالقاهرة سنين وسمع السلفى وتوفى بوادى نخل سنة ٦٠٧ .

ـــ أمين الدولة أبو الفضائل هبة الله بن سلامة بن المسلم اللخمي المحدث ، سمع ببغداد والإسكندرية وأخذ على السلفى وتوفى بمصر سنة ٦٠٧ .

ـــ أبو الثناء شكر بن صورة بن سلامة بن حامد العوفى الإسكندرانى المقرىء المحدث، تصدر بالإسكندرية لإقراء القرآن . وله معرفة بالأنساب توفى بالإسكندرية التى سمع بها عن السلفى سنة ٦٠٨ .

ـــ يحيى بن عبد الرحمن القيسى الدمشقى الأصبهانى ، سمى بذلك لأنه أقام بأصبهان خمس سنوات لقراءة الخلافيات ، ولد بدمشق وسمع السلفى ، وتجول فى الأندلس وغرناطة، وكان فقيها شافعيا عارفا بالأصول متصوفا واعظا محدثا ، وتوفى سنة ٦٠٨ عن ٦٠ سنة .

ـــ أبو القاسم هبة الله بن أبى الفضل جعفر بن سناء الملك السعدى الشاعر بل أكبر شعراء مصر فى العصر الأيوبى، الأديب المصرى الكاتب بديوان الإنشاء وتوفى بالقاهرة سنة ٦٠٨ عن ٦٣ سنة وله « دار الطراز » ديوان كله موشحات بخلاف ديوانه المشهور ، وسمع من السلفى وحضر دروسه ، وكانت بينه وبين القاضى الفاضل رسائل متبادلة وهى مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس بعنوان: «فصوص الفصول ، وعقود العقول » .

ـــ أبو القاسم عبد الرحمن الرومى الأصل ، البغدادى المنشأ ، عتيق أبى الفتح أحمد بن عمر ابن باقا ، المقرىء التاجر ، سمع بمصر والإسكندرية وحدث بها وسمع من السلفى وتوفى بالقاهرة سنة ٦٠٨ ، ودفن بجوار كافور الإخشيدى .

ـــ محمد بن أيوب ابن نوح الغافقى البلنسى ، كتب إليه السلفى ، وبز أهل زمانه فى الحديث وحفظ الأنساب والأخبار والفقه وتوفى سنة ٦٠٨ هـ.

ـــ عبد الرحمن بن داود بن على الواعظ الزيزاوى المصرى، دخل الأندلس،

وجال فى أرجائها يعظ الناس ويذكرهم ، مدعيا الأخذ والسماع عن السلفى فتبين كذبه فزهدوا فيه،واطرحوا الرواية عنه، وامتنعوا عن الأخذ منه ونزل إشبيليه سنة ٦٠٨ وتوفى بتونس .

ــ أبو العوالى مرتفع بن تكين بن الأمانة جبريل ابن شجاع الكنانى ، سمع بمصر والإسكندرية وأخذ عن السلفى وتوفى بالقاهرة سنة ٦٠٩ .

ــ أبو الربيع سليمان بن سلطان بن خليفة المنذرى البناء المحدث ، سمع بمصر ومكة والإسكندرية وأخذ عن السلفى ، وكان إمام مسجد الحجارين بمصر وتوفى بها سنة ٦٠٩ .

ــ أبو عبد الله محمد مهران القرميسى الأصل الإسكندرانى الدار من بيت مشهور بها ،ولد بقرميس ، واستوطن الإسكندرية ، وكان تاجرا جال فى العراق والجبل والشام واليمن والهند ، محدث شافعى ، أفتى ودرس . وكتب عنه السلفى وسمع دروسه وتوفى بالإسكندرية سنة ٦١٠ .

ــ محمد بن عبد الرحمن التجيبى نزيل تلمسان ، بلده لقنت من أعمال مرسية ، طالت رحلته فى الشرق وكتب عن أكثر من مائة وثلاثين من أعيان المشارقة ، صحب السلفى واختص به وأكثر من الأخذ عنه ، ولما ودعه ومعه مئات الأسفار والأجزاء التى كتبها عنه وبقراءته سر به وقال له : « تكون محدث المغرب إن شاء الله . قد حصلت خيرا كثيرا » ، ودعا له بطول العمر حتى يؤخذ عنه ما أخذ عن السلفى ، وكتب « مشيخة السلفى » ، ومؤلفات ضخمة أخرى، ثم نزل تلمسان وطال عمره حتى توفى سنة ٦١٠ عن سبعين عاما .

ــ أبو المهند حسام الدمنهورى ، سمع السلفى بالإسكندرية وتوفى سنة ٦١٠

ــ محمد بن عبد الملك بن فرين من لرية ، محدث أجاز له السلفى سنة ٥٣٥ وتوفى سنة ٦١٠ .

ــ أبو الطاهر إسماعيل الجذامى الصوينى المقدسى الأصل القاهرى المولد

والدار، العالم، سمع السلفي بالإسكندرية، وحدث بدمشق وتولى ديوان الجيش وغيره لصلاح الدين وأولاده، وتوفي بحلب سنة ٦١٠ عن ٦١ سنة.

— عبد الله بن إبراهيم ابن منتيال الوراق من مربيطر وسكن بلنسية وسمع السلفي وأجازه، كان محدثا وبائع كتب في دكان له، توفي ببلنسية سنة ٦١١هـ.

— أبو علي منصور الجيزي الصوفي الوراق ابن الصيرفي المحدث سمع من السلفي بالإسكندرية وحدث بمصر والجيزة وتوفي بمصر سنة ٦١١.

— أبو عبد الله محمد بن داود الدربندي الصوفي المحدث، سمع بالإسكندرية ودمشق وأخذ عن السلفي، وتوفي بمشهد الخليل سنة ٦١١.

— أبو الحسن شرف الدين علي ابن الأنجب أبو المكارم المفضل بن أبي الحسن علي بن أبي الغيث بن مفرج بن حاتم بن حسن بن جعفر اللخمي المقدسي الأصل الإسكندراني المولد والدار الفقيه الحافظ العدل المالكي، تفقه بالإسكندرية وكان مدرس المالكية بها، وناب في الحكم بالثغر، وانقطع إلى السلفي وتخرج به، وحدث بمكة ومصر والإسكندرية ودرس بمدارسهما، ثم رحل نهائيا إلى مصر وتوفي بها سنة ٦١١ عن ٦٧ سنة ودفن بسفح المقطم، وبعد وفاة السلفي كان هو شيخ المدرسة السلفية، وأول من خلفه عليها، وعنه أخذ عبد العظيم المنذري وسار على نهجهما في كتابه «التكملة لوفيات النقلة» من ستين جزءاً في التراجم، ومن مؤلفاته كتاب عن الصيام، وكتاب «الاربعين المرتبة على طبقات الأربعين» و«تحقيق الجواب عمن أجيز له مافاته من الكتاب» وله ذيل على ذيل الأكفاني على وفيات النقلة للكتاني.

— أبو عبد الله محمد اللرستاني الصوفي التقي الورع سمع بدمشق والإسكندرية وأخذ عن السلفي وحدث وسافر مع توران شاه إلى اليمن وعاد بثروة

سلاماً ولكنه كان يؤثر الإقامة بخانقاه الصوفية، وتوفى بالقاهرة سنة ٦١٢، وبلده لرستان ولاية بين أصبهان وخوزستان .

— أبو محمد عبد القادر الرهاوى الحنبلى ، سمع ببغداد ومصر والإسكندرية ونيسابور ونوقان وسجستان وحدث بالإسكندرية والموصل وإربل وولى الحديث بدار الحديث المظفرية ، بالموصل، وسكن حران وحدث بها وتوفى بها سنة ٦١٢، وقد أخذ كثيراً عن السلفى واختص به، وكان من أقرب تلاميذه إليه ، وله كتاب « الأربعين » حديثاً من أربعين أستاذاً سمعها فى أربعين مدينة لا يتكرر منها حديث واحد ، فهو مثل « الأربعين البلدانية » للسلفى .

— أبو الأشبال عشم بن رضوان بن نصر العسقلانى من أبناء الأمراء المصريين، سمع السلفى بالإسكندرية وأخذ عنه وتوفى بقليوب سنة ٦١٢ .

— المظفر بن عبد الله بن على بن الحسين المصرى الشافعى ويعرف بابن المقترح الفقيه المتكلم تلقى بالإسكندرية وتولى التدريس بالمدرسة السلفية بها ، وحدث وتخرج به كثيرون ، وأقرأ بجامع مصر حتى توفى سنة ٦١٢ عن ٨٣ سنة له « شرح المقترح فى المصطلح » .

— الكمال أبو المجد أحمد بن مكى الإسكندرانى سمع من السلفى بالإسكندرية وكان عالماً بأصول الدين وتولى ديوان الصعيد ، ولكنه لم يحدث وتوفى بالقاهرة سنة ٦١٢ .

— أبو العباس أحمد بن عمر بن حامية البغدادى النساج المحدث سمع السلفى بالإسكندرية وتوفى سنة ٦١٢ عن ٨١ سنة .

— أبو العز ابن الحسين التقى المتوج سمع بمصر والإسكندرية ، وتولى التدريس بالمدرسة السلفية ، ورحل إلى مكة وحدث بها ، وولد بالقاهرة وبها توفى سنة ٦١٢ عن ٥٠ سنة .

— أبو الفتوح محمد ابن الجلاجلي التاجر البغدادي جوابة الآفاق دخل العراق والحجاز ومصر وبلاد الجبل وخراسان وما وراء النهر وبلاد الغور وغزنة والهند ، كان جده حسن الصوت فسمي «الجلاجلي» ، سمع السلفي بالإسكندرية وأخذ عنه وتوفي ببيت المقدس سنة ٦١٢ عن ٧٠ سنة .

— أبو صابر وأبو القاسم حامد بن أبي القاسم بن رزيق الأهوازي المحدث نزيل مصر ، سمع بالإسكندرية وعدن ودمشق ، وأخذ عن السلفي وحدث وتوفي بالمشهد الحاكمي سنة ٦١٢ .

— عتيق بن علي الأموي المرواني ابن قنترال من مربيطر ، قارىء لغوي حج سنة ٥٦٢ وسمع من السلفي بالإسكندرية وعاد فتصدر للإقراء والإسماع والحديث بمالقة وبلنسية ٦١٢ .

— النجيب أبو علي الحسن بن أبي محمد عبد الوهاب بن أبي الطاهر إسماعيل ابن مكي بن عوف القرشي الزهري السكندري سمع من جده الإمام الفقيه ابن عوف ومن السلفي بالإسكندرية وحدث بها وبالقاهرة توفي بالإسكندرية ٦١١ عن ٥٩ سنة وكان من أعيانها وذوي الآراء السديدة بها وبيته عريق في الأصالة والصلاح والعلم .

— أبو الحسن الأشرف علي بن مكي بن الحسين بن علي الإسكندراني ، صحب الزهاد وسمع بالإسكندرية وأخذ عن السلفي بها وحـــدث وكان أحد العدول بالثغر ، وتوفي سنة ٦١٣ .

— محمد بن وهب بن حب ابن نذير الفهري البلنسي الخطيب كتب إليه السلفي وإلى أخيـــه أبي عامر نذير وأبيهما من الإسكندرية ، وتوفي سنة ٦١٣ عن ٦٣ سنة .

— ناصر الدين بن المالك علي بن شاور مجير السعدي ، سمع بمصر والإسكندرية

وأخذ عن السلفى وحدث وتوفى بالقاهرة سنة ٦١٣ .

ـــ أبو محمد عبد الواحد بن ظافر الأزدى الصائن الدمياطى المتكلم ، سمع بالإسكندرية وأصبهان ومصر ودمشق ، وأخذ عن السلفى ، وكان معيدا محدثا ، توفى بدمشق سنة ٦١٣ عن ٥٧ سنة .

ـــ أبو محمد عبد المحسن الرشيد بن النقار الصوفى سمع السلفى بالإسكندرية ، وحدث وتوفى بمصر سنة ٦١٣ .

ـــ الأسعد أبو عبد الله محمد رضى الدولة ابن القطان العامرى المقدسى المولد والدار ، سمع السلفى وأخذ عنه وسمع بمصر والإسكندرية ودمشق وتوفى بمصر سنة ٦١٣ .

ـــ النبيه أبو الطاهر إسماعيل الانصارى الكاتب ، أخذ عن السلفى بالإسكندرية وسمع بها وبمصر التى توفى بها سنة ٦١٣ ، وكان السلفى يعجب بحسن خطه ، كما علق على السلفى فوائد جمة .

ـــ أبو أسعد محمد بن حمويه الخراسانى الجوينى ، أخذ عن السلفى وسمع منه بالإسكندرية ، كما سمع بمصر وحدث بها وتوفى بالقاهرة سنة ٦١٤ وبيته معروف بالعلم والزهد .

ـــ زين الدار يوسف بن أبى الحسن بن ياسين المصرى الصوفى سمع السلفى بالإسكندرية وتوفى بمصر سنة ٦١٤ .

ـــ محمد بن يوسف ابن ميمون الأزدى الشريشى ، حج وسمع من السلفى وتوفى سنة ٦١٤ .

ـــ محمد بن على بن محمد ابن هذيل البلنسى القارىء أجاز له السلفى وتوفى سنة ٦١٤ .

ـــ أبو محمد عبد الرحمن بن عبد الجبار العثمانى الكارمى المحدث السكندرى الكاتب أخذ عن السلفى كثيرا وتوفى سنة ٦١٤ عن ٧٠ سنة .

ـــ محمد بن محمـــد بن يبقى بن جبلة الخزرجى من أوريولة ، سكن القاهرة وسمع من السلفى وتوفى بعد سنة ٦١٦ .

ـــ على بن هشام الإشبيلى ثم الشريشى ، حج وسمع السلفى وحضر جنـازته . قارىء خطيب محدث توفى سنة ٦١٦ .

ـــ عمر بن عبد المجيد الأزدى الرندى، برع فى القراءات وعلوم العربية ونقد الرجال، أجازه السلفى وتوفى سنة ٦١٦ عن ٧٣ سنة .

ـــ محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد العربى المعافرى الإشبيلى رحـــل إلى الشرق سنة ٥٧٢ ، وسمع من السلفى «الأربعين حديثا البلدانية» وسيرة ابن هشام بالإسكندرية وأجاز له وعاد إلى الأندلس ، ورحـــل ثانية سنة ٥٩٦ إلى الشام والعراق والحجاز ، وفى عودته سمع بالإسكندرية من أصحـــاب السلفى ، وعاد سنة ٦٠٤ وحدث ببلاده ، ثم رحل للمرة الثالثة سنة ٦١٢ وجاور بالحرمـــين وتصوف ، ولد بإشبيليه سنة ٥٤٢ وتوفى بالإسكندرية سنة ٦١٧ ، وكان قد حج سبع مرات .

ـــ أحمد بن عمر بن محمد أبو الجناب الكبرا الخيوقى الشافعى شيخ خوارزم قال عنه الداودى فى « طبقات المفسرين » : « إمام زاهد فقيه بلده خيوق من بلاد خوارزم ، طاف البلاد وقدم القاهرة وسمع السلفى بالإسكندرية بعد سماعه من بلاده ، وفسر القرآن فى اثنى عشر مجلدا ، وله مؤلفات فى التصوف ، وانتهت إليه المشيخة بخوارزم ، واجتمع بالإمام فخر الدين الرازى ، وا .توطن خوارزم، فلما دخلها التتار سنة ٦١٨ وخرج لقتالهم ومعه ثمـــانون »

جميعا على باب البلد ، وقد ولد سنة ٥٤٥ .

ـــ محمد بن الحسين اللخمى ابن التجيبي الدانى أجازه السلفى وتوفى سنة٦١٨ عن ٥٨ سنة .

ـــ على بن محمد يوسف الفهرى الهابرى المقرىء أجازه السلفى ، محدث عالم بالقراءات ، وكان مؤدب أولاد سلطان مراكش وتوفى سنة ٦١٨ .

ـــ محمد بن عبد الواحد ابن حريث الغافقى الملاحى (الملاحة بالقرب من غرناطة) حدث بإجازة السلفى ، عالم بالحديث والأنساب، حافظ،حسن الخط ، توفى سنة ٦١٩ عن ٥٨ سنة .

ـــ أبو طالب ابن حديد القاضى بالإسكندرية من بيت معروف بالقضاء بها ، أخذ عن السلفى وتوفى بها سنة ٦١٩ .

ـــ عبد الصمد بن عبد الرحمن الباورى الوادى آشى اللبسى المقرىء المفسر الواعظ الراوية المحدث اللغوى ، أجازه السلفى ، وتصدر ببلده وتوفىسنة ٦١٩ عن ٨٥ سنة .

ـــ عبد اللهأحمد التميمى ابنالخطيب منبجاية ، كان شاعرا مقلا غيرمحدث، أجازه السلفى وتوفى بتونس سنة ٦٢٠

ـــ محمد بن محمد بن عبد البر بن مجـــاهد الأنصارى ابن زرقون الأشبيلى كتب إليه السلفى من الإسكندرية وله كتاب فى الرد على ابن حزم فيلسوف الأندلس ، وتوفى سنة ٦٢١

ـــ الصفى أبو محمد عبد اللهالشيمى دخل الإسكندرية وتفقه بها على بن جارة وابن عوف والسلفى ، وتوفى بالقاهرة سنة ٦٢٢

ـــ الفيروزابادى ، قدم من بلاده إلى دمشق ودخل مصر والإسكندرية وسمع بها من السلفى كثيرا وحدث عنه ، وجاور بمكة وتوفى بمصر سنة ٦٢٢ عن ٨٥ سنة ودفن بمعبد ذى النون المصرى .

ـــ أبو عبد الله محمد ابن رواج القرشى الإسكندرانى المحدث ، سمع من السلفى بالإسكندرية وتوفى بها سنة ٦٢٢ وسمع المنذرى منه بها أيضا .

ـــ عبد الله بن على بن الحسين بن عبد الخالق الوزير الصاحب صفى الدين المالكى العبدرى أخذ الفقه بالإسكندرية على السلفى وابن جارة وتوفى بالقاهرة سنة ٦٢٢ .

ـــ خديجة بنت الحافظ السلفى ، ولدت بالإسكندرية وسمعت أباها وأخذت عنه العلم وتوفيت بها سنة ٦٢٣ ، وبعد وفاة أبيها دخلت مصر فبالغ أهلها فى احترامها ولكنها لم تحدث بعده .

ـــ أبو محمد عبد الله التميمى القابسى الأصل ، الإسكندرانى الدار ، تفقه بالإسكندرية وسمع السلفى بها ، وجاور بمكة وحدث ، وقدم مصر وتوفى بالإسكندرية سنة ٦٢٢ عن ٩٠ سنة .

ـــ نصر بن عبد الله ابن بشير الغافقى المقرئ ، أجازه السلفى ، وتوفى بها سنة ٦٢٣ عن ٨٨ سنة .

ـــ عبد الله بن عبد العظيم الزهرى المالقى المحدث أخذ عن السلفى وتوفى سنة ٦٢٣ .

ـــ يونس بن بدران بن فيروز الجمال المصرى شارك فى علوم كثيرة ، واختصر « الأم » للشافعى ، وألف فى المواريث ، ودرس التفسير بدمشق ، وولى قضاء الشام وسمع السلفى بالإسكندرية ، وتوفى سنة ٦٢٣ .

ـــ أبو القاسم صدقة ابن السكيال الجزيرى الحسينى السكندرى ، سمع السلفى بالإسكندرية وكان غزير العلم ، وله وتوفى بها سنة ٦٢٤ عن ٨٧ سنة ودفن بالديماس .

ـــ أبو محمد عبد الله القرشى المهدوى المولد الإسكندرانى الدار ، قـــدم

الإسكندرية من المهدية (بالمغرب) وسمع السلفى بالإسكندرية التى استوطنها وتوفى سنة ٦٣٤ عن ٨٢ سنة .

ـــ الموفق الرئيس على بن أبى القاسم الجذامى السكندرى المالكى العدل ولد بالإسكندرية وسمع بها ومصر ، وكان أحد رؤساء الثغر ومن أعيانه ، وكان الملوك يجلونه لمكانته ، حدث عن السلفى وابن قلاقس ، وأدركه المنذرى بالإسكندرية وتوفى بها سنة ٦٢٤ عن ٨٧ سنة .

ـــ أبو الفضائل جعفر بن تركى الإسكندرانى العدل ، سمع بالإسكندرية من السلفى وحدث وتولى المناصب فى الدولة الفاطمية ، وكان يحب أهل الحديث ويكرمهم وتوفى بالإسكندرية سنة ٦٢٤ .

ـــ أبو محمد عبد الصمد الأصبحى الشافعى المقاماتى ، وسمى بذلك لكثرة حفظه مقامات الحريرى ، حدث عن السلفى وقد سمع منه بالإسكندرية ، توفى بمصر سنة ٦٢٤ عن ٧٠ سنة .

ـــ البرهان أبو محمد عبد العزيز سحنون الغمارى النابلى النحوى المعدل ، سمع بمصر والإسكندرية وحدث عن السلفى وتصدر لإقراء العربية بالجامع العتيق بمصر ، وتوفى بها سنة ٦٢٤ عن ٧٩ سنة .

ـــ أبو المنيع درع بن فارس بن حيدرة العسقلانى نزل دمشق وحدث بها وسمع بالإسكندرية ومن السلفى ، وتوفى بدمشق سنة ٦٢٥ عن ٧٨ سنة .

ـــ أبو عبد الله محمد بن فتحون بن رافع القيسى التاجر ، قدم الإسكندرية من سبتة وتوجه إلى مصر وبغداد وعاد إلى بلاده ثم الإسكندرية فأقام بها وحدث عن السلفى وبها توفى سنة ٦٢٥ عن ٨١ سنه .

ـــ أبو رزين اللخمى الكريونى النحوى (الكريون فى الجنوب الشرقى من

الإسكندرية) ، سمع من السلفي بالإسكندرية وحدث عنه . وكان شاعراً، وتوفى بها سنة ٦٢٥ عن ٧٠٢ سنة .

ــ أبو الحسن شارة بن طلائــع المكيني ، سمع السلفي بالإسكندرية وتوفى سنة ٦٢٥ .

ــ محمد بن عبد الحق السكومى قاضى تلمسان ، برع فى العربيـة والقراءات والفقه والحديث والكلام ، وله عدة مصنفات . كتب إليه السلفى من الإسكندرية وتوفى بتلمسان سنة ٦٢٥ وجاوز ٨٠ سنة .

ــ أبو عمران موسى الأزدى اللى الإسكندرانى المالكى العدل المحــدث المفتى ، كان من أجل فقهاء المالكية ومدرسيها بالإسكندرية كأبيه ، وسمع بهـا من السلفى وتوفى بها سنة ٦٢٦ عن ٨٦ سنة .

ــ الأمير جمال الدين أبو الطاهر إسماعيل بن سيف الدولة ابن منقذ الكنانى الشيزرى المصرى ، سمع بالإسكندرية ومصر وأخـذ عن السلفى ، وكان يكتب الرسائل للملك الكامل إلى الإفرنج وهم بدمياط، وتوفى بحران سنة ٦٢٥ .

ــ أبو الربيع سليمان البزاز المليجى (من مليج) ولد بالإسكندرية وسمع بها وهو وجده من قبله من السلفى ، حدث وأجاز ، وتــوفى بها سنة ٦٢٦ عن ٧٧ سنة .

ــ أبو محمد عبد المحسن الأنصارى الخزرجى ابن الدجاجى الشافعى سمع بالإسكندرية من السلفى وحدث عنه ، توفى سنة ٦٢٦ عن ٧٧ سنة .

ــ الأكمل أبو المجــد فاضل بن نجا المخيلى الإسكندرانى العدل ، سمــع بالإسكندرية من السلفى ، وحدث عنه ، ولد ونشأ وتــوفى بالإسكندرية سنة ٦٢٦ عن ٦٨ سنة (مخيل : قرب برقة) .

— أبو ... عبد الغني بن محمد ابن حكيم الغرناطي الصيدلاني قاضي ميورقة (جزيرة في شرق الأندلس) أجازه السلفي من الإسكندرية ، وتوفي سنة ٦٢٧ .

— محمد بن محارب القيسي أبو عبد الله الإسكندراني ، دخل الأندلس وأصله من المغرب ، زعم أنه سمع «الأربعين البلدانية» من السلفي ، وحدث بها ، وولد سنة ٥٥٤ .

— أبو علي الحسين بن تركي المحدث الإسكندراني العدل ، سمع بالإسكندرية من السلفي وهو من بيت عدالة وجلالة ، ولد وتوفي بالإسكندرية سنه ٦٢٧ عن ٧٧ سنة .

— أبو بكر محمد الأنصاري الدمشقي العدل ابن الشيرجي ، سمع بالإسكندرية ودمشق وحدث بالقاهرة عن عالم الإسكندرية وتوفي بدمشق سنة ٦٢٧ .

— أبو بكر محمد الأنصاري الدمشقي العدل ، سمع السلفي بالإسكندرية وحدث عنه بالقاهرة ودمشق وتوفي بها سنة ٦٢٧ .

— أبو الفتح نصر بن بدوين البعسدي الحنفي سمع بالإسكندرية ... عكة ، وسكن طوخ (في دلتا مصر) وقدم مصر وحدث بها وتوفي سنة ٦٢٧ .

— محمد بن عيسى بن الوليد القضاعي من مرابطي ... السلفي في الإسكندرية وكان إماما وخطيبا ، شارك في الأحكام والفرائض والحساب ، حدث قليلا وتوفي سنة ٦٢٧ عن ٨٣ سنة .

— الأمير الشجاع أبو منصور ... المظفري التهولي ، سمع السلفي بالإسكندرية وولي ثغري الإسكندرية ودمياط وشد الدواوين ، وكان محدثا وشاعرا مجاهدا توفي بالقاهرة سنة ٦٢٨ .

— أبو الحسن علي بن رسال السكندري الشافعي العدل ، نزل مصر وسمع

بها و بالإسكندرية وأخذ عن السلفى ، وتوفى بالقاهرة سنة ٦٢٨ ، وأخوه أبو الفضل عبد الحميد الإسكندرانى سمع من السلفى أيضا بالإسكندرية ، ودخل العراق والشام وسكن القاهرة .

— الأمير المعين أبو عبد الله محمد بن أبى الثناء بن أبى نصر بن فرج الدوينى الجندى سمع من السلفى بالإسكندرية وتوفى بالقاهرة سنة ٦٢٨ .

— أبو بكر عتيق بن رمـلى الأنصارى الإسكندرانى ، سمع من السلفى بالإسكندرية وحدث بها ، وولد وتوفى بها سنة ٦١٨ عن ٧٤ سنة .

— أبو الفتح الأعز هبة الله الغفارى أو الغضارى ، سمع بمصر والإسكندرية وأخذ عن السلفى ولد وتوفى بمصر سنة ٦٢٩ عن ٨٠ سنة .

— أبو محمد عبد الصمد المقرىء الجنابزى الشافعى الغضارى ، سمع بمصر والإسكندرية وحدث عن السلفى ، ولد وتوفى بمصر سنة ٦٢٩ عن ٦٥ سنة .

— محمد بن محمد ابن جهور الأزدى المرسى ، أجازه السلفى ، وكان شاعرا ناثرا ، ولكنه غير محدث ، توفى سنة ٦٢٩ .

— أبو محمد عبد الغفار بن نشتكين التركمانى الدنوشرى المحلى (دنوشر قرب المحلة فى دلتا مصر) العدل ، سمع السلفى بالإسكندرية وشهد بالمحـلة وتوفى بها سنة ٦٢٩ .

— أبو محمد الحسن بن عبد الخالق الصنهاجى الشاطبى ، سمـع السلفى بالإسكندرية وتوفى بها سنة ٦٢٩ وحدث ، وهو أخو أبى عبـد الله الصنهاجى وأبى محمد عبد الله بن عبد الجبار لأمه .

— عيسى بن عبد العزيز بن عيسى أبو القاسم ابن المحدث أبى محمد اللخمى الشريشى الإسكندرانى المقرىء سمع من السلفى وتصدر للإقراء وروى عنه المنذرى وتوفى سنة ٦٢٩ .

ـ محمــد بن عبد الله المرسى الغرناطى . أخذ عن السلفى وسمــع بمصر والإسكندرية ودمشق وبغداد ، ودخل أصبهان فاستولى عليها المجوس وفقــد بها قبل سنة ٦٢٠ هـ .

ـ أبو على الحسن الإوقى (ينسب إلى إوه) الصوفى : سمــع من السلفى بالإسكندرية كما سمع بمصر القاهرة وحدث ببيت المقدس وبها توفى سنة ٦٢٠ .

ـ على بن محمد بن يبقى بن جبلة الأنصارى الخزرجى من أوريولة وخطيبها ، سمع السلفى سنة ٥٧٣ وتوفى سنة ٦٣٠ .

ـ أبو الفتوح ناصر بن السفطى الأخميمى الأصل السكندرى المولد والدار سمع السلفى بالإسكندرية وحدث وأجاز ، وتــوفى بالإسكندرية سنة ٦٣١ عن ٧١ سنة .

ـ محمد بن أحمــد الأنصارى ابن البلنسى الأندرشى من المرية بالأندلس ، حج سنة ٥٦٦هـ وسمع بالإسكنــدرية من السلفى . وكان كثير الترحال عالى الإسناد ، رحلوا إليه فى سماع الحديث وتوفى سنة ٦٣١ .

ـ أبو عبد الله بن عبد الأحـد بن الربيب المؤدب المحدث أخذ عن السلفى بالإسكندرية وتوفى سنة ٦٣١ .

ـ عبد الله محمد الجرزى التاجر والمسند الحنبلى المعروف بالإسكندرية ، ولد بحران وسمع ببغــداد ومصر والإسكندرية التى سكنها وسمــع من السلفى بها حتى مات بها سنة ٦٣٢ عن ٩٠ سنة وكان مرحــولا إليه لانفراده بسماع فوائد الخلعى .

ـ أبو الحسن على السكندرى التجيبى النحوى السخاوى مولدا المحلى دارا المالكى مذهبا ، العدل سمع السلفى بالإسكندرية وكان أديبا شاعرا تقلب فى المنــاصب الديوانية العامة وحدث وأقرأ النحو ، وتوفى بالقاهرة سنة ٦٣٢ عن ٧٨ سنة .

ـ على بن عبد الصمد بن محمد نفيع بن الرماح عفيف الدين المصرى المقرىء

الشافعى ، سمع من السلفى وتصدر للإقراء بالمدرسة الفاضلية ، بالقاهرة وتوفى سنة ٦٢٣ عن ٧٦ سنة .

ـــ أبو محمد عبد الله بن أبى البقاء صالح بن عيسى بن عبد الملك ، دخل الإسكندرية وسمع بها من السلفى وحدث ، وتوفى بالقرعونية (بمحافظة الغربية مصر) سنة ٦٣٤ عن ٨٧ سنة .

ـــ منصور بن لب بن عيسى الأنصارى من المرية بالأندلس ، القارىء سمع من السلفى بالإسكندرية وأجازه وولد سنة ٥٧١ ولاندرى سنة وفاته .

ـــ أبو الفضل عبد الله بن أبى الطاهر الإسكندرانى ، سمع السلفى بالإسكندرية وتولى نظرها أى كان ناظر الثغر (المحافظ فى العصر الحديث) وبعض المناصب الأخرى ، ولد بالإسكندرية وتوفى بالقاهرة سنة ٦٣٤ عن ٦٨ سنة ودفن بجوار أبى الحسن المقدسى ، خليفة السلفى المدفون بالمقطم .

ـــ أبو إسحق إبراهيم الجباب التميمى السعدى الأغلبى سمع من السلفى بالإسكندرية وحدث عنه وقد ولد بمكة وتوفى بمصر سنة ٦٣٤ عن ٨٢ سنة .

ـــ أبوالقاسم هبة الله بن على بن جراح بن الحسين الكاتب سمع السلفى بالإسكندرية وحدث وتقلب فى المناصب بمصر وغيرها وقد ولد بالقاهرة وتوفى بالشوبك (بالشام) ودفن بقلعتها ، ثم نقل رفاته فدفن بالقاهرة سنة ٦٣٥ عن ٨٤ سنة .

ـــ أبو عبد الله محمد بن موسى بن مهيا اللخمى الإسكندرانى ، ولد بالإسكندرية وسمع من السلفى بها ، وحدث وأجاز وتوفى سنة ٦٣٥ عن ٧٩ سنة .

ـــ المأمونى النيسابورى الأصل المصرى المولد والدار ، الجنائزى المقرىء

بيتهم بمصر والإسكندرية وأخذ عن السلفي وحدث لأنه من بيت رجاله أهل حديث وقضاء وفقه، كان منهم ١٧، بالإسكندرية وحدها منهم ثمانية، توفى بالقاهرة سنة ٦٣٦ .

– اللواتي الحنفي البزاز ، سمع من السلفي بالإسكندرية وحدث ، وتوفى بالقاهرة سنة ٦٣٦ .

– أبو القاسم الجمال عبد الرحمن بن عبد الرحمن الصفراوى الأصل الإسكندرانى المولد والدار ، المالكي المذهب ، العدل ، سمع من السلفى بالإسكندرية ، وانتهت إليه رياسة الإفتاء ودرس وأقرأ وأفتى وحدث بها بالمنصورة والقاهرة وتوفى بالإسكندرية سنة ٦٣٦ عن ٩٢ سنة .

– أبو علي حسان الجنى المهدوى الإسكندرانى ، أخذ عن السلفي ، وتفقه وقرأ الطب وبرع وسمع بالإسكندرية وحدث وأجاز ، وتوفى بها سنة ٦٣٦ .

– جعفر بن علي بن أبى البركات الهمدانى ، راوية السلفى المشهور ، سمع منه كثيراً ، وقدم دمشق وسمع عليه أهلها ، وبها توفى سنة ٦٣٦ عن ٩٠ سنة .

– محيى الدين بن عربى المتصوف الإلهى ولد بمرسية سنة ٥٦٠ رحل إلى الشرق وأجازه السلفى وقدم بغداد سنة ٦٠٨ وتوفى بدمشق سنة ٦٣٨ ، وهو صاحب أمهات كتب التصوف المشهورة .

– الحسين بن يوسف الصنهاجى الشاطبى ، ولد بالإسكندرية ونشأ وسمع من السلفى كما سمع من مكة ومصر وحدث ونسخ الكتب ، وتوفى بالإسكندرية سنة ٦٣٧ عن ٧٦ سنة .

– ابن المسكين أبو القاسم عبد الرحمن الدمشقى المصرى الصوفى ، سمع بدمشق ومصر والإسكندرية ، حيث أخذ عن السلفى ، وحدث وتوفى بالقاهرة سنة ٦٣٧ .

ـــ أبو الحسن على الرازى الدمشقى الشافعى المعلم الأديب ، سمـــع من السلفى بالإسكندرية وحدث عنه بدمشق وبها توفى سنة ٦٣٨ عن ٧٤ سنة .

ـــ أبو عبدالله محمد الهاشمى المالقى المالكى الضرير المعمر الغزالى ، ولد بمالقة، وسمع ببجاية والإسكندرية ومكة ومصر وحدث وأجاز ، وأكثر من الأخذ عن السلفى بالإسكندرية التى توفى بها سنة ٦٣٨ عن ١٠٤ سنة ، ودفن بجزيرة الإسكندرية من ظاهرها (رأس التين) .

ـــ أبو الـــبركات بن الشيخ الجذامى السعـــدى الإسكندرانى ، سمع بالإسكندرية عن السلفى وحـــدث عنه بها وبالقاهرة ، وهـــو من بيت علم ورياسة وتوفى بالإسكندرية سنة ٦٣٨ عن ٧٣ سنـــة ، وتوفى بالجزيرة ظاهر الإسكندرية

ـــ أبو الحسن على بن طغان العامرى المحـــلى الإسكندرانى الشهير بجمال الملك وابن الجمل وسمع بمصر والإسكندرية ، وحدث عن السلفى ، وهو من أولاد الأمراء المصريين توفى بمصر سنة ٦٣٨ عن ٩٠ سنة

ـــ أبو البركات محمد الأنصارى الإسكندرانى ابن تاجـــر عينه ، سمع من السلفى بالإسكندرية ، وحـــدث وأجاز وتوفى بالإسكندرية سنة ٦٣٨ عن ٨٩ سنة .

ـــ أبو البركات هبة الله الهمـــدانى الإسكندرانى المالكى ، سمع من السلفى بالإسكندرية وأجازه وحدث عنه ، وتوفى بالإسكندرية سنة ٦٣٨ .

ـــ الجمال أبو محمد عبـــدالله بن عبد الكريم الشافعى الدميـــاطى ابن البورى الفقيه ، تولى التدريس بالسلفية إلى أن توفى بالقاهرة سنة ٦٣٩ عن ٧٥ سنة ودفن بالمقطم .

ـــ الأمير أبو المظفر قايماز المعظمى الشمسى ، أخذ عن السلفى بالإسكندرية

وحدث بها وبالبحيرة ومصر ودمشق وغـــيرها ، وتولى مناصب عدة وتوفى بالقاهرة سنة ٦٣٩ عن ٨٤ سنة .

ــ أبو الكرم أسعد العـــدوى بن قادوس القاضى ولد بمصر وسمع من السلفى بالإسكندرية وبها توفى سنة ٦٢٩ عن ٩٦ سنة ودفن بجزيرة الإسكندرية وقد حدث بها وبمصر .

ــ العماد أبو محمـــد عبد العزيز ابن النقار الكاتب الشافعى ، سمع من السلفى بالإسكندرية وحدث ، وتوفى بمصر سنة ٦٤٠ عن ٨٥ سنة .

ــ العبادى السعدى الشيرازى الدمشقى الحنبـــلى ، سمع من السلفى بالإسكندرية ، كما سمع بدمشق ومكة وحدث وأجاز ، وتوفى ببلده سنة ٦٤١ .

ــ أبو المنصور ظافر ابن شحم الإسكندرانى المالكى المطـــرز ، ولد بالإسكندرية وسمع بها وأخذ عن السلفى ، وحدث وأجاز وتوفى سنة ٦٤٢ .

ــ الجمال أبو الفضل بن نجا الغسانى الإسكندرانى ابن المخيلى (مخيلة ببرقة) ولد بالإسكندرية وسمع من السلفى بها ، وحدث وكان أحد رؤسائها وأعيانها وتوفى بها سنة ٦٤٢ عن ٧٤ سنة ، وكان أبوه سعيد الدولة أبو محمد عبد المعطى قد قرأ علوم النظر وسمع من السلفى ، وتصدر بجامع العطارين بالإسكندرية .

ــ عمر بن محمد بن عمر الأزدى النحوى الإشبيلى رئيس النحاة بالأندلس ، أجاز له السلفى من الإسكندرية وجمع مشيخته ، وكان عالماً بالعربية لايجارى ولايبارى ، ظل فى إقرائها نحو ستين سنة حتى كبر سنة ، فلما انتشرت الفتنـــة اعتكف وكان آخر الأئمـــة فى المشرق والمغرب وكانت له معرفه بنقد الشعر ، وتوفى سنة ٦٤٥ عن ٨٣ سنة .

ــ جمال الدين أبو محمد عبدالله بن أبى إسحـــق إبراهيم بن أبى الفضل سعيد الريغى قاضى الإسكندرية وخطيبها وحاكمها ومفتيها ، دخـــل مصر سنة

٥٧٠ وعمره ٢١ سنة ، وطلب الإجازة من السلفى قبـــل وفاته ، وتولى حكم الإسكندرية سنة ٦٠٣ وتوفى بها سنة ٦٤٤ عن ٩٥ سنة ودفن عنـد المنـــار بالميناوين : وعنه وضع تلميذه الحسن بن عتيق سيرته المخطوطة النادرة وعنوانها « المفاخر السنية والمآثر المرضية » ونسأل الله أن يوفقنا إلى تحقيقها ونشرها .

ـــ أبو الحسن على بن محمـد بن إبراهيم بن عبـد الرحمن الضحاك ابن النفزى الفزارى المالـكى ، أخذ الحديث عن السلفى ، ولانعرف متى توفاه الله وأين كانت وفاته .

ـــ أبو على منصور بن سندى الدباغ النحاس الإسكندرانى أخذ بكثرة عن السلفى وتوفى سنة ٦٤٦ .

ـــ أبو المكارم عبدالله بن الحسن بن أبى عبـــدالله بن أبى بكر بن محمد السعدنى سعد جذام المقدسى الأصل الدمياطى المولد الفقيه الشافعى ، أجاز له السلفى وحدث وسمع منه المنذرى ، وسمع ببغـــداد وولى القضاء والخطابة وتدريس الفقه ومات بمصر سنة ٦٤٦ عن ٨٣ سنة .

ـــ رشيد الدين أبو محمد عبد الوهاب بن ظافر بن على بن فتوح ابن رواج المحدث المالـكى الإسكندرانى سمع من السلفى وتوفى سنة ٦٤٨ .

ـــ أبو منصور بن عبـــد الملك بن عتيق بن مظفر بن السرى الفهـــرى الإسكندرانى الشاهد المالـكى أخذ عن السلفى وتوفى سنة ٦٤٨ عن ٩٠ سنة .

ـــ ابن الجميزى الفقيه المحدث المقرىء المصرى ، انتهت إليه مشيخـــة العلم بالديار المصرية ، وقد أخذ عن السلفى وتوفى سنة ٦٤٩ .

ـــ سبط السلفى وهو الجمال أبو القاسم عبـــد الرحمن بن مكى بن عبد الرحمن الطرابلسى الإسكندرانى ، ولد بالإسكندرية سنة ٥٧٠ وسمع من جده الحافظ السلفى وغيره بها ، وتوفى بمصر سنة ٦٥١ ، وكان مسند الديار المصرية .

ـــ ابن المقدسية العدل شرف الدين أبو بكر محمد التميمي السفاقسي المشهور، أصله من سفاقس واستوطن الإسكندرية وأخذ عن السلفي وخرج له الحافظ منصور بن سليم مؤرخ الإسكندرية ومحتسبها مشيخة ، وتوفى سنة ٦٥٤ عن ٨١ سنة .

ـــ أبو السرايا عامر بن حسان بن فتيان بن محمود بن سليمان بن الهبار الأجدابي الإسكندراني وهو من أهل الحديث سمع السلفي وتوفى سنة ٦٥٤ .

ـــ عبد الرحيم بن أحمد الأنصاري السبتي ابن عليم ، حج سنة ٦١٣ والتقى أصحاب السلفي ولكنه لم يدركه ، وعاد بعد الحج إلى تونس سنة ٦٤٣ وحدث بها عن أصحاب السلفي وتوفى سنة ٦٥١ .

ـــ محمد بن محي الدين بن عربي ولد بملطية سنة ٦١٨ وكان يحدث عن السلفي بالإجازة العامة وكان قد ولد بعد وفاة السلفي ، وتوفى بدمشق سنة ٦٥٦ .

ـــ أحمد بن عبد الدائم الفندقي (فندق الشوح من جبل نابلس بالشام) الحنبلي ، أجازه السلفي ، ورحل إلى بغداد ، وكتب تاريخ دمشق ، وروى عنه كثيرون بمصر والشام ، وتوفى سنة ٦٦٨ عن ٩٣ سنة .

هؤلاء هم أكثر من ثلثمائة ممن أمكن العثور عليهم في المخطوطات والمطبوعات من الكتب القديمة والحديثة ، وكلهم أخذوا عن السلفي وتأثروا به ونشروا العلم في شتى أنحاء المشرق والمغرب ، منهم السلاطين والأمراء والأغنياء والفقراء من المصريين والأغراب ، منهم من سمع منه وهو ابن ست سنوات كسبطه ، ومنهم من أخذ عليه كهلا وهم كثيرون ، ومنهم من أخذ عليه شابا وما أكثرهم ، وهم جميعا قد عرفوا للرجل قدره ، فأقبلوا على السماع منه ، وكان لكل منهم دوره في تنمية الفكر الإسلامي على الرغم من التيارات السياسية العاصفة الجارفة .

ومما يلاحظ أن هؤلاء الآخذين عن السلفى ، قد تتلمذوا عليه وهو حى طوال المائة والستة من الأعوام التى قضاها من عمره فى شتى البلاد ، وأهم فـترة منها أخذوا عنه فيها هى فترة إقامته بالإسكندرية ، وقد ظل هؤلاء نحو مائة سنة بعد وفاته ، وهم يذكرونه ، ولاينسون سماعهم منه ، أو إجازته لهم على البعد ، ومن عدول الإسكندرية الذين أخذوا عليه ابن الواعظ وهو هبة الله ابن محمد بن الحسين بن مفرج جمال الدين أبو بركات المقدسى الإسكندرانى تـوفى سنة ٦٠٥ عن ٨١ سنة .

وقد قام بالتدريس بالمدرسة السلفية من بعد السلفى كثيرون منهم مثلا أبو القاسم هبة الله بن معد بن عبد الكريم القرشى الدمياطى المعروف بابن البورى (بور قرب دمياط مشهورة بالسمك البورى) ، انتقـل من بلده إلى الإسكندرية وتوفى سنة ٥٩٩ .

ولاندرى بعد ذلك هل يجـوز لنا أن نقول إن الأمة الإسلامية كلها قد تجمعت فى شخصية السلفى ؟، أم أن شخصيـة السلفى هى التى جمعت الأمة الإسلامية .

الحق أنه كان رجلا فى أمة ، وأمة فى رجل

رحمه الله ، وجعل الجنة العالية مثواه ، وهدانا جميعا إلى السير على خطاه .

وبعد ..

هذا هو الحافظ السلفي .. وقد أعانه الله على الرسالة التي أداها ، ونفع به الأمة الإسلامية ، شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، فاستحق منا الوفاء والذكر الحسن ، بعد أن تحرك من بلده في سبيل الثقافة الإسلامية ، وعرف أكثر من غيره بلادا لها أمجادها ، وانتهى به الأمر في الإسكندرية ، فاستقر بها ، وفيها التقى بآلاف الراغبين في الثقافة الإسلامية من طلاب العلم ، قادمين إليه ، من شتى بقاع العالم الإسلامي ، فقضى العمر وهو يحظى بالاحترام والتقدير من الملوك والوزراء والعلماء ، بدون خصومة أو عداوة من أحد يحول بينه وبين رسالته الكبرى وهي « الإسلام » .

ولم يعرف التاريخ مدينة ارتفع شأنها بسبب عالم جليل ، كالإسكندرية وعالمها الحافظ السلفي ، الذي كان صلاح الدين الأيوبي يجد أن من الشرف أن يستمع إليه في الإسكندرية ، ومعه أولاده والوزراء وكبار العلماء والتجار . . وعامة البشر من الرجال والنساء ، والشيوخ والشباب ، حتى في فترات الجهاد .

والإسكندرية مدينة محظوظة ، اشتهر بها — سواء من أهلها أو من القادمين إليها — رجال صانوا الثقافة الإسلامية ، وخدموها وصنعوا منها الخالدين ممن اشتهروا بها ، واشتهرت بهم كأبي العباس المرسي وأبي بكر الطرطوشي وغيرهما ، غير أن الحافظ السلفي ، كان أوسع وأعمق وأبعد وأدق من غيره في العالم الإسلامي مكانا وزمانا ، فكان بحق « أشهر علماء الزمان » .

أليس جديراً بمحافظة الإسكندرية اليوم ، أن تنظر بعين الجد والرعاية في تجديد مسجد السلفي على أحدث نظام في العمارة الإسلامية ، لا ليكون مصلى فقط ، ولكن ليكون جامعة إسلامية ، وليتعرف كل مسلم في الشرق والغرب ، على الإسكندرية التي تشرفت بكفاح السلفي ، وعلى تلاميذه الذين سموا منه

أو أخذوا عنه ، فاستقروا ببلاد مصر ، أو ببلاد الإسلام ، ونقلوا عنه ، وكتبوا له ، وكتب لهم ؟ .

ثم .. أليس من حق السلفى علينا أن نطبع مؤلفاته الرائعة ولا سيما المخطوطة الآن منها بين أيدينا مثل « معجم السفر » و « المشيخة البغدادية » ، لنتعرف على ما كان يفعله أسلافنا فى جمع كلمة الأمة ، عن طريق كلمة الله ؟ .

والهيئة المحلية لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالإسكندرية ، تهيب بالسيد المؤمن رئيس الجمهورية محمد أنور السادات ، ووزرائه الأوفياء المخلصين، أن ينال الحافظ السلفى حقه من التخليد والوفاء ، جزاء وفاقا بما قدمه — من الإسكندرية — للعالم الإسلامى ، من فضل خلده التاريخ ، وأهمله الغافلون ، وكان لنا وحدنا شرف البحث عنه ، وتخليد ذكراه ، على الرغم من صعوبة البحث ، وتعدد المجالات ، وطول الزمن ، وكان الله وحده نعم المعين .

المؤلف

محمد محمود زيتون

للمؤلف

١ - جرس المدرسة : (شعر) ١٩٣٥ مكتبة مصر - الإسكندرية

٢ - الملك الصياد : (قصة) ١٩٣٥ مطبعة صلاح الدين - «

٣ - إدكو : (دراسة) ١٩٣٦ مطبعة النهضة - «

٤ - وحدة الوادى : (مسرحية شعرية) ١٩٤٧

٥ - مينا : (« «) ١٩٤٧ دار النشر للجامعيين - القاهرة

٦ - ميلاد النبى (« «) ١٩٤٨ « « « «

٧ - جهاد النبى (حوار تاريخى) ١٩٥١ « « « «

٨ - الألعاب العربية (دراسة) ١٩٥٦ دار نشر الثقافة - الإسكندرية

٩ - حرائق القاهرة فى التاريخ («) ١٩٦٠ مكتبة وهبة - القاهرة

١٠ - سلسلة القصص القومية للأطفال ١٩٦٢ الدار المصرية للطباعة والنشر - بالإسكندرية

١١ - إقليم البحيرة (دراسة) ١٩٦٢ دار المعارف - مصر

١٢ - الإدارة المحلية فى مصر («) ١٩٦٢ « « «

١٣ - معركة كفر الدوار («) ١٩٦٢ دار الشرق الأوسط بالإسكندرية

١٤ - الصين والعرب عبر التاريخ (دراسة) ١٩٦٤ (اقرأ) دار المعارف

١٥ - فلسطين ضحية المؤامرات (دراسة) ١٩٦٤ الدار القومية للطباعة والنشر - بالإسكندرية

١٦ - كفاح الجزائر (دراسة) ١٩٦٥ « « « «

١٧ - الإمام أبو العباس المرسى (دراسة) ١٩٦٥ محافظة الإسكندرية

١٨ - القبارى زاهد الإسكندرية (دراسة) ١٩٦٨ دار المعارف - مصر

١٩ - أحلام الربيع (شعر) ١٩٦٩ » » »

٢٠ - قصص إسلامية للأطفال (صدر منها ٢٠ حلقة) ١٩٧٠ المكتب المصرى الحديث - مصر

٢١ - تحت أسوار الإسكندرية (مسرحية شعرية) ١٩٧٢ مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية

٢٢ - الحافظ السلفى (دراسة) ١٩٧٢ مؤسسة شباب الجامعة - الإسكندرية

تحت الطبع :

٢٣ - سكندريات

٢٤ - الحركة الفكرية فى الإسكندرية

٢٥ - أحلام روتشيلد

٢٦ - فاطمة سيدة النساء

٢٧ - فلسطين تتحدى

الفهـــرست

تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
ز	٦	الدبيثى	الديبثى
٣٠	الأخير	سليم	سليم
٣٦	الهامش ١	الديبثى	الدبيثى
٤٤	٣	لا اسم	الاسم
٩٢	٧	الروضصين	الروضتين
١٢٣	١	ومع ذلك يفزعون	ومع ذلك لا يفزعون
١٤٤	٩	على السواء	على السواء
١٥١	١٣	كتب عنه	كتب عنهم
١٥٩	٩	نسلكاه	نسلكه
١٧٦	الأخير	وقالوا عنه	وقال عنه
١٧٦	١٠	بمدوسته	بمدرسته
٢١٨	٢١	أبناء سليمان	بناء سليمان
٢٥٦	٥	المالكية منهم	المالكية منهم ،
٢٦٤	٣	إجازة عقب	إجازة ولاسيما عقب
٢٧٧	٢	ولغيره	ولغيره وهو إسكندرانى
٢٨١	٦	سمع منه	سمع من

مطبعة صــلاح الدين
١٠ شارع أحمـــد عرابى ــ تليفون ٣٠٩٨٦ إسكندرية

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب سيرة الإمام الحافظ السلفى أشهر علماء الزمان ، فى القرن السادس الهجرى الذى بلغت فيه الثقافة الإسلامية أوج ازدهارها فيما بين غروب شمس الدولة الفاطمية الشيعية وشروق شمس الدولة الأيوبية السنية على يد السلطان صلاح الدين الأيوبى قاهر الصليبيين ، والذى لم تمنعه إصلاحاته فى مصر والشام فى ظل الوحدة النضالية من حضور دروس الحديث ، التى كان يلقيها السلفى بالإسكندرية ويحضرها معه أولاده وكبار رجال الدولة من الوزراء والكتاب والمؤرخين .

نشأ السلفى ببلده (أصبهان) وتلقى بها ، ثم رحل فسمع من بغداد ومكة والمدينة ودمشق وصور والإسكندرية والقاهرة ، حتى توفى سنه ٥٧٦ هجرية عن ١٠٦ سنة ، قضى منها فى الإسكندرية ٦٥ سنة ، فاشتهر بها واشتهرت به ، وتألق نجمه فى علم الحديث حتى لقبوه « مسند الدنيا » وبرع فى علوم اللغة والتفسير والفقه والتصوف والنقد والتاريخ والجغرافيا وعلم الرجال ، فكان المحقق المدقق فى كل مجال من مجالات الثقافة الإسلامية .

وكانت « المدرسة السلفية » ذات أصداء بعيدة وعميقة ، بمنأى عن الفتن الضارية التى عمت العالم الإسلامى فى ذلك العصر ، ولكن السلفى شق طريقه فى أناة ، غير طامع فى منصب أو جاه من ملك أو خليفة أو سلطان ، ولم يبلغ شأوه أحد قبله أو بعده ، وكان فضله على العلماء جميعاً أعظم وأتم سواء فى مادته أو منهجه ، وبذلك أسدى للتراث الإسلامى أجل خدمة ، إذ صانه من الضياع ، وعمل على تنميته ، وكان المرجع الدقيق لكل من جاء بعده فى مختلف العلوم .



